محمد حسنين هيكل

الأستعمار لعبته الملك



دار الشمس

الاستعمار لعبته ... الملك

ملحوظة:

الصفحتان ٨٢ و١٩٨ كانتا ممسوحتان فى الأصل الذى تم الاعتماد عليه وقد قمت بإستكمالهما بنفس الخط من خلال النسخة المكتوبة من اسطوانة "بصراحة" التى تجمع مقالات الأستاذ محمد حسنين هيكل

محمد حسنين هيكل

الأستعمار لعبته

الملك

دار الشمس

الطبعة الخامسة

مقدمة

. . . هذه صفحات كتبت على ثلاث مرات :

الأولى بين ربيع وصيف سنة ١٩٦٥ ، والثانية والثالثة بين خريف وشتاء سنة ١٩٦٦ و١٩٦٧ . والموضوع واحد فى المرات الثلاث ، وهو المعركة الجديدة — فى الحرب الممتدة — بين القوى الثورية الوطنية والاجتماعية ، لحركة القومية العربية من ناحية ، وبين حلف الاستعمار والرجعية من ناحية أخرى .

والمعركة مشهد من مشاهد الحرب . . . ويوم من أيامها .

وكانت « دنكرك » مثلا ، أو « العلمين » أو « ستالينجراد » أو « باتان » معارك مشهورة فى الحرب العالمية الثانية بين قوات الحلفاء وقوات المحور .

بنفس القياس كان « حلف الدفاع عن الشرق الأوسط » و « حلف بغداد » و « مشروع أيزنهاور » و « الحلف المركزى » معارك مشهورة فى صراع المصير الذى احتدم وما زال محتدماً على أرض الأمة العربية .

لكن النصر فى المعركة مع أهميته الكبرى ليس النصر فى الحرب .

النصر فى المعركة يتحقق بإرغام قوى العدو فى ميدان محدد — على الاستسلام .

والنصر فى الحرب — وهو وحده النصر الحاسم — يتحقق بإرغام قوى العدو فى كل ميدان على الاستسلام .

ولقد كان البعض يتصور أن سقوط مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط هو خاتمة الصراع . . . ونفس التصور لحق بعد ذلك بالنجاح فى تحطيم حلف بغداد ، والنجاح فى هزيمة مشروع أيزنهاور ، والنجاح فى شل فاعلية الحلف المركزى .

لذلك فإن هذا البعض — ومن هذا التصور — تفاجئه المعارك الجديدة . وذلك أثر من آثار الخلط بين حدود المعركة وبين أبعاد الحرب .

والحرب بين الأمة العربية وأعدائها حرب ضارية ، فبسبب ثرواتها الضخمة ، وموقعها الحاكم ، وتأثيرها الإنسانى ، فإن العدو لا يستسلم بسهولة .

وتتعدد المعارك . . . وتتباعد الميادين . . . وتختلف الوجوه ، ولكنها نفس الحرب الممتدة .

ولقد اختار أعداء الأمة العربية فى هذه المرحلة اسماً لمحاولتهم الجديدة جرت صياغته بعناية .

صاغه نفس المنطق الذى اختار اسم « الحرب الصليبية » لأول محاولات الاستعمار الأوربى ، كى يسيطر على الشرق الأوسط ، والذى اختار « نشر الحضارة والتمدين فى آسيا وأفريقيا » عنواناً لكل عمليات الغزو والنهب والعبودية التى فرضت على القارتين مئات السنين ، والذى اختار « الدفاع عن الديمقراطية » قناعاً للصراع على المستعمرات فى الحرب العالمية الأولى . . . وهكذا .

المحاولة الجديدة هذه المرة تريد استغلال « الإسلام » ، كما جرت من قبل محاولات استغلال المسيحية ، والحضارة ، والديمقراطية . . إلى آخر ما عددت .

وأترك هذه الصفحات كما كتبتها — على ثلاث مرات — بغير تغيير أو مراجعة على ضوء آخر التطورات .

وقد لا يكون ذلك هو الأسلوب التقليدى فى تجربة الكتاب . . .

لكنى آثرت أن أترك الحوادث « فى حالة حركتها » إذا جاز لى استعمال هذا الوصف .

أوثر أن أتركها تتكشف على الصفحات الآن ، كما تكشفت مع الأيام « فى حالة حركتها » أى فى حالة حدوثها :

ولقد كان الغرب يتصور [illegible] الأوسط هو ساحة الصراع ... ونفس التصور [illegible] في خطر حقيقي بفقدانه . والصراع في هذه [illegible] المنطقة الأخرى .

لذلك فإن هذا الغرب — من هذا التصور — يواجه [illegible] العرب . وذلك أمر من [illegible] المرحلة [illegible]

والحرب بين الأمة العربية وأعدائها حرب حضارية ... [illegible] تراثها الصحيحة ، ويدفعها الحاكم ، وتأثيرها الإنساني ، فإن العدو لا يستسلم بسهولة .

وتتعدد المعارك ... وتتباعد الميادين ... وتختلف الوجوه ... ولكنها نفس الحرب المستمرة .

ولقد اختار أعداء الأمة العربية في هذه المرحلة اسماً لحربهم الحديثة حركت [illegible] بعدائه ...

هذا نفس المنطق الذي اختار اسم « الحرب الصليبية » لأول محاولات الاستعمار الأوربي ، كي يسيطر على الشرق الأوسط ، والذي اختار « نشر الحضارة والتمدين في آسيا وأفريقيا » عنواناً لكل عمليات الغزو والنهب والعبودية التي فرضت على القارتين طوال القرن ... والذي اختار « الدفاع عن الديمقراطية » قناعاً لصراع على المستعمرات في الحرب العالمية الأولى ... وهكذا ...

الحملة الجديدة هذه المرة تريد استغلال « الإسلام » ... كما جرت من قبل محاولات استغلال المسيحية ، والحضارة ، والديمقراطية ... إلى آخر ما عددت .

الفصل الأول

سؤال إلى الرياض . . . تساؤلات بعده ؟ !

(٢ أبريل ١٩٦٥)

لا أعرف هل تتأثر روح مؤتمرات القمة العربية ، أو لا تتأثر ، إذا توقف أحد أمام الذى يجرى فى السعودية هذا الأسبوع ، ثم توجه إلى الحكام هناك ، وعلى رأسهم جلالة الملك فيصل ، يسألهم بالاحترام الواجب ، وبالأدب :

هل تقدرون مواقع خطاكم ؟ وهل تعرفون تماماً إلى أين ؟ وهل حسبتم للنتائج والعواقب حسابها ؟

* * *

قبل أن أستطرد ، ولكى يكون الرأى العام العربى شاهداً على الحقيقة ، وشريكاً فى الحكم بالبينة على أساسها فإنه يمكن تلخيص ما يجرى فى السعودية هذا الأسبوع على النحو التالى :

لقد أعد الآن للتوقيع فى جدة اتفاق سلاح بين المملكة العربية السعودية وبين بريطانيا ، بل ربما — مع صدور هذا الحديث — يكون الاتفاق قد وقِّع فعلا :

* منذ بضعة شهور ، وفى الأيام الأولى من مُلك فيصل الرسمى كان الكلام يتناثر عن اتصالات بين الرياض ولندن هدفها تعاون فى السلاح بين البلدين .

* منذ بضعة أسابيع حملت جريدة « الأوبزرفر » البريطانية الوقورة

فى عددها بتاريخ ٢١ من فبراير الماضى تقريراً من جدة يقول إن بريطانيا تتفاوض مع المملكة العربية السعودية على صفقة سلاح قيمتها خمسون مليون جنيه استرلينى ، واستطردت الأوبزرفر تقول بالحرف :

« إن هذه الصفقة علامة من علامات التقارب المتزايد بين بريطانيا والسعودية وهو التقارب الذى دعمته زيارة دوق أدنبرة — زوج الملكة — للسعودية فى الأسبوع الماضى .

وإن الشعور السائد هنا — فى جدة — هو أن بريطانيا والسعودية تتحركان معاً نحو مواجهة مشتركة لجميع المشاكل فى شبه الجزيرة العربية ، وقد عقدت اجتماعات بين البلدين هدفها تمهيد الطريق لتنسيق سياسى كامل إزاء مشاكل الاثنتين معاً كمشكلة اليمن ومستقبل الوجود البريطانى فى المحميات وعدن والخليج الفارسى » .

* منذ بضعة أيام طار إلى السعودية وفد بريطانى يرأسه « جون ستونهاوس » السكرتير البرلمانى لوزارة الطيران ، وفى حقائب الوفد عقد توريد سلاح بين بنوده عشرون طائرة مقاتلة نفاثة من طراز «ليتننج» ، وكتائب مصفحة ، ومدفعية ، ونظام مواصلات لاسلكى ، ومع ذلك — بالطبيعة أو بالضرورة — برنامج تتولى بمقتضاه بعثات بريطانية عسكرية تدريب الجيش السعودى على مهماته الجديدة .

* * *

وأمام الرأى العام العربى ، الذى أتمنى أن يكون شاهداً على الحقيقة ، وشريكاً فى الحكم بالبينة على أساسها ، فلسوف ألزم نفسى فى مناقشة الموضوع بالبعد تماماً عن أى « صنعة » فى الأسلوب.

إن دقة الموضوع وحساسيته تكفيه عن أية زخارف فى عرضه .

ولئن بدا الكلام متجهماً ، عابس التقاطيع ، فهذا منذ البداية عذرى !

* * *

ما هو معنى الذى يجرى فى السعودية هذا الأسبوع ، والذى من أجله سألت حكامها — والملك فيصل على رأسهم — عمـّا إذا كانوا يقدرون مواقع خطاهم فيه ، ويعرفون تماماً إلى أين بعده ، وهل حسبوا للنتائج والعواقب حسابها ؟

* * *

فى أى محاولة للإجابة عن هذا السؤال فلسوف تتفرع منه تساؤلات لا يستطيع أى منطق تجاوزها أو نسيانها !

بعض هذه التساؤلات قديم مضت عليه السنون ، وبعضها جديد ولد فى الشهور الأخيرة أو على الأقل برز فيها وظهر .

● فيما يتعلق بالقديم فهناك عدة تساؤلات :

١ — إن علاقات بريطانيا بالأمة العربية ، لم تكن قطّ علاقات ودية ، هذا إذا لم أقل إنها كانت دائماً عدائية ، وليس ذلك فى حاجة إلى دليل .

كانت بريطانيا هى القوة الاستعمارية الأولى فى العالم العربى ، وكانت هى الدولة الراعية لمطامع الصهيونية فى فلسطين ، وكانت هى قوة القهر المسلح ضد الإرادة العربية منذ يوم انتصارها على « عرابى » فى التل الكبير قرب قناة السويس سنة ١٨٨٢ ، إلى يوم هزيمتها أمام «عبد الناصر» فى بورسعيد على مدخل قناة السويس سنة ١٩٥٦ .

وخلال هذا العهد الطويل ، وبعده مع البقايا التى ما زالت مستمرة

منه فى بعض أنحاء العالم العربى ، فإن بريطانيا وضعت سياسة ثابتة لها هى : أن تحجب عن الأمة العربية كل أسباب القوة — خصوصاً القوة العسكرية — إلا إذا كان السماح ضمن علاقة خضوع كامل لسياستها كما كان الحال فى حلف بغداد ، وحتى فى هذه الحالة كان السماح بالقوة العسكرية لأى طرف عربى ، سماحاً جزئيًّا مقيداً بما تفرضه المصالح البريطانية من الضمانات !

فما الذى حدث الآن ؟

هل غيرت بريطانيا سياستها فجأة تجاه الأمة العربية ؟ وهل أصبحت الحريصة على قوتها خصوصاً فى مجال السلاح ؟

ليس على ذلك — حتى اليوم — دليل ، إلا أن يُبرز الملك فيصل هذه اللحظة من تحت طرف عباءته ما لم يخطر على بال ، وما لم يصل إليه خيال !

٢ — إن حكومة صاحب الجلالة السعودية ، وحكومة صاحبة الجلالة البريطانية ، بينهما خلاف حاد ، أوعلى الأقل كان كذلك فى البوريمى .

إن بريطانيا بعملية عسكرية استولت على بقعة من الأرض كانت السعودية تعتبرها جزءاً منها .

وحاولت المملكة السعودية بالمفاوضات أن تسترد ما ضاع منها بالسلاح ، وانعقدت المؤتمرات حلقات بعد حلقات ، لكن الصفعة التى أطارت العقال الذهبى وألقت به على رمال الصحراء لم يضع أثرها بالمفاوضات ولا هى تمكنت من أخذ ثأرها بالسلاح يواجه السلاح .

وإذن ما هو معنى الذى يحدث الآن ؟

هل يعقل أن تكون بريطانيا هى نفسها التى تقدم للسعودية ما تحتاج إليه من السلاح ؟

إن الأسد البريطانى العجوز بعد أن فقد أسنانه لم يعد يملك إلا أساليب الخداع ، ولا تصل به السذاجة إلى الحد الذى يجعله يتطوع بنفسه إلى أن يقدم للجمل السعودى أسناناً يعض بها !

٣ – إن الملك فيصل بنفسه ، كان بين الملوك والرؤساء العرب الذين وضعوا توقيعهم بعد مؤتمر الإسكندرية فى سبتمبر ١٩٦٤ على قرار يقول بالنص :

« إن مجلس الملوك والرؤساء العرب قرر مكافحة الاستعمار البريطانى فى شبه جزيرة العرب وتقديم المساعدات لحركة التحرير فى الجنوب المحتل وعمان » .

منذ سبتمبر ١٩٦٤ – إلى يوم بدأت مفاوضات السلاح بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا – ثلاثة شهور ، وإلى اليوم – يوم الوصول إلى اتفاق معد للتوقيع بتوريد سلاح – ستة شهور . . .

فهل يجوز أن تنقلب كل الاعتبارات رأساً على عقب فى ثلاثة شهور أو ستة ؟

هل يجوز أن تبيع بريطانيا – فى أبريل – السلاح لطرف عربى تعهد فى سبتمبر ، تعهداً لم يجف الحبر بعد على ورقه « بمكافحة الاستعمار البريطانى فى جزيرة العرب وتقديم المساعدات لحركة التحرير فى الجنوب المحتل وعمان » ؟ !

● تبقى مجموعة من التساؤلات الجديدة التى ولدتها أو أبرزتها الظروف الأخيرة فى العالم العربى .

١ – إن بريطانيا لم تكن بعيدة عن صفقة هدايا السلاح الألمانى لإسرائيل ، وإنما كانت هناك فى هذه الصفقة ملابسات تظهر عليها

بصمات الأصابع البريطانية واضحة مكشوفة .

* الدبابات الأمريكية من طراز « جنرال باتون » التى تقدمها ألمانيا الغربية لإسرائيل كانت ترسل إلى بعض البلدان ومنها بريطانيا لإعادة تسليحها بمدافع جديدة ، وجزء من هذه الدبابات التى وصلت بالفعل إلى إسرائيل شحنت إليها من ميناء « سوثهامبتن » البريطانى .

* عندما كان « هارولد ويلسون » رئيس وزراء بريطانيا يزور « بون » منذ أسابيع توصل مع « إيرهارد » مستشار ألمانيا الغربية إلى اتفاق تتعهد فيه بريطانيا بإكمال بعض بنود هدايا السلاح لإسرائيل وتقبض هى الثمن من ألمانيا الغربية على أساس إعلان « إيرهارد » بأن « بون » سوف تدفع لحساب إسرائيل نقداً ثمن ما لم يصل إليها بعد من هدايا السلاح الألمانى !

الصحف البريطانية نفسها نشرت نبأ هذا الاتفاق وبينها الصنداى تيمس التى وضعته على صفحتها الأولى فى عددها الصادر يوم ١٤ مارس الماضى .

ولقد كان ذلك الموضوع بالتحديد ضمن جدول أعمال محادثات ويلسون رئيس وزراء بريطانيا مع أشكول رئيس وزراء إسرائيل أثناء اجتماعهما بلندن فى الأسبوع الأخير .

هذه الملابسات تثير تساؤلا :

* هل يمكن أن تصدق مع العرب ، نوايا الذين يسلحون إسرائيل بهذه الحماسة وهذا الإصرار ؟ !

٢ — إن السياسة البريطانية حيال النزاع العربى — الإسرائيلى ما زالت

تجرى على أساس التصريح الثلاثى الصادر عن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا سنة ١٩٥٦ .

وهذا التصريح يقوم على نقطتين :

* أن الدول الثلاث تتدخل ضد أى محاولة لتغيير الحدود الحالية بين العرب وإسرائيل بقوة السلاح .

* أن الدول الثلاث تتعهد بإبقاء توازن فى القوة المسلحة بين طرفى النزاع ، أى بين الدول العربية كلها فى جانب ، وإسرائيل وحدها فى الجانب الآخر .

ومع أن هذا التصريح الثلاثى ضيع مدلوله بالنسبة لأصحابه فى حرب السويس ، حين اشتركت دولتان من دوله الثلاث ـ هما بريطانيا وفرنسا ـ فى عدوان على مصر تواطؤاً مع إسرائيل ؛ فإن بريطانيا بقيت ـ عداء للعرب ونفاقاً ـ تجرى فى سياستها عليه .

وفى مفاوضاتها الأخيرة مع إسرائيل حول السلاح فإن بريطانيا لم تجد ما تبرر به موقفها إلا أن تشير من طرف خفى إلى ضرورة إبقاء توازن القوى بين كل العرب وبين إسرائيل وحدها .

إن ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل ذهب إلى لندن بصيحة أن ميزان القوى المسلحة فى المنطقة قد مال لصالح الدول العربية بفعل ما حصلت عليه وتوصلت إليه الجمهورية العربية المتحدة ، كذلك قال فى مؤتمره الصحفى الذى بدأ به زيارته .

ثم انتهت الزيارة باتفاق على أسلحة توردها بريطانيا لإسرائيل لكى يعود التوازن كما كان .

ثم صدر بيان عن متحدث رسمى باسم « هارولد ويلسون » رئيس

وزراء بريطانيا نقلته وكالة رويتر يوم ٢٦ مارس الأخير يقول بالحرف :

« إن رئيس وزراء بريطانيا عبر — لرئيس وزراء إسرائيل — عن قلقه لتزايد حشد السلاح فى المنطقة .

ورئيس الوزراء البريطانى يسلم بأنه ما دام هذا الحشد قائماً فمن حق جميع الدول أن تحصل على السلاح دفاعاً عن نفسها ، وذلك لأنه من الضرورى لحفظ السلام فى المنطقة أن يبقى ويستمر توازن القوى العسكرية بين الطرفين المعنيين فى النزاع العربى — الإسرائيلى » .

كلام خطير يبدو لأول نظرة وكأن لا صلة له بالسعودية .

النظرة الثانية تكشف الصلة .

فإنه إذا كانت بريطانيا حريصة على توازن فى القوى المسلحة بين كل الدول العربية فى جانب وبين إسرائيل وحدها فى الجانب المقابل ؛ فمعنى ذلك أن صفقة السلاح التى تشارك بريطانيا مع غيرها من دول الغرب فى تقديمها لإسرائيل صفقة فادحة .

* تعوض ما حصلت عليه أو توصلت إليه الجمهورية العربية المتحدة من تفوق .

* تعوض ماتشتريه السعودية نفسها من بريطانيا — أيضاً — باعتبار أن التوازن المطلوب هو ما بين الدول العربية جميعها ، وما بين إسرائيل وحدها !!

أى أن العقد الذى وقعته السعودية مع بريطانيا — أو هى على وشك توقيعه — بخمسين مليون جنيه ، يعطى لإسرائيل فى اللحظة نفسها تصريحاً بالحصول على أسلحة غربية بمقدار خمسين مليون جنيه !!

هل نعطى بأيدينا التصريح لإسرائيل ؟ !

* * *

سامحهم الله فى الرياض مقدماً كل هؤلاء الذين سوف يقفزون من بين الحكام لكى يقولوا :

معنى كلامه ألا نتسلح . . . ألا تكون لنا قوة عسكرية ، أليس ذلك ما يصل بنا إليه فى النهاية ؟ !

أقول على الفور :

أنتم – بصرف النظر عن أى خلاف اجتماعى – بعض الوطن العربى ، فكيف ينكر أى عربى عليكم هذا الحق الطبيعى فى القوة بما فى ذلك جانبها العسكرى .

لكن كل عربى يريد أن تكون قوتكم ضمن الحشد العربى كله الذى يتجمع الآن للنضال المشترك وللعمل المشترك .

وكان أمامكم طريقان لبلوغ ذلك :

● أن تأخذوا ما تشاءون من موقف القوة ، ولديكم إزاء الغرب أسبابها ، تطلبون لأنفسكم وتمنعون عن عدو أمتكم ، عدوكم فى الوقت نفسه .

. . . .

ربما احتاج ذلك إلى جسارة لم تتوافر الأعصاب القادرة عليها بعد . . .

إذن يبقى الطريق الثانى :

● أن تحموا تقدم الذين يحصلون على السلاح ويتوصلون إليه . . . غيركم من أبناء أمتكم .

ثم لا تطلبوا سلاحاً من الذين يفرضون التوازن بين كل العرب وبين إسرائيل وحدها ، وذلك يعطيكم الحق – مزوداً بأسباب القوة لديكم – فى

أن تمنعوا عن إسرائيل. ومنطقكم حق يستقيم حين تقولون : نحن لا نريد منكم سلاحاً لكننا لا نريد أن تعطوه لإسرائيل » .

* * *

وسامحهم الله فى الرياض مرة ثانية كل هؤلاء الذين سوف يقفزون من بين الحكام لكى يقولوا :

هل رأيتم . . . لقد اعترف بلسانه أخيراً . . . هو لا يريد لنا القوة ولا يريد أن يرانا أقوياء عسكرياً ، هو مهما لف ودار يريد أن تبقى القوة العسكرية فى يد طرف عربى بينما يحرم منها طرف آخر خصوصاً مع وجود خلافات اجتماعية عربية هو نفسه ألمح إليها فى كلامه قبل قليل !

أقول على الفور :

لم يكن الخلاف الاجتماعى فى ذهنى طوال هذا الحديث .

كان فى ذهنى صراع الموت والحياة بين العرب وإسرائيل .

إن سؤال : هل نكون أو لا نكون ، لا بد أن يسبقه سؤال : كيف نكون ؟!

* * *

ومع ذلك فلو كان الخلاف الاجتماعى من بواعث حديثى اليوم لتغير موقفى من هذا الذى يجرى فى السعودية الآن ولرحبت به لعدة أسباب :

١ ــ إن اتفاق السلاح بين المملكة العربية السعودية وبين بريطانيا ، وما يحيط بهذا الاتفاق من ظروف وملابسات وما يثيره من تساؤلات سوف يفتح عيوناً كثيرة على علاقات قوى ، وعلى تشابك مصالح ، غريبة ومريبة !

٢ ـ إن كل توسع فى القوات المسلحة السعودية ـ مهما كان مصدر سلاحها ـ هو خطوة فى صالح أى تغيير اجتماعى محتمل .

بل إن أى دارس للتاريخ ـ وأنا أتكلم بكل صراحة وأمانة ـ يقول إن اتساع الجيش السعودى الآن قد يكون حركة التاريخ المتوقعة حتمياً :

● فى السعودية الآن طبقة متوسطة تنمو فى المدن وهى تشكل قوة جديدة لديها أفكار واقتناعات ترفض الكثير مما هو قائم فى بلدها .

● هذه القوى كان يصدها عن الحركة فى أعقاب التململ، ظروف المملكة والدور الذى قد تقوم به بعض القبائل الموالية للنظام الحاكم فى بلد تترامى فيه الصحراء وتكاد مراكز العمران فيه أن تكون جزراً معزولة .

وكانت خطة الملك السابق سعود ـ خلال فترات تزايد السخط الشعبى على حكمه ـ هى أنه فى حالة تمرد من المدن سوف يطلب من القبائل أن تزحف عليها ويبيح لها ما فيها من ثروات وحرمات ... وفى أكثر من مرة هدد الملك سعود بذلك فعلا ، خصوصاً قبل انهياره النهائى والكامل .

● ظهور جيش قوى فى هذه المرحلة سوف يؤدى ـ مهما خلقت الفواصل والعوازل بينه وبين الشعب خلقاً ـ إلى تدعيم القوى الجديدة الناشئة فى المدن بحماية قادرة، هذا فضلا عن أن الجيش يستطيع أن يقوم بدور السلطة المركزية فى بحر الصحراء وواحات العمران المتناثرة كالجزر فى امتدادها الشاسع !

* * *

لو كنت أتكلم من وجهة نظر الخلاف الاجتماعى لتغير موقفى ..

كنت قلت :

ـ أسرعوا . . . أسرعوا رعاكم الله . . إنكم فى مقاومتكم للتغيير لا تحققون إلا تدعيم القوى القادرة على المشاركة فيه !

لكن ذلك الآن ـ صراحة وأمانة ـ ليس موضوع الساعة .

ليس هو التحدى الذي تطرحه الأقدار على أبواب العالم العربى كله ، بكل من فيه .

* * *

إن هناك الآن معركة مصير تواجه الأمة العربية .

وفى حديثى عما يجرى فى السعودية فلقد كانت معركة المصير العربى الواحد ـ ولا شىء غيرها ـ دافعى .

ومن أجلها وحدها كانت تساؤلاتى عما يجرى الآن فى السعودية وسؤالى إلى الحاكمين فيها ـ وعلى رأسهم الملك فيصل ـ عما إذا كانوا يقدرون مواقع خطاهم ويعرفون تماماً إلى أين ، وهل حسبوا للنتائج والعواقب حسابها ؟

* * *

وليس لى بعد هذا أن أقول أكثر مما قلت !

وللرأى العام العربى قبلى وبعدى أن يشهد ويحكم بالبينة حتى وإن لم يصله من الرياض جواب !!

الفصل الثانى

عن المملكة والملك . . . ليس ضدهما !

(٢ أبريل ١٩٦٥)

كان موعد رحيله من مصر قد حان ، بعد سنتين قضاهما فى القاهرة يحاول أن يراقب الحوادث ويتابعها ، ثم يحاول أن يفهم لنفسه ولحكومته .

وعبر مكتبى فى زيارة وداع كان مفروضاً ألا تطول !

لكن الزيارة طالت ، وكلمة الوداع فيها ضاعت ، وغطى عليها حديث طويل !

* * *

وقال لى ، بعد حديث سريع ذكر فيه موعد سفره ، والمنصب الكبير الذى سوف يشغله فى عاصمة بلاده ، وآماله فى مستقبل علاقاته مع الجمهورية العربية المتحدة :

– هل أستطيع أن أسألك فى شىء قبل أن أمشى ؟

قلت : تفضل ، كلى آذان تسمعك !

قال : لم أفهم مقالاتك الأخيرة ، ضد سياسة المملكة العربية السعودية وضد ملكها فيصل .

قلت : إذا سمحت لى بتصحيح بسيط فإن ما كتبته لم يكن : ضد وإنما كان : عن .

لم يكن ضد سياسة المملكة وضد الملك ، وإنما كان عن سياسة المملكة والملك .

وفارق كبير بين الحرفين ، بين ضد وبين عن .

قال : مهما اختلفت الحروف ، ففى النهاية كان ما كتبته هجوماً عليهما معاً !

قلت : كنت أقبل وجهة نظرك لو أننى فيما كتبت عن سياسة المملكة وعن الملك استعملت أوصافاً ونعوتاً ، لكنى فى كل ما قلت لم أستعمل غير الوقائع والحوادث .

وإذا كان الانطباع النهائى الذى تركته الوقائع والحوادث على النحو الذى ذكرته أنت ، فلست أنا المسئول عن ذلك ، وإنما المسئول صنّاع الوقائع والحوادث .

إن الوقائع والحوادث التى استعملتها فى كل ما كتبت عن سياسة المملكة والملك لم تكن من صنعى .

لقد أخذتها من صميم التطورات الجارية ومن قلبها ، وربما كان دورى فيها هو محاولة الربط ، والإبراز بتركيز الضوء . . .

أكثر من ذلك لم أحاوله ، ولست بالتالى مسئولا عنه !

يصدق ذلك على سياسة الدول والملوك ، كما يصدق فى الحياة العادية بالنسبة لتصرفات الأفراد ، أعنى أنك إذا ذكرت وقائع وحوادث ثابتة ومؤكدة عن سياسة دولة أو عن ملك أو عن أى فرد عادى ، ثم كان الانطباع الذى تعطيه هذه الوقائع والحوادث فى النهاية سيئاً ، فليس ذلك فعلك ، ولا هو قصدك .

إن ما تفعله بسرد الوقائع والحوادث الثابتة والمؤكدة ، هو بمثابة وضع مرآة أمام الحقيقة ، وما يظهر على المرآة هو انعكاسها الأمين والصادق مهما كان شكله !

لقد كان ذلك ــ لا أكثر ولا أقل ــ ما حاولته فى الحديث عن سياسة المملكة العربية السعودية وعن ملكها فيصل .

قال ، بعد أن أصغى لهذا الشرح الطويل تمثيلا وتشبيهاً :

ــ ليكن ، وإنما ألا تعتبر أن ذلك يؤثر على روح مؤتمرات القمة العربية ، باعتبار أنه فى النهاية ، ومهما كانت الأمثلة والتشبيهات يشكل هجوماً على المملكة وعلى الملك ويسىء إليهما ؟

قلت : هذه أول مرة أسمع فيها أن وضع مرآة أمام أحد ، تعكس بأمانة وصدق تقاطيعه وملامحه ، يعتبر عملا مضاداً له بالهجوم وبالإساءة .

كما قلت لك ، لقد ألزمت نفسى فى كل حديث بالوقائع والحوادث ، وساسة المملكة والملك معاً ، لم يتصد منهم واحد بتكذيب لما قلت .

قال : أنت لم تفهمنى بعد ، أنا لا أناقش ما ذكرته فى أحاديثك من وقائع وحوادث ، ما أناقشه هو تأثير ذلك كله على روح مؤتمر القمة .

قلت : إن روح مؤتمر القمة ، هى أولا وأخيراً وحدة عمل .

والعمل نفسه إذن هو مقياسها وحكمها الوحيد .

وحدود العمل ــ لا شىء غيرها ــ هى موضع اللقاء ومكانه .

إن وحدة العمل ليست كما قلت مرة من قبل مؤامرة صمت نصون فيها المظهر ونضحى بالجوهر .

وهى كذلك ليست ثلاجة للتبريد العميق نضع فيها مستقبل التطور العربى كله ــ الذى هو أمل الغد وضمانه ــ ثم نتركه فيها يتجمد داخل قالب من الثلج الأبيض !

* * *

قلت له :

ـ أريد أن أشرح لك تصورى، أعبر فيه عن نفسى ، وصدقنى إذا قلت لك إننى لا أستطيع أن أقطع إلى أى حد يتفق مع سياسة الدولة فى الجمهورية العربية المتحدة وإلى أى حد يختلف معها .

لا تحمّل ما أقوله لك بأكثر مما يحتمل .

خذه منى ولا تحاول أن تستشف من ورائه موقف غيرى :

قبل الدعوة إلى مؤتمر القمة الأول كانت صورة الموقف تتمثل فى مجموعة من الخطوط الرئيسية ، ومجموعة من بقع الظل حولها .

أقصد أن أقول إنه كانت هناك فى الموقف عوامل رئيسية ، أستطيع أن أعدها ثلاثة ، واعتبارات طارئة ، أستطيع أن أعدها ثلاثة أيضاً .

● الخطوط أو العوامل الرئيسية الثلاثة فى الموقف كانت كما يلى :

١ ــ وجود صدام على الأرض العربية بين شعوبها وبين الاستعمار القديم والجديد ، أى استعمار الاحتلال ، واستعمار الاستغلال .

٢ ــ وجود صراع بين الجماهير العربية وبين قوى الإقطاع والرجعية المحلية ، أى بين طلاب الحرية الاجتماعية وبين أعدائها الذين لا يترددون فى أن يبيعوا الاستقلال السياسى لأوطانهم ضماناً لامتيازاتهم الطبقية .

٣ ــ وجود حرب بين الأمة العربية وبين العنصرية الصهيونية فى إسرائيل التى تحاول تثبيت أقدامها فى فلسطين اعتماداً على إرهاب الاستعمار واتكالا على موقف المساومة الذى لا يملك الإقطاع والرجعية المحلية ــ غيره ، بفعل تناقضهما مع الشعوب .

● بقع الظل أو الاعتبارات الطارئة الثلاثة فى الموقف كانت كما يلى :

١ ــ ازدياد الخطر على الأرض المحتلة فى فلسطين بسبب تنفيذ

مشروعات إسرائيل لسرقة مياه نهر الأردن العربية بقصد تدعيم مشروعات التوسع والاستيطان :

٢ ـ تأخر أي رد فعل عربي ، ولو جزئي ، تجاه هذا الخطر المتزايد ، رد فعل يمنع السرقة الصغيرة الجديدة على الأقل إلى حين يتمكن من استرداد السرقة الكبيرة القديمة .

٣ ـ فقدان اللغة العربية لكل جلالها في استعمالها لعرض الموقف ومضاعفاته ، ونزولها عن أسلوب الشرح والتحليل إلى أسلوب السب والشتم الأمر الذي كاد أن يطمس الوجه الشريف والنبيل للصراع السياسي والاجتماعي الذي يجري على الأرض العربية ويحوله إلى منافسة بين الأشخاص بالحساسية وبالغيرة !

* * *

إن مؤتمر القمة الأول ـ إذا صدق تصوري ـ وكل مؤتمرات قمة بعده كانت تقدر على أن تواجه بقع الظل أو الاعتبارات الطارئة .

كانت تقدر على مواجهة الخطر المتزايد .

كانت تقدر على تجميع إرادة عمل عربي ، جزئية ، تمنع سرقة المياه العربية وتصونها بمشروعات جديدة لخدمة الرخاء العربي ، وتحمي هذه المشروعات .

وكانت تقدر على أن تعيد للغة العربية جلالها وتصونها بأسلوب الشرح والتحليل في عرض أي خلاف سياسي أو اجتماعي .

أكثر من ذلك لا تستطيع .

أعني أنها لا تقدر ـ ولا يجوز لأحد أن يتصور لها القدرة ـ على تصفية الاستعمار القديم والجديد تصفية نهائية على الأرض العربية .

ولا تقدر – ولا يجوز لأحد أن يتصور لها القدرة – على تصفية الإقطاع والرجعية تصفية نهائية على الأرض العربية .

ولا تقدر – ولا يجوز لأحد أن يتصور لها القدرة – على تصفية العنصرية الصهيونية واحتلالها العسكرى لفلسطين ، اعتماداً على الاستعمار واتكالا على موقف المساومة المحكوم به على الإقطاع والرجعية العربية .

التصفية النهائية لذلك كله دور الثورة العربية الشاملة وحدها ، ولا يقدر عليه غيرها .

إن تحقيق الانتصار الكامل للحرية والاشتراكية والوحدة هو وحده الذى يصفى الاستعمار القديم والجديد ، ويصفى الإقطاع والرجعية المحلية ، ويصفى العنصرية الصهيونية واحتلالها العسكرى لفلسطين .

أى أن مؤتمرات القمة العربية تكفى لبقع الظل أو للاعتبارات الثلاثة الطارئة على الموقف العربى .

لكن هذه المؤتمرات ، مهما فعلت ، لا تكفى لمواجهة الخطوط أو العوامل الرئيسية فى الموقف العربى .

هذا بالطبع ، مع استعدادى للتسليم بأن نجاح مؤتمرات القمة فى مواجهة بقع الظل والاعتبارات الطارئة ، يستطيع أن يسهل أو يخفف من آلام التحول العميق الذى يمكن للثورة العربية الشاملة من أداء دورها فى مواجهة الخطوط أو العوامل الرئيسية فى الموقف العربى .

فيما كانت مؤتمرات القمة تقدر عليه وتكفى له فإن الأمور تسير .

لا أقول إنها تندفع وإنما أتمسك باللفظ الذى اخترته : تسير .

* المشروع الإسرائيلى لسرقة مياه الأردن نفذ الجزء الأول منه فعلا لكن خطره ليس مطلقاً .

* هناك الآن مشروع عربى لمواجهته مع أكبر قدر يمكن توفيره من ضمانات الحماية .

* جلال اللغة العربية يعود إليها ، إن لم يكن كله ، فبعضه على الأقل ، يعتمد الشرح والتحليل أسلوباً لعرض أى خلاف سياسى أو اجتماعى .

* * *

لكن هناك نقطة هامة ، لا ينبغى – وليس ينبغى – لها أن تغيب عن البال فى الأهداف الكبيرة للثورة العربية .

إذا كنا نقول بأن مؤتمرات القمة ، فى مواجهتها الناجحة لبقع الظل أو للاعتبارات الطارئة فى الموقف العربى تستطيع أن تسهل أو تخفف من آلام التحول العميق الذى يمكن للثورة العربية من أداء دورها فى مواجهة الخطوط أو العوامل الرئيسية فى الموقف العربى . . . فلا بد أن نذكر أن هذا المنطق يزكى نفسه بطريقة عكسية أمام أعداء الثورة العربية .

أى أن أعداء الثورة العربية قد يحاولون استعمال نجاح مؤتمرات القمة فى تصعيب أو تعطيل الأهداف الكبيرة للثورة العربية عن مهمتها الضخمة التى ينبغى أن تصل إلى النجاح الحاسم الأكبر .

وإذا حدث هذا فإن الثورة العربية تكون قد تركت نفسها تخطو فى الضباب وفى الظلام ! :

* إن قيام العرب بتحويل روافد الأردن ليس بديلا عن استعداد العرب لاستعادة فلسطين .

* إن تجمع إرادة عربية جزئية وراء مشروع التحويل ليس بديلا عن حشد إرادة عربية كلية لهزيمة الاستعمار القديم والجديد .

* إن إنقاذ جلال اللغة العربية ليس بديلا عن إسقاط التحالف الإقطاعى الرجعى فى العالم العربى :

إن السماح بهذه الصفقات تنازل وتفريط لا بد من تجنبهما وإلا فقد تهنا فى مرحلة من مراحل العمل عن الهدف النهائى لهذا العمل .

* * *

قلت له : إذا كنت قد أطلت فى هذا التصوير النظرى فامنحنى صبرك حتى أصل بك إلى التطبيق العملى له .

ثم قلت له :

– بكل ما قدمت حتى الآن ، فلقد خرجنا بعد مؤتمرات القمة بثلاث علامات على الطريق ، واعذرنى إذا بدا لك اليوم أننى على موعد مع رقم الثلاثة ! :

● العلامة الأولى : **نسير** مع مؤتمرات القمة إلى كل نجاح تستطيع أن تحققه فى مواجهة بقع الظل أو الاعتبارات الطارئة فى العالم العربى .

● العلامة الثانية : **نحاول** بأى نجاح يتحقق تسهيل وتخفيف آلام التحول العميق الذى يمكن للثورة العربية الشاملة من أداء دورها فى مواجهة الخطوط أو العوامل الرئيسية فى الموقف العربى .

● العلامة الثالثة : **لا نسمح** بأى حال للقوى المعادية الثورة أن تستغل هى نجاح مؤتمرات القمة فى تصعيب دور الثورة العربية أو تعطيلها !

* * *

قلت له :

– استرشاداً بهذه العلامات الثلاث ، دعنا نطل على ما جرى !

عن السعودية كلامى ، عن سياسة المملكة وعن الملك .

قبل الوقائع والحوادث ، وحكاياتها التى تطول ، سوف أقف بسرعة أمام مشهد واحد داخل السعودية نفسها .

هو مشهد الصراع على الملك وعلاقته بمؤتمرات القمة وبالتالى بكل ما حولها وما بعدها .

لم تنس – فيما أرجو – أنه حين وجهت الدعوة إلى مؤتمر القمة الأول فى شهر ديسمبر سنة **١٩٦٣** فإن الدعوة التى وصلت إلى الرياض التقت بالوضع التالى :

- سعود ، ملكاً على العرش ، ولكن بغير سلطات .
- فيصل ، رئيساً للوزراء ، ولكن معه كل السلطات .

وحتى اللحظة الأخيرة ، فلقد كان العالم العربى ، لا يعرف كيف تنوى السعودية أن ترد على الدعوة :

هل يمثلها العرش فى المؤتمر . . . أو هل تمثلها السلطة الفعلية ؟

فى نهاية الانتظار جاء الملك سعود إلى القاهرة .

نظارته السوداء على عينيه ، وعصاه فى يده يتوكأ عليها ، وابتسامته على شفتيه يقدمها لكل من يلقاه حتى للرئيس عبد الله السلال !

وكان على استعداد للحديث فى أى موضوع ، وللتحمس لكل مشروع ما دامت التضحية فى النهاية بمليونين من الجنيهات أو ثلاثة أو أربعة !

أكاد أقطع الآن بأن الملك سعود لم يكن ينظر أمامه على مائدة المؤتمر ، وإنما كان ينظر خلفه إلى سلطة العرش المسلوبة فى السعودية .

ما كاد يرجع إلى الرياض حتى جرب أن يضع كل ما حصل عليه من اشتراكه فى المؤتمر لخدمة سلطة العرش يحاول استردادها . . .

ذلك كل ما كان يعنيه .

ضاعت منه الفرصة — على أى حال — وأرغم على التراجع خطوة ليستقر داخل قصر الناصرية، وترك لفيصل — مع السلطة الفعلية — لقب نائب الملك .

* * *

وجاء موعد المؤتمر الثانى :

● الملك فى السعودية حبيس القصر .

● نائب الملك فى السعودية معه كل شىء إلا لقب الملك .

هذه المرة لم يكن هناك انتظار بالسؤال عمن يجىء من السعودية ومن يتخلف .

جاء نائب الملك . . . معه كل شىء فى السعودية إلا لقب الملك .

نزل من الطائرة وعلى ملامحه امتعاضها التقليدى ، وعلى شفتيه عبارات المجاملة المحفوظة .

كان الكرسى الذى ينتظره فى الإسكندرية عالياً : كرسى رئاسة مؤتمر القمة الثانى ، الذى يصدر عنه إلى هيئة استغلال مياه الأردن قرار البدء بتنفيذ المشروعات العربية ، ويصدر عنه إلى القيادة المشتركة أمر الاستعداد لحمايتها بالقوة العسكرية إذا اقتضى الحال .

لكن كرسياً آخر كان ملء الخيال .

وما كاد المؤتمر ينتهى حتى أسرع فيصل إلى الرياض يجرب أن يضع كل ما حصل عليه من رئاسته لمؤتمر القمة الثانى فى الحصول على الكرسى الخالى فى الرياض . . . فى يده سلطته لا ينقصها غير مقعده .

العرش بعد سلطة العرش . . .

وهكذا كان !

قد يقال لى : ما هو شأنك بذلك .

صحيح ، لا شأن لى به .

وقد يقال لى : هذه مسألة داخلية فى السعودية ؟

صحيح أيضاً — هى مسألة داخلية .

لكن الذى يعنينى فيها هو الدلالة .

يعنينى فيها أن أسأل :

— هل كان محض صدفة أن يعود سعود من المؤتمر الأول ليحاول طرد رئيس الوزراء ويسترد للعرش سلطته ؟

وهل كان محض صدفة أن يعود فيصل من المؤتمر الثانى ليطرد الملك ويجلس على العرش الذى كانت فى يده سلطته ؟

هل تلك فائدة مؤتمرات القمة العربية ولا شىء غيرها ؟

قوة من أجل صراعات السلطة والمصالح ، وألقاب الملك والعروش ؟ !

* * *

مع ذلك فلقد كان هناك كثيرون على استعداد لتخطئة الظنون لو أن الأمر فى سياسة المملكة والملك ، اختلف فى الخارج عما جرى فى الداخل ودلالته !

ضاعت هذه الفرصة — على أي حال — ...

لتنفجر داخل قصر الناصرية ...

نائب الملك .

... المؤتمر الثاني :

... نائب الملك في السعودية ...

ومن يتخلف .

جاء نائب الملك ...

عبارات العاطفة المشحونة .

القمة ...

بتمويل المشروعات العربية ، ويعتبر ... في

الاستعداد لحمايتها بالقوة العسكرية إذا اقتضى الحال .

لكن كرسياً آخر كان على البال .

وما كاد المؤتمر ينتهي حتى أسرع فيصل إلى الرياض يحاول أن يضع

كل ما حصل عليه من زيارته لمؤتمر القمة الثاني في الحصول على الكرسي

الخالي في الرياض ... في يده سلطة لا يشاركه فيها غيره

العرش بعد سلطة العرش ...

وهكذا كان !

قد يقال لي : ما هو شأنك بذلك

الفصل الثالث

مياه زمزم !

(١٦ أبريل ١٩٦٥)

ظواهر الأحوال حتى الآن تقول بأن الصورة تكررت.

القوة الجديدة — مؤتمرات القمة وآثارها انكفأت لكى تخدم الأغراض والمصالح القديمة !

كيف ؟

قلت له :

— إذا كان الحرص على روح مؤتمرات القمة العربية ، معناه تبديد احتمالات الثورة العربية إذن فلقد ضيعنا من النضال العربى قرابة عام ونصف العام رحنا فيها نطارد السراب !

ثم قلت له :

— لم نصل بعد إلى حيث يستحكم هذا الصدام بين روح مؤتمرات القمة ، وبين احتمالات الثورة العربية ، لكننا — وبصراحة — قد نكون منه قريبين .

ولو وصلنا إليه فعن نفسى أقول لك إننى لا أتردد لحظة فى الاختيار :

احتمالات الثورة العربية أولا وقبل أى شىء آخر ، باعتبارها الطريق الحقيقى إلى الهدف الأمل .

وقلت له :

إذا كانت إسرائيل هى ذروة الخطر الذى تواجهه الأمة العربية فإن هذه الذروة لم تصنع نفسها تلقائياً وإنما هى ارتكزت من ناحية على الاستعمار الذى يتحكم بمصالحه وارتباطاته وقواعده فى أجزاء كثيرة من العالم العربى ، وارتكزت من الناحية الأخرى على تخاذل الرجعية العربية وتفريطها ، ربما بغير تعمد ، ولكن فى جو موقف المساومة الذى لا تملك الرجعية العربية غيره مع الاستعمار .

معنى ذلك . . أن صراع الأمة العربية ضد إسرائيل ، ذروة الخطر ، لا يجرى فى فراغ ، وإنما هو صراع يتصل بناحيتين :

* بحركة الاستعمار العالمى وقواه الدولية العدوانية .

* بأوضاع الإقطاع والرجعية المحلية ومواقع سيطرتها المستغلة .

قلت له :

– فى هذه الظروف فإن مؤتمرات القمة العربية لم تكن ، ولا يمكن أن تكون طريقاً إلى نصر عربى كامل ضد ذروة الخطر فى إسرائيل .

كانت مجرد مواجهة ، لبعض مضاعفات هذا الخطر ، تستهدف تجميع إرادة عمل عربى جزئية لمهمة محددة بالذات كانت فى هذه الحالة صيانة مياه الأردن من أن تسرقها خطط التوسع الإسرائيلى .

ولقد يكون ذلك مطلوباً فى مرحلة .

ولكن المطلوب الدائم هو مواجهة مصدر الخطر الأصلى بصرف النظر عن أية مضاعفات ، وذلك – كما قلت لك – دور الثورة العربية الشاملة لا يقدر عليه غيرها ، ذلك أن الثورة العربية الشاملة هى التى تستطيع وحدها أن تحقق النصر على ذروة الخطر وعلى القوى الدافعة لها ، وكذلك على القوى المساعدة عمداً أو بغير عمد .

إذا أردت الفارق بين الحالين فخذه من مقارنة بين الدور العربى الذى تقوم به ليبيا مثلا والدور الذى تقوم به الجزائر.

ليبيا أقدم فى الجامعة العربية ، ومن ثم فهى أقرب إلى تطورات قضية فلسطين .

بغير ثورة فإن كل ما قدرت عليه ليبيا هو مجموعة من الخطب البليغة وفوقها نصف مليون جنيه أو مليون بأكمله مداراة وشراء للسكوت .

أكثر من ذلك لا شىء على الإطلاق ، حتى فى مسألة شائكة وحساسة كمسألة قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية استحكمت ليبيا وراء التحفظ ولم تتزحزح عنه مهما كان .

بالثورة كان موقف الجزائر شيئاً يختلف .

مع أن الجزائر حديثة عهد بالجامعة العربية ، قريبة صلة بقضية فلسطين .

لم تكن المسألة بالنسبة لها مجموعة خطب وفوقها مليون جنيه .

وإنما وقفت الجزائر . . . بكل الجزائر .

وهذا هو الفرق الذى تصنعه الثورة العربية .

أحب أن أضيف قبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى ، ملاحظة سريعة :

ليست الثورة هى مجرد تغيير الحكام ولكن الثورة هى تغيير الحياة .

* * *

قلت له :

ــ نقطة أخرى أريد أن أوضحها :

نتيجة لما شرحته لك ، واستطراداً أمامك ، فإن مواجهتنا للذروة

الخطر التى تمثلها إسرائيل تختلف عن مواجهة الحلفاء وحربهم — على سبيل المثال — ضد العنصرية النازية أيام هتلر.

إن الشعار الذى أطلقه تشرشل وهو « التحالف مع الشيطان ضد هتلر » لا يصلح لأن يحكم الثورة العربية فى حربها ضد إسرائيل.

أعنى أن المشكلة بيننا وبين إسرائيل لا تحل بتجميع حلف عربى يضم المتناقضات كلها حتى يحقق انتصاره على عدوه ثم يعود بعد ذلك إلى تصفية ما بينه على مهل ومع الوقت الطويل !

هناك فارقان أساسيان بين الحالتين :

الفارق الأول : أن الحلفاء وهتلر كلاهما كان يمثل قوة عظمى تملك أن تفرض الصراع على وجه الأرض كلها.

وليس كذلك العرب، خصوصاً بعد موازين القوة النووية وحساباتها وأحكامها.

أى أن معركة العرب سوف تتعرض لتداخلات خارجية لم توجد قط فى حصار الحلفاء لألمانيا النازية.

والفارق الثانى : أن خطوط الحرب بين الحلفاء وبين هتلر كانت خطوطاً محددة وقاطعة لم تكن تؤثر فيها صلات خافية، وعندما وجدت هذه الصلات فإن الذين سمحوا بها أسقطوا ودمغوا بما دمغ به كويسلنج عميل النازية فى النرويج.

فى حالة العالم العربى، فإن هناك عناصر عربية كثيرة تربطها أوثق الصلات وأقربها بنفس القوى التى صنعت إسرائيل وتدفع تقدمها.

نخرج من ذلك بنتيجتين :

١ — إن المعركة مع إسرائيل، ذروة الخطر الذى نواجهه، ليست

سهلة وليست عملية انقضاض مفاجئ ، وإنما هى معركة صعبة ، وهى صراع سياسى واقتصادى ضد الاستعمار العالمى وقواه الدولية .

٢ ــ وإن التحالف العربى القادر على المسئولية لا بد أن يكون تحالفاً ثورياً قطع كل صلات خلفية بين العالم العربى وبين الذين صنعوا إسرائيل ويدفعون تقدمها .

إن الثورة العربية سوف تقلب موازين القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية بين العرب وإسرائيل ، وبالتالى تمنح الأمة العربية ما تحتاج إليه من النفس الطويل والأعصاب القوية صموداً أمام كل العوامل الخارجية ، ومن ضمنها موازين القوة النووية وحساباتها وأحكامها .

أقول بعد ذلك :

ــ ليس معنى هذا أن نعطل كل شىء حتى تتحقق الثورة العربية الشاملة .

لكن معناه ألا نسمح لأى شىء بأن يعطل الثورة العربية الشاملة .

أى أن هناك مجالا لإرادة عربية جزئية تواجه بعض المضاعفات كما حدث خلال مؤتمرات القمة .

ولكن مواجهة المضاعفات ليس ينبغى لها أن تفرض قيداً أو تجميداً على حركة الثورة العربية إلى دورها الحاسم المرتقب .

* * *

قلت له :

ــ عندما يقال لى الآن إن ما أكتبه عن المملكة العربية السعودية قد يؤثر على روح مؤتمرات القمة فإننى أقول على الفور :

إن روح مؤتمر القمة بدورها لا ينبغى لها أن تؤثر على احتمالات

الثورة العربية الشاملة ، وإلا نكون قد بعنا الأصل بالفرع ، وألقينا بالهدف الأصيل أثناء مرحلة من مراحل الطريق وتركناه ومشينا إلى غير اتجاه !

أكثر من ذلك فإنه لا بد أن نسأل أنفسنا فى كل خطوة :

ـ ما الذى يفعله الآخرون بروح مؤتمرات القمة ؟

هل هى تستغل ضد إمكانيات الثورة العربية ؟

وإذا كان ذلك ، ففيم الحرص إذن ، وعلام هو ؟ !

من سوء الحظ أن ذلك يجرى أمام عيوننا ، فإذا ارتفع بالاعتراض صوت قيل له بشهيق الاستنكار :

ـ حذار . . . أنت تعرّض روح مؤتمرات القمة لتأثيرات تودى بها !

* * *

قلت له

ـ وصلنا الآن إلى حيث نستأنف ما كنا نتحدث فيه عن سياسة المملكة العربية السعودية وعن سياسة ملكها فيصل .

دعنا نستعرض كل ما جرى منذ يوم سفر فيصل من الإسكندرية عائداً إلى الرياض ، وسوف أقفز بغير توقف على ما ذكرته لك من قبل ؛ من أن فيصل عاد بكل القوة التى حصل عليها فى الإسكندرية ليدخل فى صراع حاسم على العرش مع شقيقه سعود ويأخذ منه لقب الملك بعد أن انتزع منه سلطته .

ليكن ، تلك مسألة داخلية أو هى عائلية ، وعلى أى حال فليس هناك عربى واحد يملك دمعة أسف على ذهاب سعود .

صميم المشكلة أن تصرفات المملكة والملك بعد عملية الصراع على

العرش تركت المجال واسعاً للظنون توحى بأن كل ما قاله فيصل فى الإسكندرية واتفق عليه لم يكن إلا سحابات من البخور أطلقت لتلطيف الجو أو تخديره حتى يتمكن فيصل بهدوء من إنهاء صراعه على العرش مع سعود !

* * *

قلت له :

ـ سؤال : ما الذى تغير فى سياسة المملكة العربية السعودية وملكها ، بعد ذهاب سعود ، وجلوس فيصل على العرش ؟

قلت له :

ـ ليتوجه أحد إلى الملك بسؤال :

هل أوقفت المملكة السعودية عداءها المسلح ضد الجمهورية اليمنية ؟

كلاّ !

قوافل السلاح المهرب ، وأكياس الذهب الحرام ، ما زالت تحاول أن تقوم بدور الكماشة على حدود اليمن الشمالية .

إن فيصل الذى دفع فى الإسكندرية مليونين من الجنيهات لإقامة الكيان الفلسطينى ، دفع خلال شهر توليه العرش ما لا يقل عن عشرين مليون جنيه لكى يهدم الجمهورية اليمنية .

والملك الذى دفع فى الإسكندرية ما يكفى لإنشاء كتيبتين فى الجيش الفلسطينى يعطل فى اليمن فرقتين من الجيش المصرى تواصلان مهمة الاشتراك فى حماية الثورة اليمنية ، وكانت الخطوط مع إسرائيل هى المكان الصحيح لهاتين الفرقتين الآن .

وأتساءل الآن :

ـ هل هذا معقول ؟

أتساءل وأنا أعرف أن وجهة النظر الرسمية فى القاهرة هى أن ذلك لم يعد الآن مهماً لأننا أنشأنا فرقتين جديدتين بدل فرقتين فى اليمن تحصيناً للخطوط أمام إسرائيل !

لكنى مع ذلك ما زلت أصر :

– إذا كانت روح مؤتمر القمة أصيلة ، فهل كان يجوز تعطيل فرقتين مصريتين ، فى وقت تتحرك فيه النذر باحتمالات معركة مع إسرائيل دفاعاً عن مشروعات العرب على نهر الأردن ؟ !

إن المسألة ليست ديبلوماسية ، ولكنها مبادئ .

ليست سياسة ، ولكنها حياة أو موت !

* * *

قلت له :

– سؤال ثان ، لعل أحداً يتوجه به إلى الملك :

ما هو رأى الملك فى قوات المرتزقة الأجانب الذين تحشدهم إدارة مستعمرة عدن البريطانية فى إمارة بيحان وتحركهم لعمليات التخريب ضد الحدود الشرقية لليمن .

إن كل صحف العالم – بغير استثناء – نشرت أن « الكولونيل كونديه » كان هو الذى قاد غارة قوة المرتزقة على حريب .

وقوة المرتزقة الأجانب فى الشرق على اتصال لاسلكى طول الوقت مع مقر إمام اليمن المخلوع داخل حدود السعودية ، فهل تسمع السلطات السعودية هذه الإشارات أو هى أصيبت بالصمم فلم تعد تسمع بعد إصابتها بالعمى لا ترى بعده ؟ !

* * *

قلت له :

– سؤال ثالث ، للملك أيضاً :

شاه إيران – هذا الرجل المطارَد من شعبه حتى داخل أسوار قصره – فى حديث رسمى له أجراه فى لندن ، لم يترك مساعدته لأعداء ثورة اليمن سرًّا ، وإنما قال علانية إنه يرسل لهم المال والسلاح .

السلاح على سفن كل أسبوع تجىء من عبدان إلى الدمام ، ثم ينقل بالقوافل عبر السعودية إلى نجران .

وما يقوم به شاه إيران جزء من مخطط للحلف المركزى – حلف بغداد سابقاً – ضد الثورة فى أى مكان .

فما معنى سكوت الملك ورضاه ؟

معناه واحد ، هو أن المملكة السعودية تتحول تدريجيًّا إلى أن تصبح عضواً منتسباً بالمراسلة فى حلف بغداد !

هل هناك معنى آخر لما يجرى ؟

* * *

قلت له :

– سؤال رابع :

هناك شركة أجنبية للعلاقات العامة دفع لها الملك خلال الشهور الأخيرة أكثر من مليونين من الدولارات .

مهمة هذه الشركة أن تستأجر صحفيين وكتاباً يسافرون إلى المملكة أو يكتبون عنها من بعيد مقابل ثمن .

ما يثير الذهول أن كل ما يكتب بوحى هذه الشركة وتوجيهها لا يتصل من بعيد أو قريب بمعركة العرب فى فلسطين ، وإنما هو كله ضد الجمهورية العربية المتحدة تحريضاً وتشهيراً .

أذكر ذات مرة غداء فى لندن دعانى إليه إدوارد هيث الذى كان

وزيراً للدولة فى حكومة المحافظين ، وكان بين المدعوين معى على مائدة هيث ، أحد رؤساء تحرير جريدة الديلى تلجراف .

وقلت له أمام جميع الجالسين على المائدة إننى أفهم أن تخصص الديلى تلجراف صفحاتها لحملة ضد الجمهورية العربية المتحدة بدافع الاقتناع ، وليس بدافع مشبوه آخر !

قال بغضب :

– كيف ؟ . . نحن لا نوافق على سياستكم ، وذلك موقف نصدر فيه عن رأى .

قلت له :

– إن أحد الذين يكتبون فى الديلى تلجراف ضدنا ، وهو « ماكلين » على وجه التحديد ، يعيش طول الوقت فى السعودية ، أكثر من ذلك فهو قد نظم حديثاً مع إمام اليمن المخلوع دعا إليه عدداً من الصحفيين المقيمين فى بيروت ، ثم دعاهم بعد ذلك إلى إجازة مجانية فى أوربا ، ثم سافر بعد ذلك إلى الأمم المتحدة فى نيويورك ليشهد أمام إحدى لجانها بأنه بعينه رأى قوات الجمهورية العربية المتحدة فى اليمن تستخدم الغازات فى إحدى معاركها !

سوف أفترض أن مهمته تقتضيه البقاء فى السعودية .

هل فى مهمته التى كلفتموه بها أن ينظم زيارات الصحفيين الأجانب للمملكة ؟

هل فى مهمته التى كلفتموه بها أن يدعوهم إلى إجازات مجانية ؟

هل فى مهمته أن يسافر إلى الأمم المتحدة بشهادة زور ضد الجمهورية العربية المتحدة ؟

يومها فى لندن ، قال لى الرجل : إنه سوف يحقق فى الموضوع ويكتب لى . .

لم يكتب حتى الآن .

ومع ذلك فلا يهمنى انتظار رد من الديلى تلجراف فى لندن ، وإنما يعنينى رد الملك فى السعودية !

مهما يكن فلقد كانت نظرة سريعة من الملك إلى الصحف التى تعبر عن رأيه ، وتبعث بمندوبيها إلى مقابلته ، كافية لتنبيهه إلى المنزلق الذى يندفع عليه !!

* * *

قلت له :

ـ سؤال خامس :

لماذا يصرف الملك أموالا بغير حساب فى السودان ؟

أموال تذهب إلى عناصر تضغط على اتجاه التحرر السائد فى السودان بقصد أن تتموم فيه أوضاع تنسف الجسر الذى أقامته دول أفريقيا المتحررة فى شمال القارة ، صلة ومعبراً إلى ثورة الكونجو التى تقف فى بسالة أمام حصار استعمارى طاغ تشترك فيه إسرائيل بدور مدمر وخطير !

لماذا ؟ ولحساب من ؟

* * *

قلت له :

ـ سؤال سادس :

ما هى سياسة المملكة والملك فى الجنوب العربى ؟

فى الإسكندرية اشترك الملك فى توقيع قرار بمحاربة الاستعمار

البريطانى فى الجنوب المحتل ، ومع ذلك فهناك على الطبيعة فى أرض المعركة خطط جديدة تبرز الآن لتنسيق بريطانى سعودى يشمل شبه الجزيرة العربية كلها !

إن الخطط الجديدة ملء الصحف البريطانية الكبرى كلها . .

لم يأت بها أحد من الهواء ولا اختلقها على المملكة والملك افتراء وتجنياً !

* * *

قلت له :

ـ سؤال سابع :

ما هى مرامى صفقة السلاح التى تجرى الآن بين المملكة العربية السعودية وبين الحكومة البريطانية ؟

طائرات ومدافع ، وبعثات تدريب بريطانية للجيش السعودى !

لم تصل السذاجة بأحد إلى تصور أن تكون الصفقة الجديدة عوناً للسعودية على استرداد البوريمى!

وإذن ما هى المرامى ؟

* * *

قلت له :

ـ سؤال ثامن :

لقد كان دور الولايات المتحدة الأمريكية فى هدايا السلاح الألمانى مع إسرائيل واضحاً ومعروفاً .

ولقد تولت الجمهورية العربية المتحدة إرغام ألمانيا الغربية على وقف هدايا السلاح ، وكانت المملكة السعودية وكان الملك ـ فى مقدورهما معاً ـ أن يقوما بدور مماثل تجاه الولايات المتحدة !

والولايات المتحدة الأمريكية الآن على وشك أن تقوم بدور مورد السلاح الرسمى لإسرائيل !

المملكة والملك لم يحركا ساكناً ، ولا حتى بكلمة عتاب !

أفدح وأخطر أن المملكة والملك طلبا من الولايات المتحدة سلاحاً أصبح هو الآن برقع السياسة الأمريكية فى أى صفقات تعقدها مباشرة مع إسرائيل !

* * *

قلت له :

– سؤال تاسع :

ما هو القصد من كل هذه الزيارات التى يدعى فيها إلى الرياض بعض أركان العهد الرجعى القديم الذى كان يحكم فى العراق قبل ثورة ١٩٥٨ ؟

لا شىء يخفى فى المنطقة ولا سر يدوم . . .

وإذن فإلى أين ؟ ! ومع من ؟ !

* * *

قلت له فى النهاية :

– إذا كانت هذه هى الطريقة التى تصان بها روح مؤتمرات القمة فمعنى ذلك فى رأيى شىء واحد ، هو أن روح مؤتمرات القمة تستعمل الآن من أحد الأطراف العربية ، ضد الثورة الشاملة أمل النصر النهائى الحاسم ، ثم يطلب إلى طرف عربى آخر أن يلزم الصمت وأن يحبس حتى أنفاسه كى لا تؤثر فى روح مؤتمرات القمة !

ثم قلت :

– أعود إلى ما بدأت به :

إذا كان الحرص على روح مؤتمرات القمة العربية معناه تجميد احتمالات الثورة العربية ، إذن فلنعد ضيعنا من النضال العربى قرابة عام ونصف العام رحنا فيها نطارد السراب .

وإذا كنا لم نصل بعد إلى حيث يستحكم هذا الصدام بين روح مؤتمرات القمة وبين احتمالات الثورة العربية فإننا — وبصراحة — قد نكون قريبين من هذا الحد !

إن مياه زمزم التى يشرب منها حجاج بيت الله الحرام الآن قد تستطيع أن تغسل ما سلف من خطايا .

لكن الخطايا — بالتورط كل يوم وبالمطامع والأحقاد — قد تصل إلى حيث لا تكفيها مياه النبع المقدس فى زمزم .

الفصل الرابع

ماذا حدث بين الصيف الخطر الماضى والصيف المثير القادم ؟

(٢٢ أبريل ١٩٦٦)

هل يبدو متناقضاً أن يكون الوصف الذى اخترته للصيف الماضى – وكان الهجوم الاستعمارى الرجعى فيه يمتد على جبهة القارات الثلاث – آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية – هو : الصيف الخطر ، بينما يكون الوصف الذى أختاره فى هذه الأحاديث للصيف القادم – وأتوقع فيه أن يكون الهجوم مركزاً على مصر بالتحديد متجهاً مباشرة نحوها – هو الصيف المثير ؟ !

هل كان خللا فى التقدير أو زلة قلم . . . أو كان مقصوداً هذا الذى يبدو وكأنه تناقض فى استعمال الأوصاف ؟

هل يكون الخطر – بكل ما فيه – من البعيد الذى يدور حولنا ؟

وهل يكون مثيراً – مجرد مثير – هذا الذى يقصدنا بالضربة المباشرة ؟

فى الحقيقة – فى هذه الحالة بالذات على الأقل ! – أنه ليس خللا فى التقدير ولا زلة قلم . . . بل هو قصد مقصود .

* * *

لقد كان الصيف الماضى خطراً علينا كما كان خطراً على الكل فى بلدان القارات الثلاث المتأهبة للثورة .

كنا معرضين للهجوم المفاجئ كما تعرض له غيرنا ، لكنه منذ ذلك الصيف الذى مضى وقعت وتحققت نتائج هامة :

١ — لم ينجح حلف الاستعمار والرجعية فى كل ما فاجأنا به من هجمات مباشرة أو غير مباشرة .

٢ — باستقراء الحوادث ودراسة التفاصيل فى كل ما قام به حلف الاستعمار والرجعية على الجبهة الممتدة خلال العام الذى انقضى بين الصيفين — الخطر والمثير — تكشفت المقاصد والأهداف . . . كما تكشفت الأساليب والوسائل .

٣ — بعد نجاح حلف الاستعمار والرجعية فى بعض المواقع — حدث التنبه ، وانطلقت الصيحة باليقظة تسبق أى حركة جديدة له .

من هنا ، حتى إذا فرغ حلف الاستعمار والرجعية من الكل ، وركز علينا ، وحتى إذا اتجه إلينا وحدنا فى القلب من المنطقة العربية الحية والنابضة — فإنه لم يعد يستطيع أن يكون خطيراً . . . وأكثر ما يستطيعه أن يكون مثيراً .

لقد ضاع من حلف الاستعمار والرجعية ، عنصر المفاجأة وانكشفت جبهته .

وتنبهت قوة الثورة الوطنية وتحركت إلى الهجوم المضاد !

وهنا الفارق الهام بين الصيف الخطر الذى مضى والصيف المثير الذى يوشك أن يدخل !

* * *

ولكى نتثبت من هذا التحليل فإنه لا بد من إلقاء نظرة سريعة إلى أحداث ما بين الصيفين — الخطر والمثير — لنتبين كيف كانت

الحوادث ، شكلها ووزنها فى وقتها ، ثم ما يظهر أمامنا الآن من صلاتها بعضها ببعض ومن دلالاتها ، وأخيراً فى الوقت نفسه مكانها مما حدث على الجبهة الممتدة التى شن منها حلف الاستعمار والرجعية هجومه الضارى على قوى الثورة الوطنية فى القارات الثلاث المتأهبة للتغيير السياسى والاجتماعى العميق !

* * *

منذ ذلك الصيف الخطر الذى مضى فإن الاستعمار جرب ضد مصر كل الأساليب التى وجهها إلى قوى الثورة الوطنية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، لكن الذى نجح هناك لم ينجح هنا .

ونحن فى بعض الأحيان ننسى الحوادث ، وننسى ربط حلقاتها لكى تظهر السلسلة المتصلة فى طولها الطبيعى .

لكن حلف الاستعمار والرجعية جرب مع القاهرة ما جربه فى أكرا ، جرب معها ما جربه فى إندونيسيا ، جرب معها ما جربه فى دلهى ، وجرب معها ما جربه فى عواصم عديدة ومختلفة من وسائل وأساليب العمل المباشر .

* ومثلا فإن حلف الاستعمار والرجعية كان مشغولا فى مطلع الصيف الماضى بسؤال هام :

ـ هل يمكن للجيش المصرى أن يقوم بانقلاب على الثورة المصرية ، يحطم قواعدها ويصفيها ؟

ولقد كانت إسرائيل أنشط الكل إلى دراسة احتمالات هذا السؤال ، وخرجت المخابرات الإسرائيلية بنظرية أن القوات المصرية الموجودة فى

اليمن ، بعيدة عن وطنها ، تقاتل على الطبيعة الصعبة ، هى البيئة التى يمكن فيها – بقليل من الجهد أو المال – توليد احتمال الانقلاب .

بعد إسرائيل فإن المخابرات البريطانية فى منطقة الجنوب المحتل – وهى أقرب القوى المعادية إلى مواقع الجيش المصرى فى اليمن – التقطت النظرية الإسرائيلية وحاولت دراستها .

وفى آخر الكل ، فإن الملك فيصل تحت التأثير البريطانى ، وتحت التقدير المبالغ فيه بشدة لمقدرة الإخوان المسلمين أعطى هذا الاحتمال كثيراً من الجهد وكثيراً من المال .

ثم لم يستطع كل الذين استهوتهم النظرية ومثلت لهم الأمل – يتحقق بضربة واحدة – أن يحركوا جندياً مصرياً واحداً من موقعه .

إن الجيش المصرى يختلف بدوره فى قضية الثورة الوطنية عن أى جيش آخر ، وتلك عبرة تاريخه النضالى ، بالذات فى العصر الحديث ابتداء من ثورة عرابى ، التى صفاها الاحتلال والنفوذ الأجنبى ، إلى ثورة عبدالناصر التى قامت هى بتصفية الاحتلال والنفوذ الأجنبى .

* ومثلا فإنه فى وقت من الأوقات ، فى الصيف الماضى ، وبعد وفاة الرئيس السابق مصطفى النحاس ومظاهر التكريم التى أحاطت بها جماهير الشعب – الرحلة الأخيرة لرجل مثل فى مرحلة معينة من تاريخه وتاريخ مصر مركز العناد ضد سلطة الاحتلال البريطانى وسلطة القصر – فإن إسرائيل بدأت تدرس إمكانية عودة الروح إلى أحزاب مصر السابقة على قيام الثورة ، وراحت إسرائيل تحاول أن تقنع بالفرصة الوهمية بعض مخابرات الدول الكبرى كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، ولقد عكست بعض الصحف الإسرائيلية خيبة أملها فى ذكاء مخابرات أمريكا وبريطانيا

ـ وبالذات مجلة الجويش أوبزرفر ـ وفى تردد هذه المخابرات عن الجرى وراء فرصة الوهم التى اكتشفتها اسرائيل !!

ووصل الأمر بأوهام إسرائيل إلى الحد الذى راحت فيه تلح على أن حزب الوفد انتخب له خليفة لمصطفى النحاس، وأن هذا الخليفة وصل إلى أوربا حيث تجمعت من حوله عناصر المقاومة ضد النظام المصرى ، وأن الكل التقوا فى إحدى القرى الجبلية فى ألمانيا الغربية وبدءوا يرسمون خطة العودة إلى السلطة .

فى ذلك الوقت يبدو أن مخابرات أمريكا وبريطانيا أولت القصة بعض الاهتمام، ثم ما لبثت أن اكتشفت أنها ما زالت بعد نسيج الوهم الإسرائيلى القديم؛ وأعطيت القصة الموهومة على أى حال إلى بعض وكالات الأنباء تروج لها على منطق أنه إذا لم يكن فيها طلقة تصيب فإن لها على الأقل صوتاً يسمع فى السكون !

فات إسرائيل ، فى تعلقها بأى خيط مما ينسجه العنكبوت أن المجتمع المصرى تغير من أساسه، وأن الركائز الطبقية التى كان يقوم عليها الوضع السياسى والحزبى لمصر قبل الثورة قد سقطت حطاماً وأنقاضاً . وقامت بدلا منها ركائز جديدة تتسع لقوى الشعب العاملة كلها !

* ومثلا فإنه فى وقت من الأوقات انطلقت الصيحة تحذر من الخطر الشيوعى داخل مصر ومن أن اللون الأحمر بدأ يصبغ بعض المؤسسات بلونه القانى أو على الأقل بظل باهت منه يشير إلى شكل المستقبل .

وكانت الرجعية العربية أسبق من غيرها بطبيعة الظروف إلى هذه الصيحة التى تلاشت على الفور فى الوديان الفسيحة والخصبة للتجربة المصرية .

وفى بلدان القارات الثلاث كلها، فإن مصر تبدو بلداً لا أمل للشيوعية فيه .

لم يعد المجتمع المصرى مجتمعاً تبدو قمته على السطح بينما القاعدة الواسعة منه مدفونة معرضة لنشاط ما تحت الأرض .

إن الثورة تمكنت فى مصر من أن تضرب جذور الاستغلال الطبقى، وأن تحقق من طريق وطنى سيطرة الشعب على وسائل الإنتاج، وبالتالى فإن فكرة الانقلاب لم تعد مطروحة، وإنما الثورة واستمرارها الإيجابى هما قضية اليوم .

ومن هنا فإن مصر بلد وحيد قررت فيه التنظيمات الشيوعية باختيارها أن تحل نفسها بنفسها مدركة أن هناك باباً واحداً للعمل السياسى، هو باب الثورة الوطنية، وأنها تستطيع الدوران من حوله حتى تنهك قواها، لكنها فى النهاية لا تجد غير الباب الواحد المفتوح تلقى قبله أعلامها الحمراء القديمة ويدخل منه — من يشاء من أفرادها — مجال النضال الوطنى الفسيح .

وهذه ظاهرة جديدة فى العالم الثالث كله لا بد لها أن تدرس إلى أعماقها، وأن تقدر بمعايير الفهم العلمى لقضية الثورة الوطنية وبجوهرها وظروفها الموضوعية والتاريخية .

* ومثلا فإنه فى فترة ما بين الصيفين — الخطر والمثير — جرب سلاح الضغط الاقتصادى كأسلوب من أساليب العمل المباشر .

لكن التجربة الجديدة أثبتت أن مصر تعودت سلاح الضغط الاقتصادى . . . بالنسبة لها أصبح سيفاً علاه الصدأ لا يقطع ولا يجرح !

* أخيراً لم يبق من أساليب العمل المباشر غير الاغتيال، ولقد كان

حلف الاستعمار والرجعية غارقاً فيه تدبيراً وتآمراً طوال الصيف الخطر الماضى .

وما انكشف خلال تحقيقات ومحاكمات الأجهزة السرية للإخوان المسلمين يغنينى فى هذا الحديث عن أى تفصيل أو تمثيل .

خاب أسلوب القتل ، وخاب معه الذين لم يجدوا فى العمل السياسى غير الجريمة !

* * *

هكذا فإن ما نجح فى غير مصر من بلاد القارات الثلاث المتأهبة للثورة – فشل عندها وطاشت فيه السهام ، والنصال ، والطلقات !

* * *

وفى فترة ما بين الصيفين – الخطر والمثير – فإن حلف الاستعمار والرجعية ، بعد الفشل الواضح لأسلوب العمل المباشر انتقل إلى أسلوب العمل غير المباشر .

الأسلوب النفسى فى التأثير على الجماهير المصرية وجماهير الأمة العربية كلها .

ولقد بدأ الأسلوب النفسى فى التشكيك أولا بسلامة المنهج الاجتماعى الذى سلكته التجربة المصرية وبقدرته على الوفاء بالأمل .

وكان الانطباع الذى أريد التركيز عليه ليصل إلى مرتبة الاقتناع هو أن تجربة الاشتراكية فى مصر لم تنجح ، وأن شعبها جائع ، وأن خزينتها مفلسة .

برغم التركيز فإن الانطباع بقى صوراً مهتزة :

● كيف يمكن أن تكون فاشلة هذه التجربة التى استطاع فيها متوسط

دخل الفرد السنوى فى مصر ـ طبقاً للإحصائيات الدولية ـ أن يرتفع من ٦٧ دولاراً سنة ١٩٥٠ إلى ١١٨ دولاراً سنة ١٩٦٠ إلى ١٥٥ دولاراً سنة ١٩٦٥ ؟

خصوصاً وأن هذا المتوسط فى دخل الفرد ـ يختلف بسبب إعادة توزيع الثروة عما هو الحال فى السعودية ـ مثلا ـ حيث ينطوى تحت نسبة دخل الفرد ما يحصل عليه الملك فيصل ، وما يحصل عليه أى فرد تائه فى الصحراء الواسعة أو أى عامل مقهور تحت الإرهاب فى حقول البترول فى الظهران !

أى أن هذا النجاح سار جنباً إلى جنب مع أعمق تحول اجتماعى انتقلت به السيطرة على الثروة الوطنية من حفنة الأمراء وأصحاب الملايين إلى الدائرة الأوسع لجماهير الشعب العاملة .

● كيف يمكن أن تتخذ بعض مشاكل التموين فى مصر دليلا على جوع شعبها ؟

ولقد كان سبب كل ما ظهر من المشاكل سبباً صحياً ، هو زيادة الاستهلاك ، هو أن الشعب كله ، وليس القلة منه ، دخل مجال الطلب على السلع والقدرة على شرائها .

وتبقى فى هذه النقطة ملاحظتان :

مشاكل التموين كلها لم يسمع بها فى خارج مصر إلا بعد أن طرحت داخلها لأوسع مناقشة ديمقراطية .

وأسعار مواد التموين فى مصر كلها ما زالت أرخص منها فى أى بلد عربى والإعانة التى تعطيها الدولة ـ ممثلة إرادة المجتمع ـ للسيطرة على الأسعار فى مصر تصل إلى عشرات الملايين .

• ثم كيف يمكن أن تكون خزينة مفلسة هذه الخزينة التى وجهت للاستثمار الصناعى وحده فى السنوات الأخيرة ألف مليون جنيه ؟

الخزينة التى صرفت على السد العالى .

الخزينة التى مولت أوسع مشروعات استصلاح الأراضى فى العالم النامى – المعاصر .

الخزينة التى أتمت بالفعل تنفيذ خطة أولى للتنمية تكلفت أكثر من ألف وخمسمائة مليون جنيه فيما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ ، وتتأهب الآن فيما بين ١٩٦٦ و ١٩٧٠ لتنفيذ خطة ثانية تزيد فيها الاستثمارات على ثلاثة آلاف مليون جنيه .

وليس من شك أن مصر تواجه مصاعب فى السيولة النقدية بسبب تحملها لكل ما تتكلفه برامج التنمية الزراعية والصناعية والاجتماعية ، لكن مشكلة السيولة النقدية ليست مشكلة إفلاس .

إنها مشكلة شعب تزيد أحلامه على إمكانياته الراهنة ، وتتسع قدرته الحالية لبناء مستقبله مهما كانت العقبات .

ثم هو شعب لا يملك إلا عمله .

لم يتفجر البترول فى أرضه بعد ، ولم يرض أن تتحول أرضه إلى ملهى للذين تفجر البترول فى أرضهم .

فوق ذلك كله فإن الشعوب العربية ، عندما تستطيع جميعاً أن تمسك فى يدها بمقدراتها الاجتماعية فإن الطريق المصرى بأهدافه ومصاعبه ، بآماله وبدروسه ، سوف يكون ذخيرتها الهائلة .

أقولها صراحة . . مؤمناً بأنه ليس فى الحق حياء كما أن الحق لا يحتاج إلى من يعتذر عنه .

ومن حسن الحظ أن جماهير الأمة العربية ترى وتفهم .

وأما مستغلو الأمة العربية فليس ينتظر منهم رؤية أو فهماً !

* بعد التشكيك فى سلامة المنهج الاجتماعى الذى سلكته التجربة المصرية وقدرته على الوفاء بالأمل ، فإن فترة ما بين الصيفين ـ الحطر والمثير ـ شهدت محاولة أخرى للتشكيك فى القيم الأخلاقية للتجربة المصرية .

* ومثلا فإن الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة يشغل نفسه كثيراً بما عاناه بعض المعتقلين فى قضايا الإرهاب داخل السجون المصرية .

وبمنتهى الوضوح فإنى بحكم شرف المهنة التى أنتمى إليها وبحكم قداسة القلم الذى أحمله فى يدى أقف مع الحرية الفردية إلى أبعد مدى ، وبالتالى فإنى لا أكتب حرفاً فى تبرير أية إشارة تكون قد وجهت إلى إنسان مصرى حتى وإن وقع بما فعله تحت طائلة القانون .

ومع ذلك فإننى لا أستطيع غير أن أفهم الظروف التى جرى فيها تحقيق قضايا الإرهاب .

لقد كان الغدر يتربص بشعب بأكمله . . . بل أقول بأمة عربية بأسرها .

مع ذلك فإن آخر من يحق له أن يتكلم عن حقوق الإنسان فى العالم العربى هو بورقيبة شخصياً .

رئيس دولة بنفسه ، يدبر ويشرف على تنفيذ جريمة اغتيال لزعيم المعارضة الوطنية ضده ، وهو صالح بن يوسف الذى قتل فعلا فى أحد فنادق بون .

ولقد أمسكت السلطات الألمانية بكل الأدلة التى تدين بورقيبة لكنها أبقتها فى الكتمان تستفيد منها إذا سنحت لذلك ظروف .

واستفادت منها فعلا ، فإن بورقيبة لم يتجاسر على قطع علاقته بألمانيا الغربية مع بقية الدول العربية التى اختارت هذا الإجراء رداً على هدايا السلاح الألمانى لإسرائيل !

وكيف يقطع علاقته مع الذين يملكون إثبات تهمة القتل عليه ؟!

* ومثلا فإن إذاعة الملك فيصل وصحفه فى بيروت حاولت أن تثير مسألة فرد أو فردين تنحيا أو ابتعدا عن مكانهما القيادى فى مصر .

والمدهش أنه فى مثل هذه المسألة بالذات تبدو القيمة الأخلاقية الخاصة لقيادة الثورة المصرية .

إن قيادة الثورة المصرية منذ اليوم الأول رفضت عمليات التصفية التى تظهر فى كل ثورة فى الدنيا .

كان الاتفاق منذ البداية أن من لا يرضى بمكانه يتنحى عنه ، ومن يختلف مع المجموع يكون له الحق أن يبتعد .

وفى حالة التنحى أو الابتعاد فلقد بقى لكل واحد منهم قدره النضالى وحقه التاريخى لا يستطيع أن يمسه أحد .

وذلك نموذج خلقى لم يسبق له مثيل فى أى ثورة ، منذ الثورة الفرنسية إلى كل العمليات شبه الثورية التى قامت فى العالم العربى ثم انكفأت قبل هدفها .

فى الثورة المصرية وحدها بقى الرجال رجالا . . وبقيت العلاقة ما بين الرجال بعيدة عن أهواء العصف والانتقام .

مع ذلك فإن الملك فيصل آخر من يحق له أن يثير مثل هذا الذى تثيره إذاعته وتثيره صحفه فى بيروت .

منذ عدة شهور فى الرياض اشتبه الملك فيصل فى ابن أخيه خالد

ابن مساعد بن عبد العزيز وتوجه الحرس الملكى إلى بيت الأمير خالد وحاصره وهاجمه وقتل الأمير خالد وأرداه جثة مزقها الرصاص .

وبعد أن نشرت بعض الصحف المتمردة على الذهب السعودى تفاصيل القصة صدر توجيه هامس مقتضب عن المسئولين فى الرياض يقول إن الأمير خالد كان يفكر فى التمرد على عمه وسبقته إرادة الملك وقتله الحرس الملكى وقتل بعض من كانوا فى بيته . . . ثم انتهى الأمر وأسدل الستار على المأساة ، لم تتعرض لها إذاعة الملك، ولا تعرضت لها الصحف المقيدة بسلاسل الذهب السعودى فى بيروت !

* ومثلا فإن إذاعة الملك فيصل وصحفه فى بيروت أيضاً تلقفت حادث انحراف سقط فيه بعض موظفى إحدى الإدارات فى مكتب نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية – المشير عبد الحكيم عامر .

والانحراف يحدث فى كل مجتمع ، والمهم فى أى مجتمع هو العقاب ... يردع أى انحراف .

وفى هذه الحالة فإن جميع الموظفين الذين ثبت عليهم الانحراف فصلوا من وظائفهم وقدموا لمحاكمة عسكرية ووضعت أموالهم تحت الحراسة .

كان موضوع الانحراف بضعة ألوف من الجنيهات . . . وكان العقاب رادعاً كالسيف البتار .

ماذا عن الانحراف فى السعودية ؟ . . وماذا عن الملايين وعشرات الملايين فى القصص الغريبة المذهلة التى يقوم بدور البطولة فيها العدد العديد من أمراء الأسرة المالكة السعودية أبناء الملك وإخوة الملك وأصهار الملك .

لا عقاب على الإطلاق . . . بل الصدارة والتكريم لأبطال فضائح لم يسمع بمثلها فى طول التاريخ وعرضه !

* * *

أبقى – على أى حال – داخل موضوعى لا أخرج عنه وهو : محاولات التشكيك فى إنجازات التجربة المصرية وصلابتها ، وفى قيمتها الخلقية وصلابتها أيضاً .

هذه المحاولات أيضاً ضاعت كما يضيع السراب فى الصحراء .

* * *

العمل المباشر ضد مصر من حلف الاستعمار والرجعية إذن لم ينجح .

والعمل غير المباشر لقى المصير نفسه .

ولقد كان ذلك كله فى الصيف الخطر الذى مضى .

وإذن ما الذى يبقى للصيف القادم يستحق معه الوصف الذى اخترته له : الصيف المثير ؟

ما الذى بقى للعمل – بأى شكل من الأشكال – فى يد حلف الاستعمار والرجعية ، ضد مصر ؟

ما الذى بقى ؟ !

بقى أن يضعوا قيداً عليها وعائقاً أمامها .

أن يمنعوها – هى – من استعمال سلاحها .

أن يفرضوا عليها الوقوف فى موقع الدفاع لا تتحرك منه إلى موقف الهجوم المضاد !

ابن [illegible]

ومحاصرته ومحاصرة [illegible] وقتل الأمير [illegible]

وبعد أن نشرت بعض الصحف المتمردة على الذهب السعودي [illegible]

[illegible]

وقتله الحرس الملكي وقتل بعض من كانوا في بيته [illegible]

وأطلق النار على الأمير [illegible] تعرضت لها إذاعة الملك، ولا تعرضت لها الصحف المتبقية بسلاسل الذهب السعودي في بيروت!

* * *

ومثلا فإن إذاعة الملك فيصل وصحفه في بيروت أيضا تتحدث [illegible]

القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية [illegible]

والانحراف [illegible]

[illegible]

وفي هذه الحالة فإن جميع الموظفين الذين [illegible]

[illegible]

الحرامية [illegible]

كان موضوع الانحراف بضاعة أروج من [illegible]

الخطاب رادعا كالسيف [illegible]

ماذا عن الانحراف في [illegible] وماذا عن [illegible]

اللاشعور [illegible]

العديد من أفراد الأسرة المالكة السعودية [illegible]

الملك

الفصل الخامس

شهادة الوقائع من التاريخ القريب الحى؟

ما هى الأسلحة والقوى التى تملكها القاهرة
فى صراع المصير على الأرض العربية ؟

(٦ مايو ١٩٦٦)

كيف يستطيعون أن يضعوا قيداً عليها وعائقاً أمامها ؟

كيف يستطيع أطراف حلف الاستعمار والرجعية ، إبقاء الجمهورية العربية المتحدة على موقف الدفاع لا تتحرك منه إلى موقف الهجوم المضاد ، وعلى موقع تلقى الضربات لا تنتقل منه إلى موقع ردها ؟

بالتالى :

كيف يستطيعون جميعاً أن يسلبوها نصراً هى أحق به ، بكل ما تمثله وما تناضل من أجله ؟

* * *

الرد ببساطة هو :

– بأن يمنعوها من استخدام أسلحتها وقواها ، أو على الأقل يعطلوا الاستخدام الحر والكفء لهذه الأسلحة والقوى .

وفى أى صدام سياسى أو عسكرى فإن ذلك هو الحد الفاصل بين ضمان النصر وبين ضياع النصر !

* * *

ولا بد أن نحدد وأن نجمع التفاصيل الشاردة ، حتى وإن انعطفنا من المجرى الأصلي للحديث إلى مسالك فرعية .

ما هو النصر ؟

ما هو النصر فى المعنى المجرد ، وما هو مدلول أن ينتصر طرف فى صدام — سياسى أو عسكرى — بينه وبين غيره ؟

فى الحروب وعلى مستوى الدول مثلا ، فإن النصر كان يتحقق فى الماضى عندما تتمكن دولة من احتلال عاصمة دولة أخرى تعاديها ، وكان سقوط العاصمة معناه انتهاء الحرب بالنصر لصالح الاحتلال وضد المحتل !

تغير ذلك المفهوم للنصر .

لم يعد احتلال العواصم يكفى لإخضاع طرف من الأطراف ما دام سلاحه باقياً فى يده وما دامت قواه متجمعة تتحرك وفق أوامره .

أى أن النصر لا يتحقق لطرف إلا إذا استطاع تحطيم سلاح الطرف الآخر وتدمير قواه .

بعدها لا تصبح للعواصم قيمة ، ولا تعود المسافات حاجزاً .

* * *

ذلك ينطبق كقاعدة عامة على كل صدام سياسى أو عسكرى .

ينطبق أيضاً على الصدام السياسى العنيف الواقع اليوم بين الجمهورية العربية المتحدة ، وبين حلف الاستعمار والرجعية الذى يعاديها .

* * *

والمشكلة فيما يتعلق بالجمهورية العربية المتحدة ، أن أسلحتها وقواها جزء من الطبيعة ذاتها ومن التاريخ نفسه .

بالتالى فإن التحطيم والتدمير صعب إذا لم نقل بأنه مستحيل .

يبقى طريق آخر .

طريق المنع والتعطيل ، بدلا من التحطيم والتدمير .

أن تمنع الجمهورية العربية المتحدة عن استخدام أسلحتها وقواها أو على الأقل أن يعطل استخدامها الحر والكفء لهذه الأسلحة والقوى .

وفى النهاية تستوى النتيجة .

إذا استحالت هزيمتها بتحطيم سلاحها وتدمير قواها لأنهما جزء من الطبيعة والتاريخ . . . فإنه من الممكن سلبها نصراً هى أحق به وذلك عن طريق المنع والتعطيل . . . عن طريق إلغاء أية فاعلية لسلاحها وقواها حتى بغير تحطيم أو تدمير !

* * *

والسؤال الذى يتداعى من هذه المقدمة بكل ما تشعبت إليه هو :

ما هى أسلحة الجمهورية العربية المتحدة وما هى قواها ؟

ما هى هذه الأسلحة والقوى التى استحال ويستحيل ، تحطيمها وتدميرها لأنها جزء من الطبيعة ذاتها ومن التاريخ نفسه ، والتى أريد — ويراد — منع استخدامها أو على الأقل تعطيل الاستخدام الحر والكفء لها؟

يقتضينا الأمر عرضاً سريعاً لكل أنواع الأسلحة والقوى ، لكى نتبين الحقيقة باليقين ، ثم نرتب على الحقيقة ما بعدها .

* * *

● هل يمكن — مثلا — أن تكون الحرب هى سلاح الجمهورية العربية المتحدة وقوتها ؟

الرد :

« وقائع التاريخ القريب شاهدة على الحقيقة وناطقة بها .

لم يكن الأسطول المصرى هو الذى اقتحم صخور " دوفر " البيضاء على بحر المانش فى محاولة لغزو بريطانيا ، أنشط وأخبث الأطراف فى حلف الاستعمار والرجعية الذى تواجهه الجمهورية العربية المتحدة ، وتقاوم مخططاته الرامية إلى السيطرة على الشعوب العربية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً .

بالعكس كان الأسطول البريطانى هو الذى اقتحم رمال الشاطئ المصرى عند " بور سعيد " فى محاولة لغزو مصر .

وبالتالى فإن الجيش المصرى – أداة أى حرب تخوضها مصر – لم يكن أمامه بالضرورة وبالواجب وبالحق معاً – غير دور الدفاع .

* * *

وعندما ذهب الجيش المصرى إلى اليمن فإن ذهابه إلى هناك لم يكن عملية هجومية ، وإنما كان ذهابه هناك – بالضرورة وبالواجب وبالحق معاً – دفاعاً عن شعب عربى وعن ثورة عربية قام بها هذا الشعب وتحمل مسئولياتها كاملة حتى فوجئ بهجوم عليه من وراء حدوده مع السعودية ، منسق مع هجوم آخر من الخلف قامت به ووجهته وأدارته سلطات الاحتلال البريطانى فى الجنوب المحتل .

وبرغم ذلك كله فلقد حاولت السياسة المصرية ، وحاول جيشها فى الميدان ، حصر نطاق الحرب والحيلولة دون اتساعها ودون اندلاع الحريق فى كل شبه الجزيرة العربية .

ولقد يكون مفيداً الآن أن تروى لأول مرة تفاصيل الأسباب التى حدت بالرئيس جمال عبد الناصر لكى يذهب بنفسه إلى جدة ويجتمع هناك بالملك فيصل .

. . . .

فى بداية العام الماضى كانت القيادة العربية العليا فى صنعاء تقدر الموقف كما يلى :

١ ــ إن الجبهة الجنوبية لليمن مع الجنوب المحتل ، أى مع بريطانيا قد تم تأمينها ، وتحول الاحتلال البريطانى هناك بعد اندلاع الثورة الوطنية ضده ــ فى الجنوب وفى عدن ــ إلى موقف الدفاع عن نفسه ، وذلك لا يترك له فرصة التحرش بثورة اليمن .

٢ ــ إن الجبهة الشمالية الشرقية مع السعودية ما زالت هى مكمن الخطر ، ذلك لأن المنطقة جبلية ، والجبال تبدأ من داخل الحدود السعودية ثم ترتفع داخل الأرض اليمنية ، وبالتالى فإن التسلل يبقى ممكناً دائماً ، والمتسللين من السعودية يدخلون ، يضربون ويهربون عائدين إلى الأمان فى جيزان ونجران .

وذلك هو الموقف الذى يقتضى العلاج حتى يتم تأمين الجمهورية اليمنية تماماً .

. . . .

فى الربيع من العام الماضى بدأت القيادة العربية العليا فى صنعاء تؤيدها القيادة العامة للقوات المسلحة فى القاهرة تطالب بأن يسمح لها بحرية العمل وراء الحدود السعودية باعتبار أن ذلك هو العلاج الوحيد ، وعلى أساس أنه لا يمكن الصبر على التسلل ــ الذى يضرب ويهرب ــ بأكثر من ذلك .

ذلك أن ضرب قواعد العدوان هو وحده الذى يردع .

كما أن تطهير مداخل الجبال على الناحية الأخرى هو الذى يمنع استخدامها .

وفى ذلك الوقت فإن القيادة السياسية فى القاهرة كان من رأيها الانتظار لعدة أسباب :

١ – إن هناك مساعى للسلام قد تنجح .

٢ – إن العمل وراء حدود السعودية قد يصيب مواطنين عرباً هم أول من لا ترضيه تصرفات ملوك السعودية . . بل هم أول ضحايا هؤلاء الملوك .

٣ – إنه من الصعب تصور موقف يجرى فيه تبادل إطلاق النار بين الجيش المصرى والجيش السعودى .

. . . .

ومع دخول الصيف فإن مساعى السلام لم تكن قد تقدمت كما أن عمليات التسلل لم تكن قد توقفت .

وعقدت اجتماعات عسكرية سياسية متعددة فى صنعاء وفى القاهرة .

وكانت وجهة النظر العسكرية تجد من الحجج المنطقية والعملية ما يساند طلبها بتخويلها حرية العمل داخل السعودية .

وأعطيت القيادة العسكرية فى ذلك الوقت تفويضاً بالاستعداد للعمل ، على أن يكون البدء فيه بإذن سياسى خاص .

أى أن القيادة العسكرية فى صنعاء خولت بوضع خطة للعمليات وراء حدود السعودية وفى الوقت نفسه فإن القيادة السياسية احتفظت فى يدها بالكلمة الأخيرة .

. . . .

فى شهر يوليو من العام الماضى بدا أن الحوادث تتحرك بسرعة وأن مضاعفاتها قد تصل إلى الحافة الحرجة .

وفى مقابلات للرئيس جمال عبد الناصر مع بعض المسئولين السعوديين

الذين جاءوا إلى القاهرة وقتها لبعض المؤتمرات ، فإنه وجد واجباً عليه أن يلفت النظر إلى أن الموقف يتعقد وأن احتمالاته خطيرة .

وفى الخطاب الذى ألقاه الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٣ يوليو الماضى وجد واجباً عليه أن يحذِّر حتى وإن وصل إلى حد إعلان خطته مقدماً فأشار صراحة فى خطابه إلى أن الجمهورية العربية المتحدة قد تجد نفسها فى الموقف الذى يحتم عليها ضرب قواعد العدوان .

. . . .

فى بداية شهر أغسطس كانت القيادة العليا فى صنعاء قد استعدت للعمل .

وصلت بقواتها فى اليمن إلى سبعين ألف جندى .

ووضعت خطة للعمليات .

وحددت يومها فعلا : ٧ سبتمبر .

وطلبت الإذن النهائى الذى يعطيها حرية العمل فى الموعد الذى قررته .

ولم يكن هناك مبرر معقول لحجب الإذن عنها ، فحصلت عليه ، على أن الرئيس جمال عبد الناصر احتفظ لنفسه مرة أخرى بالحق فى الأمر بإيقاف العملية قبل موعدها بثمان وأربعين ساعة .

. . . .

فى ذلك الوقت كان الرسل بين الرياض والقاهرة جيئة وذهاباً ، وكان الاقتراح المطروح للمناقشة من الجانب السعودى هو لقاء فى البحر الأحمر : بين الملك فيصل وبين الرئيس عبد الناصر .

وكلف الرئيس جمال عبد الناصر ممثله الشخصى لدى الجامعة

العربية السيد حسن صبرى الخولى بأن يطير إلى الرياض ويخطر الملك فيصل بأن الرئيس عبد الناصر ليس مقتنعاً بفكرة لقاء فى البحر الأحمر ، وأنه شخصياً لا يتحرج فى زيارة السعودية . . بل يسعده الذهاب إليها إذا كان فى ذلك أمل للسلام

. . . .

ولقد كان اقتراح الرئيس جمال عبد الناصر بالذهاب إلى السعودية صدمة لكثيرين وكانت وجهة نظر الرئيس جمال عبد الناصر كما يلى :

١ – إنه يريد أن يريح ضميره وضمير الشعب المصرى وضمير شعوب الأمة العربية كلها إلى أقصى حد قبل أن يتفجر الموقف .

٢ – إنه يريد أن يكون الشعب السعودى نفسه شاهداً عدلا على أن مصر لم تترك باباً للسلام إلا وطرقته .

٣ – إنه لا يعتبر الأمر أمر كرامة شخصية ، وإنما الأمر أكبر من ذلك بكثير .

. . . .

وسافر عبد الناصر إلى السعودية ... وكانت اتفاقية جدة ، وفى اللحظة نفسها التى تم توقيعها أرسلت من جدة إشارة إلى القاهرة بإخطار القيادة العليا فى صنعاء أن توقف عملية ٧ سبتمبر .

* * *

حتى بعد ذلك وبعد أن اتضح أن الملك فيصل ليس جاداً فى تنفيذ اتفاقية جدة ، إما بسبب أحقاده الشخصية ، وإما بسبب ارتباطاته مع قوى أجنبية أخرى ؛ فإن الجمهورية العربية المتحدة قررت أن تواجه الموقف بأسلوب يختلف .

لكل الأسباب التى جعلتها منذ البداية تتردد قبل التدخل العسكرى وراء حدود السعودية . . .

ولكل الأسباب التى حدت بالرئيس جمال عبد الناصر أن يذهب إلى جدة . . .

لكل هذه الأسباب مجتمعة وضعت ونفذت بالفعل استراتيجية جديدة ترتكز على العوامل التالية :

١ – من استقراء الحوادث فإنه لا يبدو الآن أمل فى الوصول إلى تسوية سلمية سريعة على حدود اليمن مع السعودية .

٢ – تبعاً لذلك فمن المؤكد أن قوات الجمهورية العربية المتحدة سوف تبقى لفترة طويلة فى اليمن .

٣ – إن ذلك لا يحقق هدف الدفاع عن الثورة اليمنية فقط ولكن بقاء القوات المصرية هناك يشكل الأداة الضاغطة على الاحتلال البريطانى فى الجنوب لكى يجلو ، ومن الواضح أن الوجود العسكرى المصرى فى شبه الجزيرة العربية فى المرحلة الدقيقة المقبلة هو أمر له مزاياه من وجهة نظر الحركة الثورية العربية .

٤ – ما دام ذلك هو الوضع فلا بد من ترتيب إمكانية احتماله إلى المدى البعيد .

على ألا يؤثر ذلك على فعاليته وتأثيره .

وبالتالى فإنه يمكن خفض عدد القوات المصرية فى اليمن ويمكن خفض تكاليفها .

وحتى فإنه لو بقيت فى اليمن فرقة واحدة من المشاة يساندها لواء واحد من المدرعات تعززها مظلة من الطيران فإن هذه القوة – بتكاليف

معقولة – تستطيع إحداث تأثير ضخم لا يمكن التقليل منه أو تجاهله في شبه الجزيرة العربية .

وإذن – فالأمر يقتضى إعادة التجمع ، والتخلى عن استراتيجية حماية الأرض لصالح استراتيجية القدرة على الضرب .

نترك حماية الأرض للجيش اليمنى وللقبائل اليمنية .

فإذا حدثت بعد ذلك هجمات من وراء الحدود استطاعت القوات المتجمعة أن توجه الضربة الرادعة إلى قواعد العدوان ذاتها بدل أن تشتت جهودها وراء المتسللين من ممرات الجبال .

٥ – إلى جانب كل الميزات السياسية والعسكرية التى تحققها هذه السياسة فإنها سوف تعطى الخيار كاملا للسلطات السعودية ، تتصرف كما يحلو لها ، على أن يكون الرأى العام السعودى نفسه والرأى العام العربى شاهداً ورقيباً .

تتحمل السلطات السعودية مسئولياتها كاملة ، وتحدد بنفسها رد الفعل العادل ضد حماقاتها وأحقادها والمخططات التى تربطها شريكاً مع الاستعمار » .

* * *

وإذن فإن الحرب ليست بين أسلحة الجمهورية العربية المتحدة وليست بين قواها ، بل العكس ، لم تبدأ بها قط ، وأكثر من ذلك فهى تبذل كل جهد إنسانى – وفوق الطاقة الإنسانية أحياناً – لتجنب نشوبها .

* * *

● هل يمكن – مثلا – أن يكون التآمر هو سلاح الجمهورية العربية المتحدة وقوتها ؟

الرد :

« مرة ثانية وقائع التاريخ القريب شاهدة على الحقيقة ناطقة بها .

إن القوى الثورية القومية لا حاجة بها إلى التآمر .

عملها وسط الجماهير ومعهم ، ونجاحها بهم .

ولم تكن سوريا سنة ١٩٥٧ — مثلا — هى التى تآمرت على بغداد نورى السعيد وإنما كانت الرجعية العربية — ممثلة فى نورى السعيد وقتها — هى التى أعدت بالتعاون مع تركيا عدنان مندريس وإيران محمد رضا بهلوى — خطة غزو سوريا التى أظهرت خباياها بالأدلة محاكمات بغداد بعد سقوط حلف بغداد .

كذلك — مثلا — لم تكن الجمهورية العربية المتحدة — التى جمعت مصر وسوريا — هى التى تآمرت على الاتحاد الهاشمى الذى قام بين بغداد وعمان فى رعاية بريطانيا وبركاتها .

بالعكس فإن الجمهورية العربية المتحدة ، يوم قيام هذا الاتحاد ، وبصرف النظر عن دخائله ومقاصده اعتبرته خطوة إلى الأمام من ناحية الشكل على الأقل بصرف النظر عن المضمون .

وكانت الجماهير العربية بسبب غياب المضمون الحر والوحدوى فى ذلك الاتحاد هى التى أسقطته . . وبغير تآمر .

وكان التآمر من الجانب الآخر ، من جانب الرجعية المعززة بقوى الاستعمار ضد الجمهورية العربية المتحدة .. ووقع الانفصال سنة ١٩٦١ .

مدفوعاً بسبعة ملايين جنيه استرلينى دفعها الملك سعود .

مدعماً بكل قوى الاستعمار وحلفاء الاستعمار ! »

* * *

وإذن ليس بالتآمر تسعى الجمهورية العربية المتحدة .

ليس التآمر بين أسلحتها وقواها ، بل العكس ، هى ليست فى حاجة إليه ، وهى — فى كل الأحيان مع كل القوى القومية — هدفه وليست مصدره !

* * *

● هل يمكن — مثلا — أن يكون القتل هو سلاح الجمهورية العربية المتحدة وقوتها ؟

الرد :

« مرة ثالثة وقائع التاريخ القريب شاهدة على الحقيقة ناطقة بها !

إن الجمهورية العربية المتحدة عزفت ترفعاً واحتراماً لنفسها وللنضال العربى عن سلاح القتل فى حين لم يتورع أعداؤها عن توجيهه ضدها .

كان الملك سعود هو الذى دفع لعبد الحميد السراج ، فى القصة المشهورة سنة ١٩٥٨ ، مبلغ مليونين ونصف مليون جنيه لكى يحول دون قيام الوحدة حتى وإن وضع قنبلة زمنية فى طائرة الرئيس جمال عبد الناصر لنسفها فى الجو والقضاء على من فيها .

وكان عبد الحميد السراج أغلى على نفسه — وعلى مبادئه — من أن يقبل .

وكان الملك فيصل سنة ١٩٦٥ هو الذى دفع للإخوان المسلمين مائة ألف جنيه — ثبتت فى التحقيقات — كى يوجهوا إلى صدر جمال عبد الناصر طلقة رصاص أو يفجروا قنبلة تحت سيارته أو تحت قطار يركبه .

وكان الإخوان المسلمون أرخص أمام أنفسهم ، وأرخص أمام الدين الذى يتمسحون فيه — وقبلوا الثمن لكى يقتلوا .

وفى مقابل ذلك فإن سعود وفيصل لا يستطيع أيهما — حتى أن يدعى

مجرد الادعاء – بأن جمال عبد الناصر أو أى إنسان فى مصر حاول قتل أحدهما .

إن أحداً فى مصر لم يحاول حساب ملوك السعودية .

وإنما ترك الحساب لصاحب الحساب . . ترك الحساب لله . . .
وللشعوب رمز إرادته على الأرض ! » .

* * *

وإذن فإن القتل لم يكن ولن يكون سلاحاً من أسلحة الجمهورية العربية المتحدة أو قوة من قواها .

* * *

● هل يمكن – مثلا – أن يكون التشهير والإرهاب الفكرى – سلاحاً للجمهورية العربية المتحدة وقوة من قواها ؟

الرد :

« مرة رابعة وقائع التاريخ القريب شاهدة على الحقيقة ناطقة بها .

إن الجمهورية العربية المتحدة – وهذا نموذج ذائع قريب – لم تبادر الرئيس التونسى " الحبيب بورقيبة " بإساءة .

بالعكس جاءها زائراً واحتفت به ، وكرمته قولا وعملا ، وكادت أن تجعل منه بطلا وفاتحاً .

لكن طبيعة الرجل غلبته على تكريم الآخرين .

وقد يستطيع غيره أن ينسى الماضى ولكن الرجل نفسه لا يستطيع .

وخرج منها لزيارة غيرها وبدأت تصريحاته المشئومة عن فلسطين تترى من الأردن ثم من لبنان ثم من إيران . كل هذا والقاهرة ساكتة لا تكاد تصدق ما تسمعه .

ولقد كانت القاهرة آخر العواصم العربية التى استنكرت موقف بورقيبة .

ومع ذلك كانت القاهرة أول العواصم العربية التى تعرضت لحماقاته .

تصور – جهلا بالعالم العربى ومشاعره – أن القاهرة هى التى حرضت ضده وعبأت ، ولم يستطع أن يفهم أن المحرض والمعبئ هو بورقيبة نفسه وليست القاهرة » .

* * *

وإذن فالتشهير والإرهاب الفكرى ليسا سلاحين للجمهورية العربية المتحدة ولا قوة من قواها .

* * *

● هل يمكن – مثلا – أن يكون المال أو أن تكون الدعاية سلاح الجمهورية العربية المتحدة وقواها ؟

الرد :

« مرة خامسة وقائع التاريخ القريب شاهدة على الحقيقة ناطقة بها .

إن الجمهورية العربية المتحدة تملك مالاً – مصدره عمل شعبها – يصل إلى ٣٤٧٤ مليون جنيه قابلة للزيادة مع عمل كل يوم .

لكن المشكلة أن الشعب المصرى يضع أمواله كلها فى سدود وفى مصانع وفى محطات كهرباء وفى أرض جديدة وفى جامعات وفى مدارس وفى مستشفيات وفى مساكن .

وهو فوق ذلك مرتبط بخطة تأخذ كل قرش يزيد على استهلاكه ، وتقتضيه مثلا أن يصرف فى السنوات السبع القادمة ٣١٦٦ مليون جنيه على تطوير الزراعة والصناعة والخدمات .

وبالتالى فإن الشعب المصرى ليس لديه مال يستعمله للرشوة ولشراء الضمائر واستئجار الصحف !

وأما فى السعودية فقد يكون المال أقل لكنه مال لا قيد عليه ولا عبء فوقه .

أغلبية الناس ما زالوا فى الخيام يطلب إليهم تقديس البداوة وترك الحضارة للملوك والأمراء وحدهم .

وليس هناك رقيب ولا حسيب ، بدليل أن أول بند فى الميزانية السعودية الأخيرة هو ١٧٣١٤٠٠٠٠ ريال للخزينة الملكية الخاصة أى مرتب الملك وحده هو بالسعر الرسمى ٢٠ مليون جنيه استرلينى ، هذا غير مخصصات الديوان والحرس والأمراء .

يبقى بند الدعاية .

المال أيضاً هو عصب الدعاية .

وعلى سبيل المثال فإن كل ما تصرفه محطات الإذاعة المصرية بما فيها البرنامج العام وصوت العرب وغيرها من الإذاعات يبلغ مليونين ونصف مليون من الجنيهات فى السنة .

فى مقابل ذلك فإن الملك فيصل يصرف الآن فعلا على بعض الصحف فى بيروت وحدها ميزانية لا تقل عن ثلاثة ملايين جنيه كل سنة تتبارى كلها فى مدح جلالته وفى ذم عبد الناصر .

ولقد قامت هناك دور صحفية ، لم تكن لتستطيع – بكل المقاييس العلمية لاقتصاديات الصحافة – أن تقوم إلا بأموال الملك السائلة .

وفوق ذلك فهناك شركة للعلاقات العامة يتقاسم الملك من جانب ، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية من جانب آخر ، وبعض شركات

البترول العاملة فى المنطقة العربية من جانب ثالث، تكاليفها فى حدود خمسة ملايين جنيه استرلينى أخرى !

وهذه الشركة فى ذروة نشاطها الآن تملأ صحف أمريكا وأوربا الغربية بالأخبار والمقالات والتعليقات التى اكتشفت كلها فجأة أن الملك فيصل بعباءته الهفهافة ، وعقاله الذهبى هو صورة التقدم فى العالم العربى ، وهو الأمل المرتجى للحرية وللإسلام !! »

* * *

وإذن فإن المال والدعاية ليسا بين أسلحة الجمهورية العربية المتحدة ولا بين قواها !

* * *

وإذن ما هى أسلحة الجمهورية العربية المتحدة وقواها ؟

ما هى الأسلحة والقوى التى يستحيل طبيعياً وتاريخياً تحطيمها وتدميرها ، ويراد – على الأقل – منع الجمهورية العربية المتحدة عنها أو تعطيل استخدامها الحر والكفء تحت شعار :

إذا استحالت هزيمة الجمهورية العربية المتحدة . . . فعلى الأقل يستحيل انتصارها .

ما هى هذه الأسلحة والقوى ؟ !

الفصل السادس

حكاية قرب النهاية !

من الذى خلع « بابا » الإسلام الأول ونصّب بعده « بابا » الإسلام الثانى ؟

(١٣ مايو ١٩٦٦)

« الفكرة المؤمنة بغير تعصب . . .

والتطبيق العملى المخلص لها بغير ازدواجية يتناقض فيها الفكر مع العمل . . .

وثقة الكتل الجماهيرية بها على أساس من تجارب الماضى .

وانحياز الضمير الشعبى العربى إلى جانبها ، حينما يسمعها ويسمع غيرها ثم يحس بهاتف الصدق بنفسه فى الأعماق يردد هامساً معه : هنا مكانى ، قضيتها قضيتى ، ونضالها نضالى ، وقدرها قدرى !

ثم تحدث عملية الاستقطاب العظيمة ويتحرك كل إنسان يبحث عن مكانه تحت العلم الذى ينتمى إليه . . .

وتقف كتل الجماهير والشعوب – طبيعياً وتاريخياً – فى الصف المعادى للاستعمار والمعادى لحلفاء الاستعمار والمعادى للقهر والاستغلال السياسى والاقتصادى والاجتماعى » .

ذلك هو سلاح الجمهورية العربية المتحدة وقوتها .

سلاح وقوة يستحيل – طبيعياً وتاريخياً – تحطيمهما وتدميرهما .

ليست مسألة جيش ضخم يمكن أن يهزمه جيش أضخم منه ، وليست تآمراً يسهل مهما كان محبوكاً كشف سره وإبطال عمله ، وليست قتلا بالقنابل أو بالرصاص ، فإن الثورة ليست حياة إنسان فرد مهما بلغت مكانته ، وليست تشهيراً لأن الكذب ساعة والصدق أبدى ، وليست دعاية أو مالا لأن الإيمان فى قلوب الناس أقوى من الصلب وأغلى من الذهب !

وإنما المسألة فكرة ، وعمل ، وثقة ، وضمير ، ومواقف معبرة عن الطبيعة والتاريخ .

ذلك هو سلاح الجمهورية العربية المتحدة وقوتها . . . سلاح وقوة لا يمكن أن ينالهما التحطيم والتدمير .

وإذن وهذا موضوع اليوم : هل يمكن للمنع والتعطيل أن يكونا قيداً عليها وعائقاً أمامها ؟

منعها عن سلاحها إذا استحال تدميره .

وتعطيل استخدامها لقوتها إذا عز تحطيمها ؟

الرد :

— ذلك جائز . . .

إذا أطبقت شفتيها بالصمت لا تتكلم، إذا توارت بعملها : بواعثه وأهدافه ، إذا لم تكن دائماً فى موقف الوضوح الكامل أمام كتل الجماهير ، إذا لم تحدد فى كل الأوقات مكانها قاطعاً مخافة أية تأثيرات تحدثها عملية الاستقطاب العظيمة . .

بهذا كله إذا حدث تضييع الحدود ، وتهتز الفواصل ، وتكاد المعالم الحقيقية للفكر والعمل ، للثقة وللضمير ، للمواقف المعبرة عن الطبيعة

والتاريخ – أن تغطى عليها شبهات القبول بالمساومة ومظان الرضى بالأمر الواقع والتصالح معه !

والسؤال الآن :

– هل وقعت الجمهورية العربية المتحدة فى هذا أو شىء منه ؟

والرد عليه :

– لم تقع ولكن الخطر فى بعض الأحيان كان جد قريب !

لقد كان هناك ثلاث نقط محددة اقترب فيها الخطر من الموقف الذى اتخذته الجمهورية العربية المتحدة .

الموقف الأول : حين تصورت مدفوعة بأمل صادق فى تنقية الجو العربى أن مشكلة اليمن يمكن فيها الوصول إلى تسوية سلمية مع الملك فيصل ، تترك شعب اليمن مع إرادته الثورية ، وتحول دون اتساع صدام ليس له ما يبرره على حدود السعودية – بسبب تحويلها إلى قاعدة للعدوان على الجمهورية اليمنية – وتسمح للجمهورية العربية المتحدة بأسرع وقت أن تنقل بعض جيشها العامل هناك لينضم إلى الكل حيث المواجهة المحتومة مع إسرائيل .

الموقف الثانى : حين تصورت تحت ضغط الإحساس بالمسئولية القومية أنه يمكن فى لحظة تحد كبير أن تتجمع – بواسطة مؤتمرات القمة – وحدة عمل عربية ، تضع المسئولية القومية قبل مخاوف الطبقات المتميزة والحاكمة فى بعض الدول العربية من جراء عملية التفاعل الاجتماعى التى يفور بها العالم العربى من داخله .

الموقف الثالث : حين تصورت برغبة مخلصة فى التعايش السلمى – أن الولايات المتحدة الأمريكية قد تستطيع يوماً أن تنشىء مع أى بلد صغير تعاوناً سياسيًّا واقتصاديًّا لا يخضع لسياسة القوة وللضغوط العمياء ،

خصوصاً إذا كان هذا البلد فى العالم العربى على الجانب الآخر من الأرض العربية التى تحتلها إسرائيل !

* * *

بسبب الظروف التى أحاطت بهذه النقط الثلاث ، فإن الجمهورية العربية المتحدة فى بعض الأحيان عللت النفس بالمنى وتفاءلت بأكثر مما يجب وانتظرت لعل وعسى !

فى ذلك الجو ، فإن الجمهورية العربية المتحدة همست حين كان يجب أن تتكلم ، وانتظرت حين كان يجب أن تتقدم ، وترددت حين كان يجب أن تقبل الصدام وتواجه تبعاته .

ولقد كان ذلك كله ثقيلا على أعصابها ، متعباً ومرهقاً .

كان ثقيلا أيضاً على أسلحتها وقواها ، متعباً ومرهقاً .

* * *

وبصرف النظر عن دوافع التجربة وظروفها فإن الجمهورية العربية المتحدة الآن على مرمى البصر من نتائجها . . ومهما كان من آمالها الصادقة وإحساسها بالمسئولية القومية ورغباتها المخلصة – فالأمر كله لم يكن معلقاً بإرادتها وإنما كانت هناك إرادات أخرى تصطدم بها .

ولئن اتخذت هى من جانبها – مطمئنة إلى اتجاه الطبيعة والتاريخ – ما تشاء من المواقف ، فإن غيرها من جانبه لم يكن يستطيع أن يطمئن إلى اتجاه الطبيعة والتاريخ وبالتالى فإن مواقفه محكومة .

لا يستطيع فيصل إلا أن يكون استمراراً لسعود قبله ولنورى السعيد قبل سعود تنفيذاً لمخطط واحد مستمر .

ولا تستطيع الطبقات المتميزة والحاكمة فى بعض البلدان العربية أن تنسى مصالحها مهما كانت دواعى المسئولية القومية ، ولقد كان

الملك عبد الله – على سبيل المثال – يفاوض إسرائيل ويقابل قوادها بينما جيوش عربية أخرى تخوض القتال .

ولا تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تتعاون مع أصدقاء خارج العالم الغربى . . خارج هذا العالم الغربى تريد الولايات المتحدة الأمريكية عملاء لا أصدقاء .

بل إنه فى العالم الغربى حيث تقبل الولايات المتحدة الأمريكية بمنطق الصداقة فإنها لم تستطع حتى الآن ترويض نفسها على قبول صداقات متكافئة . . . تشهد على ذلك مواقف الجنرال ديجول .

* * *

لكى يبدو كل شىء فى موضعه وفى مكانه وبحجمه الطبيعى فإننا نحتاج الآن إلى نوع من إعادة بناء الوقائع بقصد تكوين صورة متكاملة الأبعاد يثبت معها أن اليوم استمرار للأمس وأن خط التاريخ فيه لم ينقطع ولم تتخلله أية فجوات تغطى سياقه المتصل !

نعود إلى الوراء قليلا، ثم نقترب أكثر من الواقع الذى نراه الآن وندرك بعده أن القصد الحسن – مهما كانت دواعيه – كان محكوماً عليه منذ البداية .

١ – منذ بدأت الحركة القومية والاستعمار الأوربى الطامع فى العالم العربى يدير فى خياله محاولة استعمال الدِّين ضدها .

ويلفت النظر فى هذا الصدد أن كل مجموعة الأسر الدينية التى ظهرت فى العالم العربى – من ظروف مختلفة وأماكن متباعدة – جمعتها كلها فى وقت أو آخر صداقات بالقوى الاستعمارية المتعاونة أو المتصارعة مع بعضها البعض من أجل السيطرة على العالم العربى والتحكم فى موقعه وثرواته .

الأسرة الهاشمية، الأسرة السعودية، الأسرة السنوسية، الأسرة المهدية.

ويثير التأمل ـ مثلا ـ أن القيادة البريطانية للشرق الأوسط المتمركزة فى القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى كانت هى القيادة التى تضم أللنبى ولورنس.

أللنبى الذى دخل القدس غازياً يقول : الآن انتهت الحروب الصليبية.

ثم سلم مفاتيح دمشق للجنرال الفرنسى جورو الذى وقف هو الآخر أمام قبر صلاح الدين يقول : ها قد عدنا يا صلاح الدين !

ولورنس ـ ضابط مخابرات أللنبى ـ وكان القوة المحركة والموجهة للملك حسين وأبنائه وكان هو مع ونستون تشرشل صناع كل العروش الهاشمية فى العالم العربى !

وفى الوقت نفسه كانت القيادة البريطانية فى الهند خلال الحرب العالمية الأولى أيضاً هى القيادة التى اتصلت بواسطة ضابط مخابراتها كوكس ، بعبد العزيز آل سعود وموّلته وساعدته ليحصل على ملك آل الرشيد فى نجد ويتقدم منه إلى الحجاز.

وحتى مع غير المسلمين فى العالم العربى مضت محاولة استغلال الدين.

فى لبنان جرب الاستعمار الأوربى مع الطائفة المارونية فى جبل لبنان.

وفى مصر جرب الاستعمار الأوربى وفشل فى خلق مشكلة طائفية لأن وعى الأقباط والمسلمين معاً أفسد عليه المحاولة وواجهه بوحدة وطنية تماسك فيها الصليب مع الهلال ورفرفا معاً فى علم واحد رفعته الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ على رأسها.

ألا يلفت ذلك كله النظر إلى بداية مبكرة لاستغلال الدّين ضد الحركة القومية العربية ؟ !

يدرك الاستعمار الأوروبى بذكاء قوة الدين الذى كان درعًا للوطنية العربية فى الحروب الصليبية.

ويجىء مستعدا هذه المرة مستفيدًا من تجربة سابقة يبدو أنها - فى تصور الاستعمار كانت مستمرة.

بذلك تشهد كلمات اللنبى فى القدس وكلمات جورو فى دمشق!

٢ - حين بدأت الثورة العربية الحديثة، منطلقة من مصر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فإن الاستعمار الذى حاول جرها إلى عجلة الأحلاف العسكرية - الصورة المتطورة لمناطق النفوذ بعد أن تضعضعت الإمبراطوريات التقليدية فى الحرب العالمية الثانية - لم يلبث - بعد فشله - معها - أن واجهها وطلب حصارها أو حصرها على الأقل بحلف بغداد.

الأسرة الهاشمية أيضًا كانت قمة حلف بغداد.

وكانت محاولة استغلال الإسلام موجودة بوضوح فى المسرح الخلفى لذلك الحلف.

كانت تركيا، وباكستان، وإيران إلى جانب الأسرة الهاشمية فى العراق هى منطقة ذلك الحلف.

وكانت الحجة المعادة لنورى السعيد فى دعوته إلى حلف بغداد هى قوله مرارًا وتكرارًا:

- لو جئنا بتركيا وباكستان وإيران وكلها بلاد مسلمة - إلى حربنا مع إسرائيل.. ألا نستطيع أن نسحقها؟

ولم يصدقه أحد، ولا كان هو يصدق نفسه، وإنما كانت حجة لاستعمال الدين ضد الثورة الوطنية والقومية لتحويلها عن هدفها، ولتسهيل عملية استيعاب قواها ضمن مخطط استعمارى يتمسك بالسيطرة على العالم العربى، ويصر على ربطه بمناطق النفوذ.

٣ – فى تسلسل الحوادث بعد ذلك نقطة هامة تسقط فيها الأسرة الهاشمية من موضع القمة فى خطة الغرب وتحتل الأسرة السعودية مكانها .

إن انتصار السويس كان هو الضربة التى حطمت حلف بغداد حقيقة وواقعاً .

وفى فترة ما بعد السويس مباشرة – بداية سنة ١٩٥٧ – جرت فى واشنطن عملية تدشين الملك سعود لدوره الجديد الذى كان جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية يقول فيه وقتها :

« سوف ننجح إذا استطعنا أن نجعل من سعود " بابا " للإسلام ومن مكة " فاتيكان " أخرى للمسلمين ! »

وإذا كنا لا نستطيع اليوم سنة ١٩٦٦ أن نطل من الداخل فعلا على الخطة الأمريكية وراء الملك فيصل ، فإن ما جرى أيام الملك سعود – وانكشف الآن تماماً – يعطينا الفرصة كاملة ، وبكل ثقة حتى نقول : هذه هى الحقيقة بحذافيرها .

إن مذكرات أيزنهاور التى نشرت بالفعل – فى كتابه الذى أسماه « شن السلام » – تروى على لسان الرئيس الأمريكى كل الحقيقة ، وبحذافيرها .

فى نهاية صفحة ١١٥ وبداية صفحة ١١٦ يقول أيزنهاور عن زيارة الملك سعود لواشنطن سنة ١٩٥٧ ما يلى بالحرف الواحد :

« لقد كنا نأمل أن تسفر زيارة الملك سعود عن كثير من الخير ، فمنذ بداية الفترة الأولى لحكومتى كنت أبحث عن الوسائل التى تخفف من العداء المشترك والتحامل المتبادل بين العرب وإسرائيل أملا فى الوصول إلى طريقة للتعايش بينهما يمكن أن تتطور إلى تعاون حقيقى . وفى اعتقادى أن دول المنطقة إذا تعاونت مع بعضها البعض تستطيع أن تخلق حاجزاً

منيعاً ودائماً ضد أى تدخل شيوعى ، وأنها إذا ضيعت الوقت والجهد والأموال فى محاربة بعضها بعضاً فإن النتيجة الطبيعية هى تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة صيد سعيدة للضغط الشيوعى وما يترتب على ذلك من آثار مدمرة للعالم الغربى .

وهناك سبب آخر لتوجيه الدعوة . ففى ذلك الوقت ـ كما أكدت تجربة السويس ـ لم يكن الكولونيل ناصر يسعى لتدعيم مركزه بالتعاون مع الكرملين فحسب ، بل كان يحاول أيضاً انتزاع اعتراف العالم العربى كزعيم سياسى له . . . ليكون الرأس الحقيقى لاتحاد ضخم يأمل ناصر أن يحشده وراءه ليحقق مطامحه الأخرى . وحتى نوقف الحركة فى هذا الاتجاه ، أردنا أن نستكشف إمكانيات أن نجعل من الملك سعود ثقلا مقابلا لناصر . وكان الملك اختياراً منطقياًّ فى هذا الصدد فهو ـ على الأقل ـ يدعو إلى مقاومة الشيوعية ويتمتع ـ على المستوى الدينى ـ بمركز عال فى كل الدول الإسلامية .

وهكذا لم تصدر دعوتى إلى الملك عن مجرد الرغبة فى مجاملته ، بل كانت لها أهداف هامة وخطيرة استقر رأيى على متابعتها بإصرار » .

انتهى النص الحرفى لكلام أيزنهاور !

٤ ـ فى دوره الجديد ، ذلك الوقت ، كبابا للإسلام بأمر دوايت أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وجون فوستر دالاس وزير خارجيته وآلان دالاس مدير مخابراته المركزية ، فإن الملك سعود حاول أن يفتح الباب لفرض الحماية الغربية على العالم العربى ـ والإسلامى ـ وراء ما عرف أيامها باسم مشروع أيزنهاور .

وكانت رسائل الملك سعود ـ بابا الإسلام ـ هى التى تسبق السفير

المتجول « ريتشاردز » الذى بعث به أيزنهاور ليقنع البلاد العربية والإسلامية بقبول الحماية الأمريكية .

وكان الملك سعود — بابا الإسلام — وراء كل عمليات الاعتقال التى تعرضت لها العناصر الوطنية آنذاك فى الأردن وفى غيره من البلاد العربية .

وكان الملك سعود — بابا الإسلام — بقرب محاولة غزو سوريا من الخارج وهى محاولة الغزو التى رتب لها حلف بغداد خلال اجتماعاته فى أنقرة بحضور « لوى هندرسون » السفير فوق العادة للرئيس الأمريكى .

وكان الملك سعود — بابا الإسلام — هو الذى حاول ضرب الوحدة التى جمعت مصر وسوريا كرد فعل مشروع وطبيعى للخطر الاستعمارى الداهم .

وكان الملك سعود — بابا الإسلام — هو الذى بقى يتآمر على الوحدة ويدفع الأموال ويشترى الذمم حتى تحقق له بالانفصال سنة ١٩٦١ ما فوجئ به سنة ١٩٥٨ .

وكان الملك سعود — بابا الإسلام — هو الممول الحقيقى لمؤتمر اشتورة الذى أراده الانفصال الرجعى فى دمشق فرصة لمحاكمة الثورة العربية والوحدة العربية .

٥ — فى ذلك التوقيت الحرج تفجرت الثورة اليمنية تطيح بحكم كان وجوده — مجرد وجوده — إهانة للإسلام ، وكان الملك سعود — بابا الإسلام — هو الذى هرول على عجل يدفع الأموال ويحشد المرتزقة حتى من الأجانب — حثالات من محترفى القتل من الألمان والإنجليز والفرنسيين — لكى يغيروا على الحدود اليمنية ثم يصلوا بغاراتهم إلى قلب اليمن يعيدون الأوضاع فيه إلى ما كانت عليه قبل الثورة .

٦ ـ هنا حلقة هامة سيلقى المستقبل عليها من الأضواء الثابتة المركزة أكثر مما يبرق عليها الآن وينطفئ بسرعة :

من الذى عزل الملك سعود – بابا الإسلام – وجاء بدلا منه على العرش السعودى بالملك فيصل داعية الحلف الإسلامى الجديد ؟

* إن الحركة الثورية القومية تتصور فى بعض الأحيان أنها هى التى أسقطت الملك سعود .

وليس ذلك صحيحاً . . . لقد نجحت هى فى هز قوائم عرشه وزلزلته ، لكنها لم تسقطه ، ولا كان فى استطاعتها أن تحقق سقوطه الكامل إلا بتغيير شامل فى السعودية .

* والأسرة السعودية توهم نفسها – أو غيرها – فى بعض الأحيان أنها هى التى خلعته ، وليس ذلك صحيحاً تماماً .

لقد كانت هى التى تصدرت لإجراءات الخلع ، ولكن قرار الخلع صدر من سلطة أخرى أقوى وأعلى .

ولقد استفادت هذه السلطة الأخرى الأقوى والأعلى من الضربات التى وجهتها الحركة الثورية القومية لعرش سعود واتخذت قرارها وتركت للأسرة السعودية مهمة الإجراءات .

ولكن لماذا ؟

لماذا تتخلى الولايات المتحدة الأمريكية ، السلطة الأقوى والأعلى فى السعودية ، عن بابا الإسلام الذى اختارته ونصبته لدوره الخطير ؟

السبب : هو أنه لم يعد صالحاً لمهمته .

إن الملك سعود فقد أعصابه فى فترة ملكه الأخيرة .

ومن ناحية أخرى فإن موقف الضباط الأحرار فى الجيش السعودى وكشفهم للمؤامرة السعودية المعززة بأسلحة المعونة الأمريكية ضد ثورة

اليمن — جعل الأوضاع فى السعودية نفسها — فى فاتيكان المسلمين على حد تعبير دالاس — تتدهور بسرعة .

أعصاب الملك ضاعت منه .

والسعودية كلها تلمع فيها نفس النذر التى لمعت من قبل فى العراق .

واتخذت السياسة الأمريكية قرارها .

نفس مأساة كل من يبيع نفسه لمخططات قوة أجنبية .

نفس المأساة التى وقعت « لنجو ديم » فى « سايجون » ، لكن « نجو ديم » فقد حياته ولم يفقد « الملك سعود » غير عرشه وعوض عنه على أى حال خير تعويض بمرتب سنوى يذهب إليه فى المنفى : عشرون مليوناً من الجنيهات الاسترلينية كل سنة . . . نفس مرتب الملك فيصل !!

وكما أصبح الماريشال « كاى » حاكماً فى « سايجون » بعد مصرع « ديم » — أصبح الأمير فيصل ملكاً فى السعودية بعد سقوط « بابا الإسلام » .

٧ — ولم يحدث هذا التغيير الملكى لأن المخطط المرسوم ضد الثورة العربية القومية — وثورة اليمن مجرد موقع من مواقعها — قد تغير .

إن التغيير الملكى حدث لأن المخطط المرسوم لم يتغير ، وإذا كانت الظروف لم تبق فى سعود قدرة على الاستمرار فى تنفيذه فمن الضرورى مواصلة الاستمرار بفيصل . .

ولقد كانت هناك ظروف مساعدة انتهزها المخطط المرسوم للخلاص من الملك الذى انتهت قدرته إلى الملك الذى يرجى أن يكون أكثر قدرة .

ظروف يتم فيها خلع بابا الإسلام الأول بهدوء وبأقل ضجة ممكنة . .

ويتم فيها تنصيب البابا الثانى بهدوء وبأقل ضجة ممكنة حتى يستطيع أن يستقر على عرشه ويمكن لنفسه ومن ثم يبدأ حركته .

كانت هذه الظروف هى ملابسات مؤتمرات القمة العربية .

ومن عجب أن الملك سعود جاء إلى القاهرة لحضور مؤتمر القمة الأول فى يناير ١٩٦٤ وهو يدرك أنه فشل وأنه لم يعد يملك غير الاستسلام لكى يبقى على عرشه .

ولربما كان ذلك أكثر ما عجل بذهابه .

لقد بدا فى وقت من الأوقات وكأنه على استعداد لأن يشترى العرش ولو على حساب مخطط بابوية الإسلام .

لكن ذلك قرار لم يكن يملكه . . . كان فى يد الأقوى والأعلى . يريدون مخططهم على حساب الإسلام وحتى على حساب العروش البابوية إذا ارتعش الصولجان فى يد أصحابها والجالسين عليها !

٨ – بعد نقاهة التغيير بشهور بدأ الملك فيصل يتحرك للحلف الإسلامى لا أقول بطريقة أذكى ، ولكن أقول بطريقة أخبث ، تحاول هذه المرة أن تستفيد من التجربة السابقة .

* هذه المرة لا تظهر بريطانيا على المسرح كما حدث فى حلف بغداد .

* هذه المرة تقبع الولايات المتحدة الأمريكية فى المؤخرة لا تبرز إلى المقدمة .

* هذه المرة لا يجىء السفير المتجول « ريتشاردز » ليطوف بالشرقين الأوسط والأدنى داعياً لمشروع أيزنهاور . . . وإنما يقوم الملك فيصل بمهمة السفير المتجول بدلا من « ريتشاردز » .

بدلا من داعية أمريكى بقبعة وبذلة . . .

داعية عربى بعقال ذهبى وعباءة هفهافة . . . أقرب إلى صورة « بابا الإسلام » على الطريقة الأمريكية !

٩ – برغم كل الجهود التى بذلتها الجمهورية العربية المتحدة لتسوية مشكلة اليمن سلمياً مع الملك فيصل ، كان هناك خطأ فى الحساب .

فيصل لا يريد ، وإذا أراد فإنه لا يستطيع !

هو شريك فى تنفيذ مخطط يؤمن به عن خشية حقيقية لاحتمالات الثورة العربية .

ثم هو من ناحية أخرى يعرف للسلطات الأعلى والأقوى فى السعودية قدرتها وبأسها !

١٠ – فى نفس اليوم الذى تحدد فيه موعد زيارة الملك فيصل لواشنطن لمدة أسبوع من ٢١ يونيو إلى أول يوليو خرجت الأنباء من واشنطون تهدد بوقف اتفاقيات القمح مع الجمهورية العربية المتحدة !

لماذا ؟ . . .

الأسباب فى البيان الذى نقلته وكالة « الأسوشياتدبرس » كما يلى :

* الجمهورية العربية المتحدة هددت بضرب قواعد العدوان فى السعودية إذا حاولت العودة إلى العمل ضد الثورة اليمنية وضد حدود الجمهورية اليمنية !

* الجمهورية العربية المتحدة هددت بشن حرب وقائية على إسرائيل إذا تأكدت أنها على وشك الحصول على قنبلة ذرية !

* الجمهورية العربية المتحدة أدانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ضد الصين !!

كأنما المطلوب من الجمهورية العربية المتحدة أن ترى قواعد العدوان فى السعودية تتحرك ضد الثورة اليمنية وتسكت !

وترى إسرائيل تصنع قنبلة ذرية وتسكت !

وفوق ذلك : كيف تتجرأ على إبداء رأى فى الصين يختلف عن الرأى الأمريكى ؟!

ولقد صدر نفى رسمى من واشنطن لهذا الذى أذاعته «الأسوشياتد برس».

ومع ذلك فإنى أشعر أن الذى سارعت واشنطن إلى نفيه رسمياً قد يكون أقرب إلى الحقيقة من النفى ذاته وأن النفى ربما يكون صادراً من أهداف أخرى :

* ربما كان البيان الذى نقلته «الأسوشياتدبرس» قد خرج قبل موعده بخطأ فى الحساب أو تسرب فى غير أوانه بثرثرة أفلتت من أى حساب ؟ !

* ربما كان هذا البيان قد كشف أسباباً لا يراد كشفها ، وأخطر من ذلك ربط بين هذه الأسباب حيث يصبح الربط كتلة ديناميت متفجرة .

ربط الحرص على فيصل بالحرص على إسرائيل فى اللحظة ذاتها !

* * *

وعلى الطائر الميمون سفرة الملك فيصل السعودى إلى واشنطن .

سبقه إلى هناك الملك فيصل الهاشمى والأمير عبد الإله أيام حلف بغداد .

وسبقه إلى هناك الملك سعود أيام بابوية الإسلام الأولى سنة ١٩٥٧ .

وهو اليوم فى الطريق إلى واشنطن .

ليكن !

كله مقدور عليه على شرط أن تبقى الجمهورية العربية المتحدة

بأسلحتها وقواها ، بفكرتها المؤمنة ، بالتطبيق العملى لها ، بثقة الكتل الجماهيرية فيها ، بتعبيرها عن الضمير الشعبى العربى . . .

تتكلم ولا تهمس ، تتقدم ولا تتردد ، تقبل مسئولياتها وتواجه تبعاتها !

وإلا كانت هى التى تتخلى عن أسلحتها وقواها !

الفصل السابع

الليلة . . . والبارحة !

(٢٠ مايو ١٩٦٦)

فى بعض الأحيان ، فى القصص وروايات السينما ، يحلو للكتّاب والمخرجين ـ خصوصاً إذا أحسوا أن عملهم الذى يقدمونه للجمهور ينقل عن الحياة مباشرة نقلا فوتوغرافيـًّا ـ أن يقدموا له بعبارة لعوب يقولون فيها :

« إن أى تشابه بين الأبطال هنا وبين أشخاص أحياء هو مجرد مصادفة » !

ولا أستطيع أن أقدم لهذا الحديث بمثل هذه العبارة .

وبالعكس فإنه برغم ترددى دائماً إزاء العبارات المصكوكة التى بليت معادنها ومعالمها من كثرة تداولها فإننى اليوم مضطر إلى استعمال بعضها فى التقديم لهذا الحديث .

أقول مثلا : إن التاريخ يعيد نفسه .

وأقول مثلا : ما أشبه الليلة بالبارحة !

* * *

يكاد ما يحدث الآن فى العالم العربى أن يكون تكراراً لما وقع سنة ١٩٥٧ ، ونقلا فوتوغرافيـًّا عنه .

الصورة العامة هى نفسها : الخطط والأفكار ، التيارات والقوى ، الأشخاص والملامح . . . حتى النظرات والكلمات .

والفارق الوحيد بين صورة سنة ١٩٥٧ وصورة سنة ١٩٦٦ ـ بعد تسع سنوات ـ هو نظارة سوداء كان الملك سعود يغطى بها عينيه بينما الملك فيصل الذى يحتل مكانه الآن يقف بعيون مكشوفة !

* * *

لا نضيع وقتاً فى المقدمات .

نضع أمامنا الصورتين : صورة سنة ١٩٥٧ وصورة سنة ١٩٦٦ ، ونتأمل ونقارن . . . أو نطابق !

* * *

كان التكوين العام للصورة سنة ١٩٥٧ كما يلى :

مصر خارجة من العدوان الثلاثى ، ما زالت ترفع الأنقاض وتمسح الجراح .

لكن الذين يريدون السيطرة على أقدار العالم العربى لا يريدون أن يتركوا لها الفرصة بل يعتقدون ـ بانطباع النظرة الأولى السطحية ـ أن هذه هى فرصتهم يتحركون فيها بسرعة بينما هى مشغولة مع آثار ما بعد المعركة !

ويخطط جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية بسرعة فى أوائل سنة ١٩٥٧ ـ للمشروع الذى اشتهر وقتها باسم : مشروع أيزنهاور !

حماية أمريكية على كل منطقة الشرق الأوسط تحت نظرية ملء الفراغ وضد خطر الشيوعية !

كان دالاس يتصور أن الولايات المتحدة صاحبة حق مقدس ـ ! ـ أن تحل محل الإمبراطوريات الغربية المتداعية فى آسيا وفى الشرق الأوسط مدخل إفريقيا التى كانت غارقة فى الظلام الاستعمارى المطبق !

إن أحلاف دالاس الشهيرة بدأت كلها على أنقاض الإمبراطوريات الغربية المنهارة .

* سقطت الإمبراطورية الفرنسية فى الشرق الأقصى تماماً بعد معركة ديان بيان فو فى فيتنام سنة ١٩٥٤ . . . وخرج دالاس على الفور بخطة حلف شرق آسيا . . . ولم ينجح هذا الحلف فيما قصد إليه من الحفاظ على نفوذ الغرب ومصالحه ووجوده ، والنتيجة أن اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى التدخل بمفردها عسكرياً فى فيتنام !

* وتضعضعت الإمبراطورية البريطانية فى الشرق الأوسط بعد اضطرار بريطانيا إلى توقيع اتفاقية الجلاء مع مصر سنة ١٩٥٤ ، وخرج دالاس على الفور بخطة حلف بغداد تاركاً مكان الصدارة فيه لبريطانيا تحت تصور أنها مازالت فى غير مصر من بلاد المنطقة تملك المصالح والقواعد والأصدقاء . . والنفوذ تبعاً لذلك .

وتحطم حلف بغداد ضمن ما تحطم فى معركة السويس ، والنتيجة أن اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى التدخل بمفردها فى الشرق الأوسط .

تدخلت بمشروع أيزنهاور . . حماية عسكرية على المنطقة كلها .

* * *

كانت هذه هى خطة الهدف : خطة « الاستراتيجية » حسب التعبير السياسى والعسكرى .

وأما خطة الأسلوب أى « التاكتيك » فقد كان التقدم إليها مرسوماً على النحو التالى :

* تثبيت مصر من ناحية ، أى شل حركتها ، وبالتالى تأثيرها فى المنطقة .

ثم . . .

* تحريك مركز آخر معارض لمصر وإمداده بالقوة اللازمة لكى يزحف بسرعة ويحتل أكبر مساحة من الأرض قبل أن تنتبه مصر وتتخلص مما يعوق حركتها .

* * *

تثبيت مصر — ونحن الآن لا نستنتج وإنما نقرأ من كتاب التاريخ المفتوح والمباح — كان مرتباً — سنة ١٩٥٧ — على النحو التالى :

١ — مصر مشغولة بآثار المعركة .

٢ — إسرائيل لم تخرج بعد من سيناء ومن غزة وقد يستأنف القتال فى أى وقت .

٣ — الولايات المتحدة الأمريكية اتخذت فى ساعات العدوان موقفاً سياسيًّا لا ينبغى نسيانه بصرف النظر عما كان قبله ، وعما كان بعده ، وعما كان وراءه !

٤ — الوقت غير صالح على الإطلاق لانقسام داخل العالم العربى ، وحتى إذا اختير من ساسته من يقوم بدور المركز المعارض لمصر ولكل ما تمثله فمن المؤكد أن مصر سوف تفكر عشر مرات قبل أن تبدأ برد الفعل .

٥ — الموقف الاقتصادى فى مصر حرج ، بعض المرافق تعرضت للغارات ، وأرصدتها فى الخارج فى أمريكا وبريطانيا وفرنسا تعرضت للتجميد ، كما أن توقف حركة الشحن منها وإليها خلال ظروف المعركة أحدث خلخلات ملموسة ومرئية .

* * *

تحريك مركز آخر معارض لمصر – ونحن الآن لا نستنتج وإنما نقرأ أيضاً من كتاب التاريخ المفتوح والمباح – كان مرتباً على النحو التالى :

١ – الملك سعود هو الاختيار الطبيعى للمركز المعارض لمصر فى العالم العربى ، بديل لدور الأسرة الهاشمية التى انكشف أمرها فى حلف بغداد ، وخصوصاً أن الملك سعود بدأ بعد تأميم قناة السويس يلمح احتمالات الحركة الثورية العربية سياسيًّا واجتماعيًّا .

٢ – السعودية لديها مال سائل كثير قد تستطيع بواسطته أن تملأ بالذهب أفواهاً كثيرة .

٣ – الأماكن المقدسة فى الإسلام – مكة والمدينة – هناك فى السعودية ، وإذا كانت الأسرة الهاشمية قد عجزت عن استغلال نسبها للنبى بما يكفى لحماية الخطة ، فإن لقب « حامى الحرمين » قد يضفى على سعود مهابة وحصانة تدفع الشك وترد الهجوم .

٤ – إن عدداً من الملوك أو الأسر المالكة فى المنطقة يخشون من التيارات الشعبية فى بلادهم ، وهم لا ينتظرون إلا قيادة مشجعة تبدأ فإذا هم وراءها فى حلف للملوك كذلك الذى صنعه المستشار النمسوى « ميترنيخ » فى مواجهة الثورة الفرنسية .

ومع الفارق الحضارى الفادح بين قصور « آل هابسبورج » فى « فينا » وبين قصور « آل سعود » فى « الرياض » فلقد يكون ممكناً للملك سعود أن يجمع من حوله ملوك المنطقة وأنصاف الملوك فيها لوقفة حازمة أمام خطر ثورة للشعوب العربية .

* * *

. . . هكذا طرح مشروع أيزنهاور على المنطقة ، وطار إلى الشرق

الأوسط ممثل خاص للرئيس أيزنهاور يقدم المشروع بيد ، ويناول باليد الأخرى مساعدات أمريكية !

. . . وارتفعت فى المنطقة أصوات متعددة تنادى بالخطر الشيوعى الزاحف كما لو كان الاتحاد السوفييتى مثلا هو الذى قاد العدوان الثلاثى ضد السويس فى محاولة لضرب الأمة العربية كلها وإخضاعها للاستعمار ولإسرائيل !

. . . وفى الوقت نفسه طار الملك سعود إلى واشنطن ليجتمع بأيزنهاور ويسمع منه ويقول له فى حفلة عشاء رسمية :

« إننى ممنون لفخامة الرئيس أن شرح لى مشروعه الجليل لحماية العالم العربى والإسلامى من خطر الشيوعية » .

. . . وكتب أيزنهاور فى مذكراته التى استشهدت بها فى الحديث الماضى يقول صفحة ١١٥ : « لقد أردنا أن نستكشف إمكانيات أن نجعل من الملك سعود ثقلا مقابلا لناصر ، وكان الملك اختياراً منطقيًّا فى هذا الصدد فهو – على الأقل – يدعو إلى مقاومة الشيوعية ويتمتع – على المستوى الدينى – بمركز عال فى كل الدول الإسلامية ، وهكذا لم تصدر دعوتى إلى الملك عن مجرد الرغبة فى مجاملته بل كانت لها أهداف هامة وخطيرة استقر رأيى على متابعتها بإصرار » !

. . . وفى ذات الأسبوع الذى كان الملك سعود يزور فيه أيزنهاور فى واشنطن كتبت مجلة « تايم » تشرح سياسة دالاس فى متابعة تنفيذ أهداف العدوان على مصر بطريقة سلمية تقول :

« إن جون فوستر دالاس يجد أن بريطانيا وفرنسا أخطأتا خطأ فادحاً فى استعمال القوة ضد ناصر . إن ناصر نجح فى خططه الثورية بأن

جعل من المنطقة العربية كلها قنبلة متفجرة يقوم هو نفسه داخلها بدور جهاز التفجير . والتفكير فى استعمال القوة على هذا النحو معناه أن يتفجر الشرق الأوسط كله ، ورأى دالاس على العكس من هذا هو : دعونا نتقدم ببطء وبحرص ونمد يدنا بكل احتراس لكى ننزع اواب جهاز التفجير ؛ وإذا تم ذلك فإن الشرق الأوسط قد يبقى على شكل القنبلة بغير فعل القنبلة ! » .

كان ذلك سنة ١٩٥٧ . . .

وسنة ١٩٦٦ يبدو وكأنه لم يتغير شيء غير النظارة السوداء على وجه الملك سعود ، والعيون المكشوفة للملك فيصل !

ما زال الهدف هو ضمان المصالح وفرض السيطرة وإبقاء الأمة العربية داخل مناطق النفوذ التى خرجت منها بعض الشعوب العربية ، بينما بعضها الآخر يحاول أن يتخلص — أو يتملص — من القبضة الغريبة الممسكة برقبته !

وخطة الأسلوب بعد خطة الهدف ما زالت كما كانت :

* تثبيت مصر من ناحية ، اعتماداً على رغبتها فى تسوية مشكلة اليمن ، وعلى دعوتها إلى سياسة مؤتمرات القمة ، وعلى استغراقها فى أعباء التنمية الشاملة ، وعلى اهتمامها — طالما كان ذلك ممكناً — باستمرار التعاون الاقتصادى مع الولايات المتحدة الأمريكية .

ومن ناحية أخرى . . .

* تحريك مركز آخر معارض لمصر ، من السعودية أيضاً ، مع استبدال الملك سعود الذى سقط من الصورة السابقة ، بالملك فيصل الذى لم يظهر فيها ، لأن كراهية شقيقه له أبعدته عن السلطة وقتها .

ومال السعودية ما زال قادراً على أن يملأ بالذهب أفواهاً كثيرة ، والملوك وأنصاف الملوك ما زالوا فى انتظار « ميترنيخ » جديد ، وعباءة حامى الحرمين وعقاله الذهبى ما زالا معلقين فى الانتظار ، بل إن التركيز كله عليهما ، لأن الحلف المقترح الجديد لا يحمل اسم أيزنهاور وإنما هو « الحلف الإسلامى » .

* * *

التاريخ يعيد نفسه والليلة شديدة الشبه بالبارحة .

صورة سنة ١٩٥٧ تكاد أن تكون نقلا فوتوغرافيًّا لصورة سنة ١٩٦٦ هذه التى نعيش فيها الآن مع الأيام والساعات والثوانى .

حتى فى أدق التفاصيل .

* * *

ولقد قضيت يوماً بأكمله هذا الأسبوع مع المجلدات القديمة لبعض الصحف الغربية والأجنبية الصادرة فى مثل هذه الأيام من سنة ١٩٥٧ .

يشعر القارئ وكأن تسع سنوات قد سقطت فجأة من حساب الزمان وأن اليوم يعيش فى الأمس . . . أو هو الأمس يعيش فى اليوم ! . . .

* * *

الجو سنة ١٩٥٧ يعبأ بحملة واسعة من العلاقات العامة .

عشرات الصحفيين والكتاب يجندون أو يتطوعون لوضع اللحن التمهيدى الذى يهيئ الناس لرفع الستار ولوضعهم فى المزاج المتفق مع ما سوف يشهدونه على المسرح.

الملك سعود فجأة يتحول من رجل تائه فى ملذات الحريم إلى سياسى داهية يمسك الآن فى يده بمقدرات الشرق العربى .

ويجىء رجل مثل « أنتونى ناتنج » الذى كان وزيراً مع إيدن فى وزارة المحافظين واستقال وقت العدوان احتجاجاً على الأسلوب وليس على الهدف . . .

« ناتنج » يتحول من سياسى إلى صحفى ، ويزور الشرق العربى ، ويكتب وتنشر له كبريات الصحف البريطانية سلسلة مقالات عنوانها :

« سعود يبرز لتأليف نقابة قوية للملوك العرب » !

ويشرح « ناتنج » كيف أنه بسبب تأييد أيزنهاور ، وتحريض نورى السعيد والأمير عبد الإله وشاه إيران ، فإن الملك سعود قد خرج لخطة ضخمة هى تكوين نقابة من الملوك ضد الثوريين العرب .

وترد فى مقالات « ناتنج » عبارات تلفت النظر .

قوله — مثلا — إن كميل شمعون ذكر له فى بيروت : « أن الملك سعود يغير مكانه وهو متنبه تماماً إلى خطر عبد الناصر » .

وقوله — مثلا — إن نورى السعيد ذكر له فى بغداد : « أن الملك سعود سوف يخرج علناً لحرب عبد الناصر ، ولكنه يريد أن يؤمن نفسه أولا ضد هجمات الصحافة والإذاعة فى مصر » .

وقوله — مثلا — إن شاه إيران ذكر له فى طهران : « أن الملك سعود سوف يتحرك فى الوقت المناسب وسوف نؤيده جميعاً » .

ثم ينقل « ناتنج » عن الملك سعود نفسه فى النهاية قوله : « إن الخطر الشيوعى هو الخطر الأساسى فى العالم العربى ، ولن أسمح حتى للذين يعادون إسرائيل من العرب بأن يتقربوا من روسيا أو يتعاونوا معها لأن الشيوعية أخطر من إسرائيل » .

ويضيف « ناتنج » :

« إن عبد الناصر الآن يواجه خصماً يختلف عن هؤلاء الساسة الذين تعود أن يصطدم معهم ويحطمهم خلافهم معه . . . هو الآن أمام خصم من نوع لا يقاوم . . . هو الآن أمام الدين الإسلامي ذاته متجسداً فى الملك سعود !! »

العين تقرأ ذلك فى الماضى فى المجموعات القديمة لصحف ١٩٥٧ .

والأذن تسمع أصداءه تتجدد فى الحاضر . . . الآن فيما يجرى فعلا سنة ١٩٦٦ .

* * *

ماذا أيضاً فى المجموعات القديمة لصحف ١٩٥٧ ؟

الملك سعود يتحرك والقاهرة قابعة فى الانتظار تترقب .

الملك سعود يعود من واشنطن ويتوقف فى الرباط ويتحدث عن مشروع أيزنهاور ، ويقف نيكسون نائب أيزنهاور بعدها بخمسة أيام يقول :

« إن لدينا من الأنباء ما يسمح لنا بأن نؤكد أن المغرب قد قبلت مشروع أيزنهاور » .

. . . .

يوم ٢٠ فبراير ١٩٥٧ يصل الملك سعود إلى تونس وحديث طويل مع الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة .

. . . .

فى مارس يعلن الملك سعود أنه سيزور السودان ، ويصدر بيان عن مجلس الوزراء السودانى يقول : « إن مجلس الوزراء قرر استمرار دراسة مشروع أيزنهاور دون قرار بالرفض أو القبول » .

. . . .

الملك سعود وشاه إيران يجتمعان يوم ١٧ مارس ١٩٥٧

. . . .

الملك حسين فى الرياض فجأة يوم٢٨ أبريل ١٩٥٧ .

. . . .

الملك سعود فى بغداد يوم ١١ مايو ١٩٥٧ .

. . . .

الملك سعود فى عمان يوم ٢٨ يونية ١٩٥٧ ، وبرقية تصل إليهما من كميل شمعون نصها : « إننى أشعر بالسعادة فى هذا اليوم الخالد لاجتماعكما فليباركـما الله ويسدد خطاكما لتحقيق أهداف العرب » .

. . . .

الملك سعود فى بيروت لاجتماع مع كميل شمعون يوم ١١ أكتوبر بينما الملك حسين يجتمع بالملك فيصل العراقى على الحدود .

. . . .

شاه إيران على موعد مع كميل شمعون فى بيروت .

* * *

ماذا أيضاً ؟ !

حتى بيع السلاح للسعودية !

فى ٣١ يناير ١٩٥٧ أعلن فى واشنطن أن الولايات المتحدة الأمريكية قد عقدت صفقة لبيع نفاثات من طراز ٨٦ ف للمملكة العربية السعودية ، هذا غير أسلحة أخرى تصل بقيمة الصفقة إلى ٢٥٠ مليون دولار !

حتى فى الاعتقالات التى أصابتها الحمى مرة واحدة .

خلال الشهور ما بين فبراير إلى مايو من سنة ١٩٥٧ ، كانت الاعتقالات حملات بعد حملات ، فى عدد من البلدان العربية الواقعة بين شقى الرحى : الغوايات والضغوط !

حتى فى الصرف والملايين المتدفقة من الخزانة بغير حساب .

ولقد أشار عدد من الدراسات التى نشرت بالفعل عن نشاط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن هذه الوكالة صرفت ما يزيد على مائة مليون دولار خلال النشاط السرى والعلنى الذى جرى فى المنطقة لكى يمهد الطريق لقبول مشروع أيزنهاور .

هذا غير المبالغ التى قدمها السفير ريتشاردز رسمياً للحكومات التى اتصل بها وشرح لها المشروع .

وذلك كله غير ما صرفه الملك سعود بسخاء ليس له نظير فى كل العواصم التى زارها فى خطة سنة ١٩٥٧ !

حتى فى الوقوف على عرفات .

فإن الملك سعود انتهز فرصة موسم الحج ووقف يوم ٨ يوليوسنة ١٩٥٧ يدعو إلى « توحيد الكلمة وجمع الشمل على الأهداف التى يدعو إليها الإسلام » ثم يستطرد الملك داعياً إلى مؤتمر إسلامى عظيم « قررنا الكفاح من أجله نبشر به من خلفنا من إخواننا فى العقيدة ونحض الناس عليه ويبلغه الحاضر منا إلى من غاب عنا » !

* * *

ثم ماذا ؟

كانت سوريا – أيضاً – بحكم موقعها فى العالم العربى وبحكم أوضاعها الداخلية هدفاً خاصاً لمخططات مشروع أيزنهاور .

ويدعو إلى العجب أنه فى مثل هذه الأيام من سنة ١٩٥٧ ،

بالتحديد فى يوم ١٠ مايو من تلك السنة أرسلت الحكومة السورية إلى مجلس الأمن تبلغه بوجود حشود أردنية وإسرائيلية على حدودها .

ثم فتح الملك سعود خط أنابيب يتدفق بالمال على دمشق .

وجاء الأسطول السادس الأمريكى يتظاهر فى البحر الأبيض قرب سوريا .

ووجهت حكومة الأردن إنذاراً نهائياً إلى سوريا . وسافر رئيس الديوان الملكى بهجت التلهونى وقتها إلى الرياض يقابل الملك سعود ليتحدث إليه بشأن سوريا .

ثم اجتمع فى استانبول الملك فيصل العراقى والملك حسين وعدنان مندريس ، وانضم إلى الاجتماع لوى هندرسون السفير فوق العادة لأيزنهاور ، وفى هذه الاجتماعات التى جرت فى إستانبول كان الحديث ملحاً وجدياً عن إمكانيات عمل عسكرى ضد سوريا — وذلك على أى حال ما أثبتته الوثائق فى بغداد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وأكدت صحته !

وكانت الصيحة من إستانبول وقتها هى : « إن اللون الشيوعى الأحمر يوشك أن يصبغ دمشق ! »

لا جديد تحت الشمس ... تحت شمس العالم العربى على الأقل !

* * *

وأمس كان الملك سعود يتعشى فى الفندق الذى يقيم فيه بمدينة نيس على الريفيرا الفرنسية .

وكان النسيان نفسه رفيقه على العشاء ، كما هو رفيقه فى كل خطاه منذ سنتين .

لم تعد هناك زيارات ولا اجتماعات لتكوين النقابة القوية للملوك ،

ولا مشروعات ينادى بها من ساحة البيت الأبيض فى واشنطن ، أو ساحة الحجر الأسود فى مكة ، ولا صفقات أسلحة أمريكية لمواجهة التحديات الشيوعية ، ولا مقالات بكل اللغات فى عشرات العواصم تلقبه بحامى الحرمين .

تبدد كله سراباً فى الصحراء .

لأنه فى سنة ١٩٥٧ — كما فى سنة ١٩٦٦ ، وإلى آخر الزمان — لا يصح إلا الصحيح !

الفصل الثامن

أسئلة للملك

(٢٧ مايو ١٩٦٦)

بغير مقدمات على الإطلاق ، فإن هذا الحديث يطرح أسئلة ولا يجيب عنها !

والأسئلة كلها موجهة إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل ، ملك المملكة العربية السعودية وصاحب عرش الرياض .

وإذا قيل إن الملوك لهم سلطان أن يسألوا الناس وليس للناس سلطان أن يسألوا الملوك ، فعذرى — واعتذارى — اليوم أن الظرف خطير وأن ما هو معلق به أهم بكثير من آداب التقدم والتأخر فى حضرة أصحاب الجلالة !

السؤال الأول :

● هل يعرف الملك أن هناك صفقة أسلحة أمريكية لإسرائيل ، وهل لديه فكرة عن ظروف هذه الصفقة وحجمها وخطرها ؟

إن هناك صفقة أسلحة ، ذلك أمر لم تعد القاهرة وحدها هى التى تقول به كما كان الحال فى الأسبوع الماضى ، فإن حكومة الولايات المتحدة وحكومة إسرائيل سلمتا بنبأ الصفقة ، وأذاعتا رسمياً بعقدها .

. . . .

وأما ظروف الصفقة فإنها مرت بعدة مراحل .

* فى البداية تمت العملية عن طريق ألمانيا الغربية ، لأن الولايات المتحدة الأمريكية لعدة أسباب — بينها مصالحها فى المنطقة العربية — لم تكن ترغب صراحة فى القيام بدور مورد السلاح الرسمى لإسرائيل .

هكذا طلبت إلى ألمانيا الغربية — أكاد أقول أمرت — وذلك هو الانطباع الذى يحس به كل من قرأ شهادة المستشار الألمانى السابق « كونراد أديناور » الذى مثل « بون » فى هذه الصفقة والذى قال بالحرف :

« فى الحقيقة أننى لم أكن أتفاوض مع "بن جوريون" فى نيويورك ، وفى الحقيقة أنه لم تكن هناك مفاوضات بالمعنى المفهوم . . . ما حدث هو أن الولايات المتحدة قررت وطلبت إلى ألمانيا الغربية أن تنفذ ! »

و بمقتضى هذه الصفقة حصلت إسرائيل من ألمانيا الغربية على أسلحة قيمتها ١٤٠ مليون دولار — على دفعتين ، أسلحة بستين مليون دولار فى الدفعة الأولى وأسلحة بثمانين مليون دولار فى الدفعة الثانية .

وكانت الأسلحة فى الدفعتين تحتوى على مئات المدافع مختلفة الأغراض والعيارات ، وعلى مئات المصفحات الناقلة للجنود ، وعلى ما يقرب من مائتى طائرة ما بين طائرات قتال واستكشاف ونقل ، وعلى مائتى دبابة من الطراز الأمريكى « باتون » .

وتنبهت الجمهورية العربية المتحدة وقادت حملة من الضغط العربى العنيف على ألمانيا الغربية اضطرتها إلى التوقف ، وكانت قد سلمت لإسرائيل الجزء الأكبر من مواد الصفقتين ، لم يبق إلا الدبابات : تسلمت إسرائيل منها بالفعل أربعاً وخمسين ، ثم امتنعت ألمانيا الغربية عن الاستمرار فى تقديم باقى المائتين ، وإن كانت قد دفعت ما يقابل ثمنه نقداً تبرئة لالتزامها

قبل إسرائيل ، أو هذا هو التعبير القانونى الذى استخدمته حكومة بون وقتها كحل وسط بين الضغطين العربى والإسرائيلى !

* فى مرحلة تالية من العام الماضى بعد اتصالات فى واشنطن على أعلى المستويات تقدمت إسرائيل بطلب إلى الولايات المتحدة الأمريكية تريد بقية صفقة الدبابات من طراز « باتون » .

كان لديها الوعد بمائتين ، ولم تسلمها ألمانيا الغربية إلا أربعاً وخمسين .

وهى تريد الباقى .

ألم تتعهد به واشنطن لها ؟ أولم تتعهد به وهى تعرف حاجتها إليه ؟

واستجابت الولايات المتحدة الأمريكية وبدأت تشحن لإسرائيل بقية الدبابات الموعودة .

* فى مرحلة أخيرة ، فى شهر فبراير من هذا العام ، عادت إسرائيل وطلبت من الولايات المتحدة الأمريكية ، بواسطة « آبا إيبان » نائب رئيس وزرائها ، تعزيزاً عسكرياً جديداً : دبابات إضافية ، وطائرات مع تركيز واضح على قاذفات القنابل .

وتمت مقابلات سرية فى البيت الأبيض الأمريكى حضرها الرئيس « جونسون » وأبرز مساعديه ، « ماكنمارا » وزير الدفاع ، و « راسك » وزير الخارجية ، وتقررت الاستجابة لطلب إسرائيل الجديد : مائتى دبابة أخرى من طراز « باتون » وثمانين طائرة من قاذفات القنابل طراز « سكاى هوك » .

. . . .

يبقى خطر هذه الصفقة ، بعد تأكيد أمرها ، وبعد تفصيل ظروفها — وهو موضوع لا يحتاج إلى كلام كثير !

الاهتمام واضح بالدبابات وقاذفات القنابل ، وإذن فهى بالدرجة الأولى أسلحة هجومية ، وهو حشد للعدوان لا شك فيه .

أسلحة وحشد بكميات كبيرة ، وبقوة نيران عريضة وكثيفة فى الوقت نفسه !

السؤال الثانى :

● هل يعرف الملك ما هو معنى اضطرار الولايات المتحدة إلى القيام بدور مورد السلاح الرسمى لإسرائيل ؟

لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية كما قلت تتحرج دائماً من أداء هذا الدور وتتركه لأطراف أصغر فى التحالف الغربى الذى لم تكن إسرائيل تستطيع أن تحصل من غيره على ما تريد من السلاح .

إن السياسة الجريئة للجمهورية العربية المتحدة ، استطاعت أن تقفل أبواب الشرق كلها فى وجه إسرائيل وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بالسلاح .

ومن الواضح أن إسرائيل لا تستطيع أن تحصل على طلقة رصاص واحدة من الاتحاد السوفييتى مثلا ، أو من الصين ، أو من تشيكوسلوفاكيا ، وهى الدول القادرة فى الشرق على إنتاج السلاح الثقيل .

وليست مقبولة هنا حجة أن يقال إن إسرائيل على أى حال لن تطلب من الشرق سلاحاً بحكم ارتباطها بالغرب .

ولو تصورت إسرائيل أن ذلك ممكن لتقدمت تطلبه . . . على الأقل لتحرج علاقات الشرق مع العرب ، دون خشية من حرج يؤثر على علاقاتها مع الغرب ، فإن ثقته بها كاملة وارتباطها به مصيرى !

وبرغم المشقة والصعوبة فإن سياسة الجمهورية العربية المتحدة

رفضت أن تضع الغرب كله فى سلة واحدة وتصدر عليه حكماً بالتعميم المطلق . وإنما اعتبرت — وبحق — أن هناك مجالا مفتوحاً للعمل . يسعى مهما كانت العقبات إلى تضييق الجبهة التى يتدفق منها السلاح على إسرائيل .

* * *

وقبل سنة ١٩٥٥ كانت بريطانيا هى المسئول الغربى الأول عن الشرق الأوسط ، وكانت أيضاً مورد السلاح له .

تعطى بعض العرب ما يكفى احتياجات أمنهم الداخلى حفاظاً على العروش والصداقات .

ثم تعطى إسرائيل ما يكفى لتأكيد تفوقها على بقية العرب المتمردين على سيطرة بريطانيا أو الذين تراودهم نزعات التمرد .

* * *

بعد سنة ١٩٥٥ تطورت الأحداث فى الشرق الأوسط بسرعة ، كسرت مصر احتكار السلاح واختل الميزان بينها وبين إسرائيل وكان العدوان فى السويس فى جزء هام منه محاولة لضرب الجيش المصرى قبل أن يستوعب سلاحه الجديد ويتمكن منه .

وفى ظروف ما قبل السويس دخلت فرنسا كمورد للسلاح لإسرائيل ، وكان أول دخولها بطلب من الولايات المتحدة الأمريكية ، أثناء وجود « جون فوستر دالاس » وزير خارجيتها فى باريس فى شهر مارس من سنة ١٩٥٦ ، وأمر « جون فوستر دالاس » — وقتها — بتسليم إسرائيل ٣٦ طائرة من طراز « ميستير ٤ » كانت المصانع الفرنسية تقوم بإنتاجه لحساب حلف الأطلنطى ، وتنازل « دالاس » — باسم الولايات المتحدة : قيادة ذلك الحلف — عن الأولوية المعطاة له فى الحصول على هذه

الطائرات لكى تتسلمها إسرائيل على وجه السرعة أمام خطر التسليح المصرى المفاجئ .

خلال معركة السويس وبعدها ، وفى سنوات انهيار الجمهورية الفرنسية الرابعة ، أصبحت وزارة الدفاع الفرنسية — خصوصاً على عهد « بورجيس مانورى » — كنزاً مفتوحاً للجيش الإسرائيلى ، ما يتمناه يمد يده ويأخذه بغير حساب حتى لقد أصبح للجيش الإسرائيلى ممثل مقيم ، له مكتب رسمى فى قلب وزارة الدفاع فى باريس .

* * *

وحين جاء « شارل ديجول » بسياسة فرنسية مستقلة فإن الجمهورية العربية المتحدة مدت يدها لباريس مدركة أن هناك فرصة حقيقية .

وعندما تم اجتماع عبد الحكيم عامر بشارل ديجول بعد تمهيد طويل فإن الجمهورية العربية المتحدة لم تطلب ، ولا فكرت أن تطلب ، إلى فرنسا أن تنقل انحيازها السابق إلى إسرائيل وتحوله إلى انحياز لمصر .

كل ما طلبته مصر — وكانت فرنسا بالفعل وبحكم سياسة ديجول المستقلة فى الطريق إليه — هو أن تنحاز فرنسا لفرنسا وأن تنحاز للحق بقدر ما ترى بالمبادئ وبالمصالح منه !

ولست أقول إن فرنسا الآن لا تبيع لإسرائيل سلاحاً أو إنها ليست على استعداد للبيع . . . وإنما أقول إن ما تحقق فعلا مع فرنسا أقل من ذلك وإن كانت فيه الكفاية .

إن العلاقة الخاصة بين الجيش الفرنسى والجيش الإسرائيلى توقفت رسمياً وأغلق المكتب الخاص للممثل الإسرائيلى المقيم فى وزارة الدفاع الفرنسية .

وتستطيع إسرائيل أن تشترى سلاحاً من فرنسا ولكن عليها أن تدفع ثمنه كاملا .

ذلك ما لا تريده إسرائيل ، وما لم تتعوده وما لا تستطيع تحمله !

* * *

ولقد كان من هنا أن عادت إسرائيل بطلباتها إلى الولايات المتحدة فإذا هى تحولها إلى ألمانيا الغربية وتبدأ هدايا السلاح لإسرائيل من بون بعد أن توقفت هدايا السلاح لإسرائيل من باريس .

وهنا أيضاً تقدمت الجمهورية العربية المتحدة إلى عمل سياسى إيجابى ونشيط كان من شأنه — حتى بثمن قطع العلاقات مع بون — أن توقفت هدايا السلاح الألمانى لإسرائيل .

بذلك فإن جبهة الغرب المفتوحة التى كانت إسرائيل تحصل منها على السلاح ظلت تضيق وتضيق حتى لم يبق منها غير ثغرة .

فرنسا اختلف موقفها ، وألمانيا توقفت .

ثم لم تبق غير الثغرة الأمريكية التى كانت من قبل نصف مفتوحة نصف مغلقة تتردد وتتحرج .

هذه الثغرة تفتحت أخيراً حين ضاق كل شىء من حولها ولم يبق غيرها منفذاً يتدفق منه السلاح على إسرائيل !

وذلك — ضمناً — نصر للجمهورية العربية المتحدة التى تمكنت من إغلاق أبواب عديدة لهدايا السلاح لإسرائيل حتى اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية أن تكشف نفسها وتخرج — بلا تردد أو تحرج — بلا حياء — لدور مورد السلاح لإسرائيل .

السؤال الثالث :

● هل يعرف الملك أن هذه الثغرة التى تبقت لإسرائيل منفذاً لتدفق السلاح هى مسئوليته قبل غيره وأنه أقدر من الآخرين جميعاً على إغلاقها ؟

إن الجمهورية العربية المتحدة لا تملك شيئاً فعالا تجاه الولايات المتحدة الأمريكية .

تملك قوة سياسية ومعنوية بغير حدود ، لكن الولايات المتحدة الأمريكية الآن فى مزاج نفسى معقد يشهد به ويعبر عنه اندفاعها العدوانى فى فيتنام !

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية حتى الآن قد أصمت سمعها وعزلت تصرفاتها عن القوة السياسية والمعنوية العالمية التى تطالبها بتعديل موقفها فى فيتنام فإنه ليس من المتصور – وبسهولة – أن تستجيب الولايات المتحدة لتأثير مصر السياسى والمعنوى وأن تقفل الثغرة التى يتدفق منها السلاح الأمريكى على إسرائيل .

والملك فيصل وحده فى العالم العربى احتمال تأثير ما زال ممكناً :

* هو الصديق الباقى للسياسة الأمريكية فى المنطقة بل هو أملها فى خطط الحاضر والمستقبل .

* ومن ناحية ثانية فلديه المصالح الأمريكية التى جعلت واشنطن – فى السابق – تتردد وتتحرج قبل أن تقبل القيام بدور مورد السلاح الرسمى لإسرائيل ، وليس سراً خفياً أن أرباح الشركات الأمريكية من بترول السعودية تزيد سنوياً عن بليون دولار – أى ألف مليون دولار .

ذلك يضعه على الفور فى موقف يختلف عن موقف مصر .

مصر ليست صديقاً للسياسة الأمريكية وإنما هى عقبة .

وإذا لم تكن مصر هى التى تأخذ من أمريكا فإنها بالتأكيد لا تعطى أمريكا !

السؤال الرابع :

● هل يعرف الملك أنه يتحمل مسئولية مادية محددة ، قبل أية مسئولية أدبية متطوعة – بالنسبة لصفقات السلاح الأمريكى لإسرائيل – وسبب ذلك أن صفقة الأسلحة الأمريكية للسعودية كانت هى الغطاء الذى تسترت به واشنطن وهى تقوم بدور مورد السلاح لإسرائيل ، تقدمه للعرب وتقدمه لغير العرب تظاهراً بالحياد وادعاء بحفظ التوازن ؟ !

إن الملك فى عدائه – قبل أى عداء – للثورة العربية هرول يطلب السلاح من أمريكا ويدفع قرابة الخمسمائة مليون دولار نقداً وعداً لمعدات يشتريها بغير وعى أو تخطيط وكأنها أسراب من سيارات الكاديلاك تطلب بأعدادها !

ولقد جاء الطلب الملكى فى وقته ، حتى لقد كان هناك شك فى بعض الأحيان أنه قدم بناء على دعوة أمريكية .

إن الطلب الملكى السعودى قدم لواشنطن فى نفس الأيام الحرجة التى تم فيها إقفال الباب الألمانى لهدايا السلاح وبدأت فيها إسرائيل تقف مباشرة وعلانية أمام الباب الأمريكى وتنادى بفتحه على مصراعيه أمامها .

أيامها ارتفعت أصوات كثيرة فى العالم العربى ، بينها « الأهرام » ، تهيب بملك السعودية أن يتوقف قليلا ويتدبر موقع خطاه .

وفى أواخر فبراير وأوائل مارس من سنة ١٩٦٥ خرجت « الأهرام » لعدة أسابيع متوالية تقول صراحة : إن طلب الملك فيصل أسلحة من أمريكا

لن يكون له من أثر إلا أن تتقدم أمريكا فى حمايته ـ أو غطائه ـ لدور مورد السلاح لإسرائيل .

أيامها لم يلتفت الملك إلى أحد ولا ألقى سمعاً إلى نداء .

جمع أطراف عباءته وحطا إلى طلب السلاح من أمريكا .

وباعته أمريكا بالفعل أسلحة دفاعية : رادار ومدفعية صاروخية مضادة للطائرات .

ثم قدمت لإسرائيل أساحة هجومية : دبابات وقاذفات قنابل.

أسلحة أمريكية ، دفاعية ، للسعودية . . . وضد مصر !

وأسلحة أمريكية ، هجومية ، لإسرائيل . . . وضد مصر أيضاً !

السؤال الخامس :

● هل يعرف الملك أن إذاعة صفقة الأسلحة الأمريكية لإسرائيل على هذا النحو العلنى والرسمى قبل أيام قليلة من ذهابه إلى واشنطن هو فى أقل القليل استهتار به واستهانة وأنه حتى بمقاييس الكبرياء العربى التقليدى فإن الأمر يستحق موقفاً ؟!

لقد تبين الآن أنه كان فى النية إذاعة نبأ هذه الصفقة رسمياً حتى وإن لم يسبق بذلك « الأهرام » .

حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت تريد فى سنة تجديد نصفى للكونجرس بالانتخابات ـ أن تكسب أصوات أصدقاء إسرائيل لمرشحيها .

وحكومة إسرائيل كانت تريد ، فى وجه قلق شديد ، أن تطمئن أنصارها إلى أنه ما زالت هناك ثغرة مفتوحة يتدفق منها السلاح على إسرائيل .

وكانت أمريكا وإسرائيل فى الانتظار لا مراعاة لملك السعودية . وإنما خوفاً من رد فعل فى القاهرة قبل مجىء كوسيجين إليها وخلال زيارته لها ، يعبر عن نفسه بصفقة سلاح جديدة مع الاتحاد السوفييتى توازن الصفقة الأمريكية لإسرائيل .

هذه هى الحقيقة بشهادة كل المصادر الأمريكية .

وذلك دائماً – وعلى أى حال – موقف القوى الكبرى تجاه المستضعفين أمامها .

هذه القوى الكبرى تحسب الحساب لرد الفعل من معارضيها واثقة من ولاء أتباعها حتى وإن داست على أطراف عباءاتهم المذهبة !

* * *

ولقد تعمدت أن أسوق هذه الأسئلة إلى الملك مباشرة وبغير غلالات مصنوعة من زخارف الأسلوب والكلمات .

ولست أعرف ما الذى يحق لى أن أنتظره بعدها ؟

هل يرد الملك . . ؟ لا أظنه سوف يرد .

هل يتحرك الملك . . ؟ لا أظنه سوف يتحرك .

هل يغضب الملك لأمته أو لنفسه ؟ لا أظنه سوف يغضب !

هو الآن مشغول إلى آخر دقيقة بالاستعداد لزيارته المقبلة لواشنطن ، ينتقى ما سوف يحمله فى حقائبه من الهدايا ، ويقرأ ما سوف توزعه مكاتب العلاقات العامة – التى يستخدمها فى التأثير على الصحافة الغربية – من نشرات تتحدث عنه وعن مناقبه ، وكيف يتصدى لتأليف الحلف المسمى بالإسلامى ، وكيف ينوى أن يتغلب على عبد الناصر وينتزع منه مكانته فى العالم العربى ؟ !

وواشنطن أيضاً مشغولة بالاستعداد لاستقباله .

فرقة موسيقى البحرية فى البيت الأبيض تتدرب على عزف النشيد الملكى السعودى ، وجونسون يقرأ مراسم الزيارة وأولها أن يذهب إلى المطار ليظهر شدة اهتمامه بالملك وأن يضغط على يديه بحرارة تكساس وأن يخبط على ظهره تعبيراً عن الألفة والود .

* * *

. . . ثم سؤال لا علاقة له بكل الأسئلة الخمسة التى وجهتها للملك .

أقول فى النهاية :

ألا يستطيع هؤلاء الملوك أن يغضبوا على أحد غير شعوبهم ؟!

الفصل التاسع

المعركة . . . وأطراف المعركة

(٣ يونية ١٩٦٦)

حتى يكون كل شيء في مكانه ، وفى وضعه الصحيح ، فإني أريد أن أطرح فى هذا الحديث سؤالا :

هذه المعركة التى تحتدم الآن فى الشرق العربى وتزداد عنفاً كل يوم بالتصاعد — من هم أطرافها ، وما هو هدفها ؟

وهذا السؤال يستحق فى الإجابة عنه أكبر قسط من الصراحة ، طلباً للوضوح ، الذى يتوقف عليه إلى حد بعيد سير المعركة ونتيجتها .

* * *

وإذا جاز لى ، وقد طرحت السؤال ، أن أحاول الإجابة عنه ، فتصورى أن أقول بما يلى :

— إن هذه المعركة هى مرحلة فى الحرب الممتدة بين الأمة العربية وبين قوى الاستعمار — التقليدى والجديد — الراغبة — ضمن مخططها العالمى — فى استبقاء سيطرتها السياسية والاقتصادية — والعسكرية تبعاً لذلك — على شعوب هذه الأمة العربية !

وليست هذه هى الحقيقة فقط ، ولكنها الحقيقة التى لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان أبداً والتى لا يجوز أن يشوبها خلط أو ينسحب فوقها غطاء !

أى أن المعركة :

* ليست صراعاً داخلياً فى العالم العربى بين القاهرة الثورة ، وبين الرياض العرش .

كما أنها :

* ليست صراعاً دخيلا على العالم العربى بين الاتحاد السوفييتى وبين الولايات المتحدة الأمريكية .

وقبول أى من هذين الاحتمالين ، أو حتى مجرد تصوره ، تقليل من قدر المعركة وإساءة إلى النضال العربى لا تغتفر !

* * *

إن المعركة لا يمكن أن تكون صراعاً داخلياً فى العالم العربى بين القاهرة الثورة وبين الرياض العرش ، أو صداماً بين جمال عبد الناصر والملك فيصل إلا بقدر ما كانت المعارك السابقة للأمة العربية — فى حربها الممتدة — صراعات داخلية أو صدامات شخصية .

● هل كانت معركة سنة ١٩٥٥ بين القاهرة وبغداد صراعاً داخلياً أو صداماً شخصياً بين جمال عبد الناصر ونورى السعيد ؟

كان موضوع المعركة والصدام هو : حلف بغداد !

● وهل كانت معركة سنة ١٩٥٧ بين القاهرة والرياض صراعاً داخلياً أو صداماً شخصياً بين جمال عبد الناصر والملك سعود ؟

كان موضوع المعركة والصدام هو : مشروع أيزنهاور !

● وهل يمكن أن تكون معركة سنة ١٩٦٦ بين القاهرة والرياض صراعاً شخصياً بين جمال عبد الناصر والملك فيصل ؟

موضوع الصدام هو : الحلف المسمى بالإسلامى والذى كشفه الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية — دوايت أيزنهاور — فى

مذكراته والذى كان مقدراً للملك سعود أن يلعب فيه دور « بابا الإسلام » فلما سقط على أبواب ذلك الدور ، أزيح جسده وتقدم ملك جديد فى السعودية لأدائه ، فى جو كان ظن المخرجين أنه أكثر ملاءمة ، وتحت مؤثرات كان ظنهم — أيضاً — أن تكون أكثر كفاءة .

ليست المعركة إذن صراعاً داخلياً أو صداماً شخصياً فإن الملك فيصل ليس صاحب الحلف المسمى بالإسلامى ، إلا بقدر ما كان نورى السعيد صاحب حلف بغداد ، وبقدر ما كان الملك سعود صاحب مشروع أيزنهاور !

إنما المعركة كما قلت مرحلة فى الحرب الممتدة بين الأمة العربية وبين قوى الاستعمار — التقليدى والجديد — الراغبة — ضمن مخططها العالمى — فى استبقاء سيطرتها السياسية والاقتصادية — والعسكرية تبعاً لذلك — على شعوب هذه الأمة العربية !

ولقد كان الاستعمار هو الأب الفعلى لحلف بغداد ولمشروع أيزنهاور وللحلف المسمى بالإسلامى .

وكان القصد هو السيطرة .

* * *

ومن ناحية أخرى فإن المعركة لايمكن أن تكون صراعاً دخيلا على العالم العربى بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية !

لقد كان ذلك هو القالب الحديدى الضيق الذى أراد « جون فوستر دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية أيام رئاسة أيزنهاور أن يفرضه على كل الثورات الوطنية والقومية ، بما فى ذلك ثورة القومية العربية .

إن دالاس بمنطق الكاهن المتعصب حاول أن يقسم الدنيا قسمين :

جنة واشنطون وجحيم موسكو كما كان يتصور ، وكان رأيه أن الأحرار الأخيار لابد أن يقفوا تحت العلم الأمريكى ، كما أن الذين يقفون تحت العلم السوفييتى هم العبيد والأشرار !

ولقد رفضت حركة الثورة الوطنية — بأصالة وحزم — هذا التقسيم الأحمق من أساسه وأصرت على استقلالها مهما كان من تصورات دالاس ، وصممت على أن ترى الأمور بعينيها هى لا بعينى كاهن متعصب !

وفى سبيل ذلك وتحقيقه وتأكيده ، فإن الحركة القومية الثورية العربية بالذات خاضت الأهوال حتى لا تسمح بهذا الاستقطاب — على الصعيد الدولى — بين الغرب والشرق .

وفى أصعب الظروف فإن الحركة الثورية العربية كانت تشرح للأعداء وللأصدقاء معاً مبادئها ، ولكنها كانت تحتفظ لنفسها — وحدها — بكل خططها !

كانت تشرح مبادئها وتترك لكل طرف من الأطراف — فى المجتمع الدولى — حق أن يحدد موقفه مع المبادئ أو ضدها .

وكانت تكتم خططها — عن الأعداء والأصدقاء معاً — معتبرة و بأصالة أن ذلك ليس ضمان النجاح فقط ولكنه معيار الاستقلال الكامل أولا وأخيراً .

وعلى سبيل المثال ، فإن مصر وهى ترفض حلف بغداد ، وترفض — ضمنه وضمن غيره من الأحلاف العسكرية — أن تجعل من أراضيها قواعد لحصار الاتحاد السوفييتى وتهديده فعلت ذلك بغير اتصال — على الإطلاق — بالاتحاد السوفييتى ، ولم تفكر — ولو لدقيقة واحدة — أن تتصل به لتسأله : ماذا يكون موقفه لو تعرضت هى للعدوان فى رفضها أن تكون قاعدة للعدوان ضده !

مثال أوضح فى تأميم قناة السويس ، فإن الاتحاد السوفييتى فوجئ كما فوجئت الولايات المتحدة الأمريكية بقرار التأميم .

ولم يصدر عن الاتحاد السوفييتى وقتها رد فعل فورى للخطوة الثورية الجريئة التى اتخذتها مصر ، ومضت أربع وعشرون ساعة ملفوفة بالصمت فى موسكو ، بحث فيها الموقف الطارئ وعواقبه بغير شك ، ثم أعلن الاتحاد السوفييتى بعدها تقديره وتأييده .

مثال أشد وضوحاً فى حرب السويس فإن مصر بينما القنابل تنزل عليها وبينما الأساطيل والجيوش القادمة من كل اتجاه توشك أن تقتحم شواطئها — لم تسأل الاتحاد السوفييتى ، ولم تفكر لدقيقة واحدة أن تسأله : ما هو رأيه ؟ وكيف يستطيع أن يهرع لنجدتها ؟ ومتى ؟

ومضى أسبوع ، وعشرة أيام ، قبل أن يحدد الاتحاد السوفييتى موقفه ويصدر إنذاره الشهير إلى المعتدين .

مثال أشد ، وأشد وضوحاً فى اليمن ، فإن مصر أرسلت قواتها للقتال على بعد ألفى ميل من أرضها ، دون أن تسأل أو تفكر لدقيقة واحدة فى أن تسأل الاتحاد السوفييتى : ما العمل إذا تعرضت هناك فى اليمن — بجوار أكبر قواعد الاستعمار البريطانى فى المنطقة — لعمليات أوسع وأخطر ؟

فى ذلك كله ، وفى غيره ، كانت مصر تؤمن بأن الذى يخطر مقدماً بخططه ، إنما يريد — ولو بشكل غير مباشر — أن يحصل على الضمان قبل أية مخاطرة .

وذلك — ولو بشكل غير مباشر — معناه أنه يريد أن يحصل على إذن بالتحرك .

وذلك — ولو بشكل غير مباشر — معناه أنه يعرض نفسه لمن يقول له : لا . . . لا تقدم . . . ليس الآن على الأقل !

وذلك – ولو بشكل غير مباشر – معناه ضياع الاستقلال وحرية العمل .

هكذا فإن الاتحاد السوفييتي لم يكن هو الذى حارب عنا معركة الأحلاف ، ولا كان هو الذى حارب عنا معركة السويس ، ولا كان هو الذى حارب عنا معركة اليمن ولا غيرها من المعارك ، فى الأمس أو اليوم أو غداً .

إن الحركة الثورية العربية وجدت الحل الصحيح والصيغة الأصيلة :

تعلن مبادئها للكل ، ولا تعلن خططها لأحد .

وتتحرك بالاستقلال كله لأن الحرب حربها والمصير مصيرها ، ثم تترك للآخرين أن يختاروا مواقفهم : مع المبادئ أو عليها .

ومن حسن الحظ ، وهذه شهادة للاتحاد السوفييتي ، أنه فى كل مرة اختار جانب المبادئ ، وكان ذلك هو المنطق بالنسبة له وباعتباره قوة عظيمة فى جبهة القوى العالمية المناهضة للاستعمار . . . العالمى !

وإذن مرة أخرى ، فهذه المعركة – كما قلت – مرحلة فى الحرب الممتدة بين الأمة العربية وبين قوى الاستعمار – التقليدى والجديد – الراغبة – ضمن مخططها العالمى – فى استبقاء سيطرتها السياسية والاقتصادية – والعسكرية تبعاً لذلك – على شعوب هذه الأمة العربية !

* * *

ينبنى على ذلك سؤال :

إذن لماذا التركيز بالدرجة الأولى فى هذه المعركة ، التى تدور الآن ، على الملك فيصل قبل غيره ، حتى قبل الاستعمار الذى يحركه ويرسم له دوره الذى يقوم به ؟

فى محاولة للرد على هذا السؤال الذى تداعى منطقياً من سؤال سبقه — أقول :

١ — إن الاستعمار قوة عالمية هائلة ، ولا تستطيع الأمة العربية أن تنذر نفسها للقضاء عليه فى كل مكان وتعتبر ذلك جهاداً مقدساً لا تقف دونه .

ذلك فوق طاقتها ، ثم إن ذلك مسئوليتها ومسئولية غيرها من الذين يؤمنون بالحرية ويناضلون من أجلها .

وهى مكلفة — قبل أى شىء آخر — بالحرب على أرضها ، وبالتأييد المعنوى لغيرها ممن يحاربون على أراضيهم .

بل إن الأمة العربية لو استطاعت تحقيق النصر على أرضها لكانت بذلك تسدى أجل الخدمات لقضية الحرية عموماً فى كل مكان .

٢ — فى الوقت نفسه فإن الاستعمار — بطبيعة العصر وروحه وأحكامه — وأبرزها ميزان الرعب النووى — لم يعد يستطيع أن يلجأ إلى أسلوب القوة القاهرة فى فرض سيطرته على الشعوب التى ترفض هذه السيطرة وتثور ضدها .

ومعنى ذلك أن الاستعمار لم يعد يقدر على الظهور سافراً .

فى حلف بغداد عرض نورى السعيد ، وفى مشروع أيزنهاور عرض الملك سعود ، وفى الحلف المسمى بالإسلامى عرض الملك فيصل .

كل ذلك تم تحت تاكتيك العمل من الداخل وليس الزحف من الخارج !

٣ — يترتب على ذلك كله :

. . . على أن الأمة العربية لا تستطيع الخروج من حدودها لمقاومة الاستعمار وحربه فى أى مكان . . .

. . . وعلى أن الاستعمار لا يستطيع أن يدخل إلى حدود الأمة العربية ظاهراً وسافراً لإخضاعها فى أى وقت . . .

يترتب عليه أن ضرورات النصر تحتم القضاء على قواعد الاستعمار وركائزه فى الداخل ، وأن تحطيمها قاعدة بعد قاعدة وركيزة بعد ركيزة هو الأسلوب الممكن — فى الدرجة الأولى — والمطلوب فى كل معركة ضد الاستعمار .

ولقد انتهت معركة حلف بغداد بسقوط نورى السعيد ، وانتهت معركة مشروع أيزنهاور بسقوط الملك سعود ، وذلك ما لا بد أن يحدث فى معركة الحلف المسمى بالإسلامى .

* * *

وإذا نظرنا من حولنا الآن والمعركة محتدمة فى الشرق العربى ، تزداد عنفاً كل يوم — بالتصاعد — فإننا نجد أن كل الخطط المعادية لحرية الأمة العربية وأمنها ليس لها غير الملك فيصل منذ تولى عرش الرياض بعد سقوط الملك سعود فى نهاية معركة سابقة :

* الملك فيصل هو الذى يقوم بعملية إغراق الكيان المتميز للأمة العربية ، فى بحر الدعوة المشبوهة إلى الحلف المسمى بالإسلامى ، ولم يجد مؤيدين له فيه حتى الآن غير محمد رضا بهلوى فى طهران ، والحبيب بورقيبة فى تونس ، وهذا يكشفه أكثر من أى شىء آخر ويكفيه !

* والملك فيصل هو الذى يتصدر لمحاولة عزل مصر فى العالم العربى — حلم دالاس القديم — ومن هنا يضغط على الكويت ، ويجدد اتفاقية الطائف مع الأردن ، ويرصد الاعتمادات للتآمر على سوريا ، حتى إن القصر الملكى فى الرياض الآن أصبح مقصداً لكل أركان الحكم الانفصالى الرجعى فى سوريا .

* والملك فيصل هو الذى يتصدى لتنفيذ المشروعات البريطانية فى شبه الجزيرة العربية حتى إن بريطانيا الآن ، فى اللحظات الحاسمة من الكفاح المسلح لتحرير الجنوب العربى ، تنصح السلاطين هناك صراحة بالتعاون مع الملك فيصل ، أقول ذلك نقلا عن وثيقة رسمية بريطانية تسجل اجتماع الحاكم البريطانى العام فى عدن يوم ٢٨ فبراير ١٩٦٦ مع بعض السلاطين أثناء زيارته لحضرموت ، وفى البند الثانى عشر من هذه الوثيقة نص يقول :

« وذكر سعادته الوزراء إلى الحاجة فى إقرار التقدم إلى الملك فيصل ».

* والملك فيصل هو الذى يتولى – بعد هزيمة سعود وسقوطه – مهمة التآمر على الجيش المصرى فى اليمن . . متعاوناً فى ذلك مع سلطات الاحتلال البريطانى فى الجنوب العربى ، ومستعيناً فى ذلك بجيش من المرتزقة الأجانب الإنجليز والفرنسيين والألمان ، وفعل ذلك وهو يعرف ما يفعل لدرجة أن الوفد الذى جاء من السعودية لحضور مؤتمر « حرض » كان يضم بين من يضم الأمريكى القبيح « كيندى » الذى تظاهر بالإسلام وأسمى نفسه « عبد الرحمن كندة » والذى يعرف كل مسئول سعودى أنه ممثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مع فلول أسرة حميد الدين فى السعودية !

* والملك فيصل هو الذى تقدم مندفعاً لعداء مصر . يصرف الأموال الطائلة لاستئجار الإرهابيين علّ أحدهم يطلق رصاصة أو يلقى قنبلة فى مصر ، ويصرف الأموال الطائلة فى الوقت نفسه لكل صاحب قلم فى الشرق والغرب يعرض بيع قلمه بمدح الملك أو على الأقل بذم عبد الناصر !

* * *

ينتهى ذلك بنا – بالتداعى المنطقى أيضاً – إلى سؤال :

ـ هل معنى ذلك أن الملك فيصل مجرد أداة ؟

وفى محاولة للرد ـ أخيراً ـ على هذا السؤال أقول :

ـ ذلك تعميم ليس من السهل القطع به ، وأغلب الظن أنه تجن على علاقات القوى .

إن الملك فيصل ـ من وجهة نظره ـ صاحب مصلحة أيضاً فى أن يقوم بما يقوم به .

هو ـ فكراً ومصلحة ـ يخشى التطور العربى ويخاف من الثورة العربية ، وتكاد الخشية والخوف أن يصلا به إلى الكراهية والحقد .

أى أنه قد يكون أداة فى الجزء الأكبر مما يقوم به ، ولكنه ـ بالتأكيد ـ طرف فيه أيضاً .

ونحن أحياناً ـ على سبيل التشبيه والتقريب ـ نقول بأن إسرائيل ليست إلا أداة للاستعمار يريد بها أن يقطع وحدة الأمة العربية ويهدد أمنها ويمتص طاقتها !

لكن ذلك القول جزء من الحقيقة وليس هو كل الحقيقة !

إسرائيل أداة فى الجزء الأكبر من وجودها .

لكنها فى الوقت نفسه طرف بحكم خطط العنصرية الصهيونية ولها ـ إلى جانب مطامع الاستعمار ومخططاته ـ مطامعها هى ومخططاتها هى !

الملك فيصل شىء من نفس النوع .

هو أداة فى الجزء الأكبر مما يقوم به ، ولكنه فى الجزء الباقى مهما كان قليلا ـ فاعل أصلى ! له مطامعه . . . وله مخططاته فى حلف الاستعمار والرجعية !

* * *

والذى يستحق التأمل أن الملك فيصل ـ فى الدور الذى يقوم به لحساب

نفسه ، لحساب مطامعه ومخططاته هو - لا يستطيع أن يواجه المعركة بقواه الذاتية وإنما هو يحاول أن يستعمل القوى التى تستعمله .

من هنا فإن الجهد الكبير فى سياسة الملك فيصل هو العمل بكل الوسائل حتى يقع الصدام المباشر والعنيف بين الجمهورية العربية المتحدة وبين الولايات المتحدة الأمريكية ، ويتصور الملك بمنطق دسائس القصور ، أنه بما أن الولايات المتحدة الأمريكية هى الجانب الأقوى فى مثل هذا الصدام المباشر والعنيف - إذا جرى - فإن النهاية إذن مضمونة وعلى هواه !

* ومثلاً راح الملك يلح فى الرجاء على واشنطن أن تسند موقفه بكل وسيلة للضغط تستطيع أن تمارسها ضد القاهرة .

* ومثلاً توهم الملك أنه يستطيع أن يمضى فى سياسته تجاه اليمن والجيش المصرى فيها بغير رادع فلما تلقى التحذير بتصميم مصر على ضرب قواعد العدوان هرع إلى الولايات المتحدة الأمريكية يطلب ضماناً - أعطى له بالفعل .

* ومثلاً هرول الملك يشترى من الولايات المتحدة سلاحاً ، ولم يكلفه السلاح مئات ملايين الدولارات نقداً وعدًّا فحسب ، وإنما أخطر من ذلك كلف الأمة العربية صفقة سلاح أمريكية لإسرائيل أعطيت فى حماية الصفقة الملكية السعودية وتستراً بها .

* ومثلاً وصل الأمر إلى حد أن الملك احتج على الولايات المتحدة الأمريكية لأنها بعثت بالمستر « أفريل هاريمان » سفيرها المتجول إلى القاهرة يسأل الرئيس جمال عبد الناصر وساطته فى أزمة فيتنام وذهب أحد الأمراء مندوباً خاصًّا عن الملك إلى واشنطن يقول للمسئولين فيها :

ذهابكم للقاهرة فى طلب وساطة عبد الناصر يرفع هيبته فى العالم

العربى . . . لماذا لم تطلبوا الوساطة من الملك فيصل . . . وهو على استعداد للقيام بها !

حتى فى واشنطن – وبحبهم الشديد للملك فيصل وأملهم الكبير فيه – اعتبروا مثل ذلك العرض على أحسن[1] الفروض – نكتة لا تضحك سامعيها بقدر ما تغيظهم !

وفى هذا كله فات الملك أن القدر لم يعد أمريكيًّا ، وأنه مهما كان من استعدائه على مصر ، ومهما كان ما أعطى إليه من الضمانات ومن السلاح فإن التاريخ له حسابات أخرى ، أقوى من أمريكا ، وأعمق من دسائس القصور .

الفصل العاشر

درجات فى الكراهية !

(١٠ يونية ١٩٦٦)

لا أعرف إذا كانت هناك فائدة بقيت من استمرار جبهة العمل العربى الموحد — كما يقولون عنها — أو أن هذه الجبهة لم تعد موجودة . . . ربما لأنها لم توجد قط إلا فى النوايا المخلصة للذين ظنوا يوماً أن الرجعية العربية مع كراهيتها للثورة العربية تكره إسرائيل أكثر !

وأعترف أننى لم أكن شديد التفاؤل بإمكان نجاح مؤتمرات القمة العربية منذ بدأت فى القاهرة يوم ١٣ يناير ١٩٦٤ — وعندما بدا أن ذلك المؤتمر قد مشى خطوة إلى النجاح اعتبرت الأمر شبه معجزة .

أعترف أيضاً أن تأثرى بشبه المعجزة لم يدم طويلاً ، وانعكس ذلك على ما كتبت فى التمهيد لمؤتمر القمة الثانى الذى عقد بالإسكندرية فى سبتمبر من السنة نفسها ١٩٦٤ .

وأخيراً : فلقد ذهبت إلى الدار البيضاء أتابع أعمال مؤتمر القمة الثالث ، وفى تصورى — ولا أقول فى منای — أنه سيكون المؤتمر الأخير !

* * *

وبرغم أن نوبات من التفاؤل ، قد تكون أصابتنى وأصابت غيرى من ملايين العرب ، وبرغم الأمل والمنى وأحلام اليقظة أحياناً فإن كل شىء أمامنا بعد عامين ونصف العام من ممارسة القفز على القمم يقول بوضوح :

« إن الأساس الذى أقامت عليه الثورية العربية فكرة مؤتمرات القمة ليس أساساً مؤكداً مهما كان من شرف مقاصده ! »

أعنى أنه ليس أساساً مؤكداً أن الرجعية العربية ـ مع كراهيتها للثورة العربية ـ تكره إسرائيل أكثر !

إن الرجعية العربية تستطيع ـ بدافع مصالحها ـ أن تدخل فى صدام إلى آخر المدى مع الثورة العربية . . .

لكن الرجعية العربية لا تستطيع ـ مهما كانت دوافعها ـ أن تدخل فى صدام إلى آخر المدى مع إسرائيل ـ لأنها لا تستطيع أن تدخل فى صدام إلى آخر المدى مع الاستعمار حامى إسرائيل وسندها ، وحامى الرجعية العربية وسندها أيضاً ـ ومورد السلاح للاثنتين ضد الثورة العربية !

ولا أتهم ـ معاذ الله ـ أى عربى مهما كان ثورياً أو رجعياً بأنه لا يكره إسرائيل وإنما الذى أقول به هو :

ظنى أن الرجعية العربية تكره إسرائيل ، ويقينى أنها تكره الثورة العربية أكثر !

* * *

أقول ذلك وبعض شواهدى عليه ما يجرى الآن بعد عامين ونصف العام على قيام جبهة العمل العربى الموحد على النحو التالى :

* الملك فيصل مشغول بالعمل ضد الثورة اليمنية ـ ليس مشغولاً بأى عمل ضد الاحتلال البريطانى للجنوب العربى أو لعدن أو حتى لواحة البوريمى !

* الملك فيصل يكرس كل ما لديه للعمل ضد الجيش المصرى الذى ذهب لمساندة الشعب اليمنى وحماية إرادته ـ لم يبق لديه شىء يكرسه

للعمل ضد الجيش الإسرائيلى الذى يقبع على الأرض المحتلة فى فلسطين عدواناً عليها وتهديداً لكل الشعوب العربية !

* الملك فيصل يصرف عشرات الملايين فى تمويل مخططات الدعاية والإرهاب ضد مصر . لم تعرض عليه — ولا هو طلب — مخططات للدعاية أو للإرهاب — وهو هنا مشروع — ضد إسرائيل !

* والملك فيصل فى الطريق الآن إلى واشنطن ، حاجاً إلى بيتها الأبيض ، متوسلاً بكل ما لديه فى أمريكا وضارعاً إليها أن تضغط بكل ما تستطيع على مصر قبل أن يفلت الزمام — لا يخطر على باله أن يسوق التوسل والضراعة لوقف تسليم صفقات السلاح الأمريكى لإسرائيل .

تلك بعض شواهدى ، أمامى وأمام غيرى ، رؤيا عين !

* * *

لكن التاريخ ليس سطح الحوادث .

هو أعمق من ذلك وأعرض ، وتجسيد التاريخ — وتلك نقطة أصر عليها دائماً — أكثر مما يساعد على التصور الشامل والدقيق لشكل الحقيقة ومضمونها .

لذلك فلسوف أحاول هنا أن أعيد تمثل المواقف والأبعاد التى بدأت منها وتطورت بعدها جبهة العمل العربى الموحد .

* * *

. . نستذكر أولاً صورة الجو العربى العام فى نهاية سنة ١٩٦٣ :

كان التفاعل فى العالم العربى على أشده ، وكان التمايز بين بقايا الماضى وطلائع المستقبل واضحاً قاطعاً يكاد أن يصل إلى حد الانفلاق .

التخلف فى جانب .

والتقدم فى جانب آخر مواجه له .

والتقدم يزحف فى كل يوم يؤكد فكرة أو يحتل موقعاً .

وكانت الحوادث تجرى بسرعة خاطفة كرد فعل قوى لمؤامرة الانفصال الرجعى ضد الجمهورية العربية المتحدة .

سقط حكم أسرة حميد الدين فى صنعاء ، سقط حكم عبد الكريم قاسم فى بغداد ، سقط حكم الانفصال الرجعى فى دمشق ، تمزقت التجارب الانتهازية التى قامت بعد ذلك فى بغداد وفى دمشق .

ووجدت الرجعية العربية نفسها على الدفاع وكانت تظن نفسها على الهجوم .

وعلى أرض اليمن بلغ الصدام درجة الاحمرار سخونة ودماً !

ولم تكن المعركة هناك مجرد مواجهة بين الثورة اليمنية والملكية السعودية وإنما اتسعت المواجهة لتشمل العالم العربى كله وتعكس التفاعل الدائر فيه والاستقطاب الذى نتج عن هذا التفاعل .

وقفت الجمهورية العربية المتحدة مع الثورة اليمنية أدبياً ومادياً ، وانحازت إليها فى الوقت نفسه كل القوى الثورية المطالبة بالتغيير ، ووقفت وراءها كل جماهير الشعوب العربية تعبر عن نفسها بمختلف الوسائل ، ولكن الرسالة تصل واضحة مهما اختلفت الوسائل — بحكم الظروف !

وبعث الملك سعود سيد الرجعية الملكية وقتها بطائراته تحمل أكداس السلاح الأمريكى لتستعمل ضد ثورة اليمن فإذا الشباب الحر من السعودية يقودون طائرات الملك وسلاح أمريكا ويهبطون بها فى القاهرة دليلاً مادياً يدين الملك .

ويصل الملك سعود إلى حد يضطر فيه إلى إبقاء كل طائرة فى السعودية جاثمة نائمة على الأرض ، لا تحلق مخافة عبور البحر الأحمر

إلى شاطئه المصرى ، ويهتدى الملك إلى حل استئجار طائرات أردنية يريد استعمالها فى ضرب الأرض اليمنية ، فإذا الشباب الحر من الأردن يندفعون فى الجو بطائراتهم إلى القاهرة أيضاً يعرضونها على الأمة العربية كلها محملة بالذخائر معدة للانقضاض على ثورة اليمن .

لا يجد الملك حلاً إلا التوسع فى استئجار الأجانب المرتزقة ، ضباطاً وجنوداً إنجليزاً وفرنسيين وألماناً ، ممن حاربوا بالأجر فى « كاتنجا » ، وممن ضمتهم ذات يوم الفرقة الأجنبية الفرنسية التى ملأتها بالمرارة معارك اليأس من « ديان بيان فو » إلى « الجزائر » — لكن سر ذلك كله ينكشف وتفيض به صحف العالم تفاصيل وصوراً ويثير الأمر ضجة استنكار حتى فى بريطانيا نفسها .

ويتخاذل الملك ، وتفلت منه أعصابه .

الذين يحركونه من الخلف فجعوا فيه ، والذين وقفوا إلى جواره بدأ كل منهم يبحث لنفسه عن طريق . . حتى أفراد أسرته !

أصبح الملك كتفاحة معطوبة على وشك السقوط ، لولا يد خفية تمسك بها معلقة قرب العود الجاف ، توهم الناس أنها ما زالت على فرعها من الشجرة المتآكلة بالآفات !

. . . . . .

. . . . . .

هل استذكرنا ذلك كله ، وتمثلنا صورة الجو العربى العام كما كان فى نهاية سنة ١٩٦٣ ؟

وإذن ننتقل بعد ذلك خطوة . .

* * *

. . نستذكر ثانياً مجموعة الأسباب التى حدت بالجمهورية العربية

المتحدة – وقتها – إلى أن تخرج بالدعوة إلى مؤتمر عربى على مستوى القمة ، وتوقف بذلك – أرادت أو لم ترد – تداعى الموقف كله لصالحها وفى اتجاهها ، لصالح التغيير وفى اتجاه الثورة !

فى ذلك الوقت واجهت الأمة العربية مشكلة أمن ملحة تكشفت مخاطرها فى اجتماع رؤساء الأركان العرب فى أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

فى ذلك الاجتماع وأثناء مناقشة حول مشروعات إسرائيل لتحويل مياه الأردن تبين بالأرقام أن بعض الدول العربية المحيطة بإسرائيل لا تقدر على منع تنفيذ مشروعات التحويل الإسرائيلية ، وأخطر من ذلك فهى لا تملك حرية العمل داخل أراضيها ولا تقدر على حماية مشروعات عربية لا بد من إقامتها للحيلولة أو للحد من اغتصاب إسرائيل مياه الأردن العربية !

مشكلة أمن ملحة لها أولوية بغير شك على أى اعتبار آخر غيرها . . . حتى على تيار التطور ذاته فإن الخطر المحتمل تهديد للحياة أساساً سواء كانت راكدة أم متطورة !

الأمر يقتضى الآن تفكيراً مشتركاً ، ويقتضى تعزيزاً لأوضاع الدفاع العربى فضلاً عن استكمال مقدرة الهجوم ، ويقتضى تنسيقاً سياسيًّا وماديًّا .

إلى جانب ذلك فإن هناك خواطر ترد على البال :

● قد تستطيع الرجعية أن تستفيد من معركة اليأس التى كانت غارقة فيها وقد تبذل لإثبات التوبة جهداً يمكن به الضغط على الاستعمار خصوصاً إذا ما وضع للبحث إعلان عربى جماعى بأن الدول العربية كلها سوف تحدد علاقتها بغيرها من الدول الأجنبية على أساس موقفها من قضية فلسطين وحقوق شعبها العادلة .

• وقد تقنع الرجعية العربية بفك الاشتباك مع اليمن مما يمهد لعودة فرقتين من الجيش المصرى تعملان فيه ــ إلى حيث الحاجة إليهما أشد وأجدى .

• وقد ينجح العمل العربى الموحد أمام مشكلة الأمن ثم يستطيع بطريقة بناءة وخلاقة أن يخدم قضية التطور العربى ولا يجمدها خصوصاً أن الصراع فى أساسه لايستهدف تيجان الملوك أو عروشهم ، وإنما هو فى الأساس أمل فى الخلاص من الاستغلال الأجنبى والطبقى .

. . . . . .

. . . . . .

هل استذكرنا ذلك كله ؟

وإذن ننتقل بعده خطوة !

* * *

نستذكر ثالثاً كيف تلقت القوى الرجعية دعوة مؤتمر القمة الأول ؟

كلها رحبت به ، وتقاطرت الوفود إلى القاهرة ، وآخرها الوفد الملكى من السعودية ، ولم يكن تأخيره لتردد فى قبول الدعوة أو رفضها ، وإنما كان التأخير بسبب خلاف حول من يجىء من السعودية ليجلس على المائدة .

سعود الخائف المنهار أو فيصل الذى بدأ يخطو ــ أو يزق ــ نحو موقع الحكم فى السعودية .

جاء الملك سعود فى النهاية ، وكان واضحاً منذ البداية أنه جاء بغير سلطة .

مهما يكن فلقد مر كل شىء سهلاً وخفيفاً إلى شبه المعجزة !

وبدا أن مؤتمر القمة الأول مشى إلى خطوة نجاح .

تعزيز الدفاع العربى فى المواقع المهددة والضعيفة بحث ، ووضعت له خطة ، ورصد للخطة بعض المال .

مشروعات العمل العربى للاستفادة من مياه الأردن بحثت ؛ ووضعت لها خطة ، ورصد للخطة بعض المال .

وكلام عن كيان فلسطين ، وقيادة عربية موحدة ، وفوق ذلك صدر البيان المرجو بأن العرب سوف يحددون موقفهم من أية دولة أجنبية على ضوء موقف هذه الدولة من قضية فلسطين وحقوق شعبها .

. . . . . .

. . . . . .

وإذا كنا قد استذكرنا ذلك كله مما حدث فى مؤتمر القمة العربى الأول فإننا سنبقى هنا بعض الوقت قبل أن نخطو خطوة جديدة فى محاولة تجسيد التاريخ وتمثل المواقف والأبعاد التى بدأت منها وتطورت بعدها جبهة العمل العربى الموحد .

* *

هنا ، لا بد من وقفة أمام الظاهرة التى عبرت خلال زحام مؤتمر القمة العربى الأول ، ولم يلتفت إليها أحد ، أو لم يلتفت إليها أحد بالقدر الكافى .

هذه الظاهرة هى :

لماذا جاء الملك سعود إلى المؤتمر العربى الأول بغير سلطة ؟

الرد الوحيد المقبول هو :

لأن الذين يسيطرون ويوجهون فى السعودية لهم رأى آخر ولهم خطة أخرى .

وعلى وجه القطع فهم لا يريدون كل ما أرادته القاهرة من وراء الدعوة إلى مؤتمرات القمة .

كل ما أرادته القاهرة من وراء مؤتمرات القمة لا يتفق مع مصالحهم بل يتصادم مع هذه المصالح .

لكنهم يواجهون مشكلة فى الجبهة التى يسيطرون عليها ويوجهونها .

قيادة جبهتهم المتمثلة فى الملك سعود . . . انهارت وضاعت .

وخطوطهم للهجوم وللدفاع معاً . . تمزقت وارتبكت !

* * *

فكرة المؤتمر من وجهة نظرهم فرصة لإعادة التفكير والتخطيط .

لا بد لهم من قيادة جديدة .

لا بد لهم من خطة جديدة .

وفى هذا يحتاجون – وقتاً على الأقل – إلى إعادة ترتيب الجبهة المتهاوية وإعدادها للتحرك مرة أخرى .

وكما جاء سعود إلى مؤتمر القمة الأول فى القاهرة بغير سلطة . .

جاء فيصل إلى مؤتمر القمة الثانى فى الإسكندرية بغير لقب .

لكن كسب الوقت مطلوب . .

مهما يكن فإنه بعد أسابيع قليلة من عودة فيصل من الإسكندرية أميراً ، كان كل شىء قد أعد لكى ينادى بفيصل فى الرياض ملكاً .

. . . . . .

. . . . . .

نمشى بعد ذلك خطوة أو خطوات تصل بنا إلى ما نحن فيه الآن فعلاً .

* * *

بعد المناداة بفيصل ملكاً فى الرياض تعاقبت الحوادث التالية :

١ – أحيط الملك بهالة واسعة من الدعاية المنظمة تبارت فى كسب عقودها المغرية بيوت العلاقات العامة فى نيويورك ولندن ، ونال بعض الصحف فى بيروت منها نصيباً لتكون هناك أصوات تدعو للملك باللغة العربية !

٢ – بدأ الصرف على بعض المشروعات فى السعودية لتوسيع قاعدة المستفيدين بأموال الشعب السعودى المستباحة – بصرف النظر عن جدية هذه المشروعات وجدواها .

٣ – زاد النشاط العدوانى فجأة وبغير مبررات ضد الأرض اليمنية ، وعادت محاولات التسلل ، وزادت تجمعات المرتزقة من بقايا المغامرين فى كاتنجا والفرقة الأجنبية ، وزادت عليهم عناصر معروفة باتصالها بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

٤ – بدأ الملك يدفع لجماعة الإخوان المسلمين بسخاء لكى تنشط فى مصر بالقنابل وبالمسدسات . . أو حتى بالخناجر إذا اضطرت إليها !

٥ – فى الدار البيضاء كان الملك وأصدقاء الملك حريصين على أن يمر بسرعة « ميثاق التضامن العربى » – كما أسموه – حصانة لكل رؤساء الدول العربية تمنع التعرض لأى منهم بهجوم ، تصريحاً كان أو تلميحاً .

٦ – بدأ الملك سلسلة زياراته المشبوهة ، تبدؤها زيارته لإيران فى شهر ديسمبر الماضى وتختمها زيارته لتونس فى شهر أغسطس المقبل .

٧ — دخل الملك طرفاً أصلياً فى مخطط استعمارى ظاهر يستهدف السيطرة على شبه الجزيرة العربية كلها بالتعاون الكامل مع الاستعمار البريطانى .

٨ — حاول الملك بكل جهده أن يؤثر على حركة التحرير فى الجنوب المحتل ، وأن يقسم هذه الحركة إذا استطاع لكى يبقى النفوذ البريطانى من خلال الملك بعد أن أصبح عسيراً عليه أن يبقى بواسطة الاحتلال العسكرى .

٩ — ظهرت فى غير خفاء دعوة الملك إلى حلف جديد يحقق أهداف حلف بغداد الذى تحطم فى بغداد ، وأهداف مشروع أيزنهاور الذى أريد به ترسيم سعود بابا للإسلام ، واختصر الملك فيصل طريق الحلف الجديد هذه المرة واستعار له من مذكرات أيزنهاور لقب الحلف الإسلامى .

١٠ — عقد الملك صفقة أسلحة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، صفقة أسلحة دفاعية غالية الثمن ليست لها فى الغالب قيمة أو فاعلية إلا أنها استعملت ستاراً لتغطية وتبرير صفقة أسلحة مع إسرائيل .

١١ — أعاد الملك فتح كل خطوط المواصلات المريبة مع عمان ، ابتداء من تجديد اتفاقية الطائف إلى غيرها مما لا أريد الخوض فيه الآن على الأقل !

١٢ — اشتدت الحملة ضد سوريا وتجمع ما بين الرياض وعمان كل الذين يخلفون بعد سقوط حلف بغداد وبعد سقوط حكم الانفصال الرجعى فى دمشق حفنة من الساسة الفاشلين والضباط المغامرين والتجار المفلسين يحلمون كلهم بالعودة إلى دمشق على جسر من الذهب السعودى أو يسرقون الجسر الذهبى ويذهب كل منهم إلى حاله بقطعة منه ولو من قبيل التذكار !

١٣ – والملك الآن فى طريقه إلى واشنطن حاجًّا إلى بيتها الأبيض بينما داوريات الطائرات الأمريكية من « قاعدة الظهران » والداوريات البريطانية من « قاعدة خميس مشيط » فى السعودية تحلق فى الأجواء وتحرس عرش الملك فى غياب الملك . . كما تحرسه فى حضوره !

* * *

وهل تتضح الصورة بهذا كله أو يظل فيها خفاء ؟ !

وهل تبقى بعدها قيمة لما يسمونه بجبهة العمل العربى الموحد ؟

ولست أتهم أحداً بأكثر مما يجوز أو يليق وإنما أعود إلى تركيز ما أريده فى عبارة واحدة :

إن الرجعية العربية تكره إسرائيل . . . لكنها تكره الثورة العربية أكثر !

* * *

أضيف بعد ذلك إنصافاً للكل وللتاريخ أن الثورة العربية فى هذه الفترة حققت هى الأخرى – إيجابيًّا – ما كان يساوى التضحية له والحرص عليه .

عززت أوضاع الدفاع العربى من حول إسرائيل بصرف النظر عمّا هو جار فى العواصم وراء الجبهات .

ثم مكنت لقيام منظمة تحرير فلسطين ، وجيش تحرير فلسطين .

وقبل ذلك أبرأت ذمتها وأجابت عن كل سؤال يمكن أن يهمس به الضمير القومى فى أعماقها . .

لكنه بعد ذلك ، لم يبق شىء يستحق التضحية أو يساوى الحرص على الاستمرار فى الطريق الملىء بالأشواك والألغام !

هكذا أتصور ! !

الفصل الحادى عشر

. . . وهبط الملك !

(١٧ يونية ١٩٦٦)

قبل يوم أو يومين ركب الملك فيصل طائرة محملة بطرود الهدايا ، وبالأمراء وبالمستشارين المرتزقة ، وبحملة السيوف المذهبة من العبيد ، ثم انطلق فى الأجواء قاصداً الولايات المتحدة الأمريكية يصل إليها بعد وقفة للراحة – تخفف عناء السفر – فى إسبانيا .

وعلى طول الرحلة من مدريد إلى واشنطن فإن الملك فيصل سوف يقضى قرابة عشر ساعات فى طيران متواصل ، يظل فيها معلقاً فى الجو بين السحب فوقه ومن حوله ، وبين المحيط ممتداً من تحته .

ولست أعرف كيف ينوى الملك أن يقضى ساعاته الطويلة فى الطائرة ، فالساعات فى الطائرات عادة تكون مقيدة وعاطلة ، يستعين المسافرون على قطعها بثلاثة : الطعام أو النوم أو القراءة .

والملك فيصل لا يأكل كثيراً لأن معدته لا تهضم ، وهو أيضاً لا ينام كثيراً لأن الأرق سبّاق إلى جفونه ، وتبقى القراءة من كل ما يستعان به على وقت السفر بالطائرات .

وفيما أعلم عن علاقة الملك بالقراءة فلست أظنه من أحبابها ، وإنما هو كاره لها ضمن ما يكره ، يعتبرها من المفاسد التى تفتح عقول الناس وعيونهم ، وتحرك فيهم مشاعر وحوافز خطرة !

* * *

ومهما تكن علاقة الملك بالقراءة فلسوف تبقى هى أهون الأضرار فيما يستطيع أن يقطع به ساعات السفر ؛ أهون من آلام المعدة ومن هواجس الأرق إذا هو جرب الأكل أو جرب النوم !

وعادة فى الطائرات فإن المضيفة تنتظر حتى تستوى الطائرة على خط سيرها فى الأجواء العالية ثم تحمل مجموعة كبيرة من المطبوعات تمر بها على المسافرين يمد كل منهم يده يختار منها ما يشاء .

وقد لا يكون من شأنى أن أتطفل على اختيار الملك وهو يمد يده ليأخذ شيئاً يقرؤه ، مع ذلك فإنى حقيقة أضن بساعاته الطويلة وسط السحب أن تضيع فى قراءة مجلة مصورة ملونة ، مهما كانت مسلية ومغرية .

من هنا فإنى أريد للملك — عن تقدير لوقته وقيمته — أن يقرأ ما يفيد ، لهذا أقحم نفسى فيما لا شأن لى به ، مقترحاً على الملك — بعد الإذن — ما قد تفيده قراءته فى ساعات الطائرة الطويلة بين السحب ، بينما هو فى الطريق إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

ولست أقصد إلى إرهاق الملك فإنى حريص على أن ينزل من الطائرة صافى المزاج ورائقاً ، متحرراً من الصداع على الأقل !

لذلك فإن ما أقترح عليه قراءته فى الطائرة ، على الطريق إلى واشنطن ، هو كراسة صغيرة من أربعين صفحة تجرى عليها العين فى ساعة زمان ليس أكثر !

الكراسة صادرة عن معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن ، برقم (٢٦) ضمن المجموعة التى يصدرها هذا المعهد باسم « أوراق أدلفى »

وتاريخ الكراسة هو مارس ١٩٦٦ وعنوانها هو « مصادر النزاع فى الشرق الأوسط » .

وكانت هذه الكراسة ضمن الوثائق التى قدمتها الجامعة العربية إلى لجنة تصفية الاستعمار التابعة للأمم المتحدة التى عقدت بعض جلساتها هذا الأسبوع فى القاهرة ، وإن كانت الجامعة العربية بحكم ولأنها الإدارى المتعدد الأطراف قصرت استشهادها بهذه الوثيقة الهامة على سطور قليلة تتعلق بسياسة بريطانيا فى الجنوب المحتل .

مع ذلك فإن الوثيقة فيها الكثير ، غير هذه السطور القليلة ، التى وضعت الجامعة العربية خطوطاً تحتها ، لكى تلفت إليها نظر لجنة تصفية الاستعمار .

تستحق الوثيقة كلها أن تقرأ .

وتستحق بالذات أن يقرأها الملك فيصل ، وأن يقرأها بالتحديد وهو فى طريقه إلى واشنطن فإنه لا شىء مثلها سوف يحدد له مكانه ، ويكشف له طريقه ، ويطلعه على ما يراه — أو ما لا يراه — من أبعاد الدور الذى يقوم به فى المخططات الاستراتيجية الغربية المرسومة للشرق الأوسط .

قراءة هذه الوثيقة ببساطة سوف تجعل الملك يعرف الموقع الذى سيهبط إليه عندما تتوقف طائرته فى مطار واشنطن فى نهاية طريقها الطويل بين السحب !

* * *

ما الذى تحكيه هذه الوثيقة التى أقترح على الملك أن يسلى نفسه بها ضد ملل رحلته الطويلة بالطائرة ؟

من عجب أن الوثيقة لا تجىء بحقيقة جديدة ، ولا تذيع سراً لم يصل إلى الأسماع قبلها .

لا تفعل شيئاً من هذا، ولا تحاوله ، وإنما تقصر اهتمامها على تقديم تصور استراتيجى كامل لسياسة الغرب فى المنطقة وخططه من أجل ذلك، وأهدافه التى يبغى تحقيقها !

وأقول مقدماً إننى لا أنوى تلخيص الوثيقة وإنما محاولتى هى عرض الخطوط الرئيسية فيها وإظهار التلميحات المدفونة بين سطورها وتحت السطور !

* * *

تبدأ الوثيقة بتحديد لمصالح الغرب عموماً فى الشرق الأوسط :

١ ــ الشرق الأوسط هو الطريق الاستراتيجى الحيوى للمواصلات بين الشرق والغرب ، كان كذلك فى كل العصور ، ومهما كان من تقدم العلم فى العصر الحديث فإن ذلك لا يلغى ولا يؤثر فى دور الشرق الأوسط من هذه الناحية : سوف تبقى ممراته الجوية والبحرية أسرع المسالك بين الغرب والشرق .

٢ ــ يضاف إلى ذلك فى الزمن القريب ما تفجر من باطن الشرق الأوسط من ثروات بترولية خيالية ، لها كل الأهمية كطاقة محركة فى حياة الغرب وحضارته ، فضلا عن الثروة التى تعود عليه من احتكار امتيازاتها .

٣ ــ يترتب على المصلحتين السابقتين أن يحقق الغرب لنفسه فى المنطقة نفوذاً سياسيًّا يستند على قوى محلية تصبح فى حد ذاتها تبعاً لذلك جزءاً لا يتجزأ من مصالح الغرب ثم تدعم هذا كله فى النهاية قوة عسكرية قادرة عند الاقتضاء .

* * *

وتنتقل الوثيقة بعد ذلك من هذا التمهيد العام إلى تفصيل مخصص للمصالح الغربية الكبرى .

بريطانيا :

* أكثر احتياجاً للشرق الأوسط كطريق استراتيجى عالمى وذلك بحكم روابطها المختلفة بشرق أفريقيا ، وبآسيا ، وبأستراليا ، كما أن خمس التجارة الخارجية لبريطانيا لا بد له من عبور قناة السويس لكى يصل إلى المشترين .

* أكثر اهتماماً ببترول الشرق الأوسط ، فهى تملك وحدها ثلث موارده كلها ، وتستعمل الآن سنوياً ٧٠ مليون طن تتوقف بدونها كل مظاهر الحياة فى الجزيرة البريطانية وسوف تزيد هذه الكمية المطلوبة لبريطانيا من بترول الشرق الأوسط إلى ٢٠٠ مليون طن سنوياً فى ظرف عشرين سنة فضلاً عن أرباحها الطائلة من عملياته المتعددة .

* وبالتالى فلقد كانت أكثر اتصالاً بعملية تأمينه عن طريق النفوذ السياسى والارتباط بالقوى المحلية الموالية والوجود العسكرى .

الولايات المتحدة الأمريكية :

* الشرق الأوسط له أهميته بالنسبة لها كطريق استراتيجى عالمى للمواصلات فضلاً عن أن قناة السويس أقصر طريق بحرى بين الأسطول الأمريكى السادس أقوى مظاهر الوجود العسكرى الأمريكى فى البحر الأبيض والمناطق المطلة عليه ، وبين الأسطول الأمريكى السابع أقوى مظاهر الوجود العسكرى الأمريكى فى المحيط الهندى وبحار الصين والمناطق المطلة عليها .

* الولايات المتحدة الأمريكية تملك وحدها ٥٣٪ من موارد البترول

فى الشرق الأوسط ، وهى لا تعتمد عليه الآن فى احتياجاتها الخاصة ولكن أرباحها من عملياته طائلة ، وهى على أى حال سوف تحتاج إلى استعمال الكثير منه فى المستقبل ، فالتقدير أنه فى العشرين سنة القادمة سوف يزيد استهلاك البترول فى الولايات المتحدة على إنتاجها منه بما مقداره ٢٦٠ مليون طن كل سنة .

* وبالتالى فإن الولايات المتحدة وافد جديد يسابق بريطانيا ويحل محلها فى الاهتمام بتأمين المنطقة عن طريق النفوذ السياسى والارتباطات المحلية والوجود العسكرى .

ويزيد من اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الأوسط عامل آخر ليس موجوداً فى حساب بريطانيا ، وهو الصراع بين الدولتين « الأعظم » فى الواقع الدولى المعاصر : الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

تنتقل الوثيقة إلى تركيز أشد على نقطة « تأمين » الشرق الأوسط لمصالح الغرب فتعرض لجانبى المشكلة فى هذه النقطة وهما جانب الخطر وجانب الدفاع .

● على جانب الخطر : بصفة عامة فإن كل من يجد لنفسه مصلحة فى أى مكان يهمه أن يحصل على هذه المصلحة وأن يمنع غيره من الحصول عليها .

والخطر فى حالة الشرق الأوسط من مصدرين :

* مصدر خارجى : هو الاتحاد السوفييتى فى الوقت الحاضر وهو إن كان لا يعلق أهمية كبيرة من وجهة نظر مصالحه الخاصة على الشرق الأوسط كطريق للمواصلات ، وإن كان لا يملك شيئاً من بترول الشرق الأوسط ولا يحتاج إليه ، لأن ما عنده من البترول يكفيه — فإنه يهم

بالشرق الأوسط استراتيجياً لأن الشرق الأوسط جغرافياً ملاصق لحدوده، ممتد وراء ظهره تماماً .

فضلاً عن ذلك فهو باعتباره إحدى الدولتين « الأعظم » فى العالم المعاصر يدخل مع الدولة الأخرى – الولايات المتحدة – فى صراع متعدد الميادين . . . الشرق الأوسط أحدها بالطبيعة .

* مصدر داخلى : يتحقق خطره حين تحاول إحدى دول المنطقة أن تقاوم النفوذ الغربى فى المنطقة وأن تتعدى حدودها بعمل سياسى أوعسكرى ، وفى هذه المنطقة استعرضت الوثيقة دول الشرق الأوسط القادرة على تعدى حدودها بعمل سياسى أو عسكرى . وفى رأى الوثيقة أن دولتين اثنتين فى المنطقة تقدران على ذلك يقيناً هما : تركيا والجمهورية العربية المتحدة ، كما أن هناك دولة ثالثة قد تستطيع ذلك فى ظروف معينة وبقدرة محددة وهى إسرائيل !

● على جانب الدفاع : وقد تطرقت إليه الوثيقة بعد الخطر فإن هناك حساباً لكل احتمال :

* ضد الخطر الخارجى : هناك روادع كثيرة منها الأحلاف العسكرية فى المنطقة والوجود العسكرى المتمثل فى القواعد البريطانية والأمريكية المستقرة فى أكثر من بلد فى الشرق الأوسط والأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض المتوسط .

قبل ذلك فهناك ميزان الرعب النووى الذى يفرض على الدولتين « الأعظم » فى عالمنا المعاصر التزام الاحتراس والحذر .

* ضد الخطر الداخلى : هناك الأحلاف العسكرية وقواعدها وهناك الأسطول الأمريكى السادس ، لكن المشكلة أن استعمال القوة العسكرية

السافرة لأية عملية إخضاع داخلى فى الشرق الأوسط ، القابع وراء ظهر الاتحاد السوفييتى ، قد تفتح باباً مظلماً لمواجهة لا يمكن حساب تطوراتها أو عواقبها بين الدولتين «الأعظم» ، وإذن فإن الإخضاع العسكرى السافر مستبعد .

تبقى أساليب أخرى للعمل السياسى والاقتصادى يمكن أن تدعمها القوة العسكرية بطريقة غير مباشرة وغير سافرة وذلك عن طريق :

١ – تدعيم النظم الحاكمة فى البلاد التى تقع فيها المصالح الاستراتيجية الهامة للغرب ، وحمايتها بكل الوسائل .

٢ – اجتذاب أكبر عدد من الدول القادرة على العمل من الداخل إلى فلك التعاون مع الغرب ، وقد تم ذلك بالنسبة لتركيا التى تشترك فى اثنين من أحلاف الغرب هما الحلف المركزى للشرق الأوسط والحلف الأطلسى لأوربا – ذلك أيضاً محقق بالنسبة لإسرائيل التى تقدر الوثيقة أن لها قدرة على العمل فى ظروف معينة وبقدرة محددة ، ذلك لأن إسرائيل لا تستطيع بغير الغرب أن تعيش . . . فضلا عن أن تكون مصدراً للخطر يهدد مصالحه .

٣ – محاصرة النظم التى تصر على التمرد وتكون لها قدرة عليه ، وفى حالة الشرق الأوسط وبكل المواصفات التى تذكرها الوثيقة فإن دولة واحدة فيه تبقى فى النهاية مصدراً للخطر وهى : الجمهورية العربية المتحدة .

* * *

قسم العرض فى الوثيقة – على حد تعبير نقاد الموسيقى – انتهى كله إلى هذه النقطة :

الجمهورية العربية المتحدة هى مصدر الخطر الأساسى على مصالح الغرب فى الشرق الأوسط .

ويزيد من هذا الخطر ويضاعف من حدته عدة أسباب :

١ – أن الجمهورية العربية المتحدة – بدعوة الحرية العربية والوحدة العربية – قد اكتسبت نفوذاً سياسياً واسعاً يتخطى حدودها فى منطقة الشرق الأوسط .

٢ – أن الجمهورية العربية المتحدة قد تمكنت من بناء جيش قوى يستطيع العمل خارج أراضيها كما أثبتت تجربة اليمن .

٣ – أن الجمهورية العربية المتحدة استطاعت أن تقيم صداقة مع الاتحاد السوفييتى زادت من اهتمامه بما يجرى فى المنطقة الواقعة وراء ظهره مباشرة !

معنى ذلك أن الجمهورية العربية المتحدة ليست الخطر فقط ولكنها الخطر الذى يتفاقم .

معنى ذلك أيضاً أن الجمهورية العربية المتحدة هى الخطر الذى يتحتم وقف انتشاره ثم ضرب مركزه .

* * *

الوثيقة تصل إلى ذلك أيضاً ، تبحث الوسائل التى يمكن بها وقف انتشار الخطر ، وتمضى بعد ذلك إلى الوسائل التى يمكن بها ضرب مركزه .

● فى مجال وقف انتشار الخطر فإن هناك ما يلى :

* القواعد العسكرية الباقية للغرب فى المنطقة قادرة على تحديد خطى الجمهورية العربية المتحدة خارج حدودها ، لكن هناك مشكلة على الطريق هى اضطرار بريطانيا إلى الجلاء عن قاعدة عدن بسبب عجزها عن مقاومة الثورة فى كل الجنوب المحتل ، وخروج بريطانيا عسكرياً من هذه المنطقة ، مع استمرار وجود الجيش المصرى فى اليمن معناه أن الجمهورية

العربية المتحدة قادرة على التأثير المباشر فى شبه الجزيرة العربية وفى الخليج العربى ، وهذه مشكلة الساعة .

وإذن يتحتم ممارسة كل ضغط على مصر حتى تنسحب برغم إرادتها من اليمن .

وفى الوقت نفسه لا بد من تدعيم إضافى للقوى المحلية التى تستطيع مقاومة أى عمل مصرى .

وأهم هذه القوى الملك فيصل وسلاطين الجنوب ومشايخه ممن يرضون بالتعاون لملء الفراغ الناجم عن انسحاب بريطانيا العسكرى من المنطقة وفى الوقت نفسه لا يمكن لهم بالطبيعة أن يستغنوا عن التعاون معها وعن مساندتها لهم .

هذه بالنسبة للجنوب .

وأما بالنسبة للخليج فإنه من الضرورى توثيق عرى تعاون وثيق بين الملك فيصل وبين شاه إيران ومعهما الكويت — إذا أمكن — لتكوين جبهة بترولية غنية تقدر على الصمود .

* إنه لا بد بعد ذلك من عزل مصر وتقليص نفوذها السياسى فى المنطقة .

ولكن التجارب السابقة أثبتت أنه لا يمكن عزل مصر وتقليص نفوذها داخل إطار عربى .

* فى الإطار العربى الرسمى : وهو الجامعة العربية فإن مصر أقوى دول الجامعة وبدونها لا تكون هناك جامعة .

* وفى الإطار الشعبى : وهو حركة الشعوب العربية فإن مصر الثورة هى موضع الثقة من كل الشعوب وتجربة حلف بغداد أظهرت على أى

حال أن شعبية مصر الثورة استطاعت أن تجرف أمامها كل القوى التقليدية فى العالم العربى .

وإذن فإنه لا بد من البحث عن إطار آخر تجدى فيه عملية عزل مصر وتقليص نفوذها السياسى ، والإطار الوحيد المحتمل لهذه العملية هو الإطار الإسلامى الذى يمكن أن تذوب فيه حركة القومية العربية وتضيع فيه قوة اندفاعها الخاصة ، وهذا إطار يمكن أن يتصدى له ملوك السعودية ، باعتبارهم « حماة الأماكن الإسلامية المقدسة » ومن ناحية أخرى فإن هذه العملية لا بد أن تجرى بسرعة وأن تتم فى حياة الملك فيصل لأنه أقوى الأحياء من آل سعود ، ولأنه — على حد تعبير الوثيقة حرفياً — « لا يبدو أن هناك فيصلا آخر ينتظر الآن فى الأروقة ! »

● وفى مجال ضرب مركز الخطر فإن الإشارات فى الوثيقة واردة على أكثر من صفحة :

* الضغط الاقتصادى لتأزيم مشاكل التنمية .

* محاولة بعث جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من الجماعات السياسية التى ظهرت فى مصر قبل الثورة .

* مداعبة الأحلام بإمكانية وقوع انقلاب عسكرى فى مصر .

والمذهل والمحزن معاً أن الوثيقة تخرج من ذلك كله إلى استبعاد أى أمل حقيقى فيه ، وتصل بعده إلى أن الأمل الكبير الذى يصون مصالح الغرب فى المنطقة ويدافع عنها ، ويؤمن أصدقاء الغرب جميعهم ويحميهم ، هو : « أن يحدث شىء لجمال عبد الناصر وأن يقع بعده صراع على السلطة تسقط به مصر فى بحر من الظلمات ، ومعها الحركة الثورية للشعوب العربية وآمالها ومطامحها الواسعة » .

هكذا بغير خفاء . . بغير طلاء !

* * *

وطائرة الملك فى الانتظار لكى تحمله إلى واشنطن مع طرود الهدايا ومع الأمراء ومع المستشارين المرتزقة ومع حملة السيوف المذهبة من العبيد .

وأغلب الظن أن الملك لن يقرأ شيئاً فى الطائرة ، لأنه ليس من أحباب القراءة ، والأرجح أن يقضى الملك ساعات الطائرة الطويلة محملقاً فى السحب الداكنة بأشكالها الهيولية تتداخل وتتصادم مع بعضها البعض تعكس ظلالا مما يحتدم فى مزاجه النفسى !

ولن يقرأ الملك هذه الوثيقة التى اقترحت عليه أن يسلى نفسه بها لكى يعرف منها مكانه ويستكشف طريقه ويطلع على أبعاد الدور الذى يقوم به فى المخططات الاستراتيجية الغربية المرسومة للشرق الأوسط .

مهما يكن فلربما كان الملك يعرف بدون حاجة إلى أن يقرأ ولو ليستعين بالقراءة على ساعات السفر الطويل عبر الأطلسى !

ثم تدخل طائرة الملك إلى أجواء أمريكا متجهة إلى واشنطن ثم تنزل به فى مطارها ، ويهبط الملك منها إلى بساط أحمر يقوده إلى أحضان ليندون جونسون تنطبق عليه : لهفة وشوقاً ! !

الفصل الثانى عشر

رسالة إليه فى واشنطن !

(٢٤ يونية ١٩٦٦)

يا صاحب الجلالة :

ربما كان الوقت قد فات ، ولم تعد لهذه الرسالة إليك فائدة ، بعد أن وصلت بالفعل إلى واشنطن وقضيت فيها ثلاثة أيام حتى الآن قلت فيها كل ما تريد أن تقوله . . . وانتهت المسألة !

وربما كان الوقت لم يفت ، وما زالت هناك فرصة متاحة قبل الساعة الرابعة والعشرين ، فإن أمامك عدة أيام تقضيها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد تستطيع — يا صاحب الجلالة — أن تستدرك وأن تصحح !

ومهما كان من رأينا فيك هنا ، فأنت هناك منا : عربى محسوب علينا ، منسوب إلينا ، وبالتالى فإن النصيحة لك واجبة بالحق ، وهى أيضاً واجبة بالشرع من قاعدة : أن الدين النصيحة — حتى وإن كنا نعرف سلفاً أنك قد تلقى بها إلى قاع « البوتوماك » النهر السريع الجريان على حافة واشنطن والذى عبره موكبك مراراً بغير شك فإن وزارة الخارجية الأمريكية تقع على ضفة منه ، بينما تقع وزارة الدفاع الأمريكية « البنتاجون » على ضفته الأخرى !

* * *

إن مصادر الأنباء — سواء من الرياض أو من واشنطن — أجمعت كلها — يا صاحب الجلالة — فى الأيام التى سبقت رحلتك إلى الولايات المتحدة ، كما فى الأيام الأولى من هذه الرحلة أن هناك موضوعين يشغلان بالك أكثر من غيرهما وأنك تعطيهما الأسبقية العاجلة فيما تريد أن تتحدث فيه مع الرئيس الأمريكى ليندون جونسون :

الموضوع الأول : ماتظنه من خطر الشيوعية والتوغل السوفييتى فى الشرق الأوسط والشرق العربى بالذات .

والموضوع الثانى : ما تطلبه من ضمان ضد الجمهورية العربية المتحدة إذا وقع بينك وبينها صدام على حدود اليمن .

ويا صاحب الجلالة : صدقاً وشرفاً فإن هذين الموضوعين هما آخر ما ينبغى لك أن تتحدث فيه أوحتى تشير إليه ؛ كرامة لك وللعرب !

* * *

وبالنسبة للموضوع الأول ، فهل يقبل — ياصاحب الجلالة — أن قلعة الرأسمالية فى العالم لم تكن تنتظر إلا سيداً بعباءة هفهافة وعقال من ذهب قادماً من الرياض ليلفت نظرها إلى خطر الشيوعية فى منطقة من أهم مناطق العالم وأكثرها حساسية بالنسبة لها ؟

أليس ذلك تجاوزاً ؟ أوَليس دفعاً للأمور وراء حدودها المنطقية والمعقولة ؟

وهل يقبل — ياصاحب الجلالة — أن قيادة المعسكر الغربى فى واشنطن لم تكن تنتظر إلا السيد نفسه ليلفت نظرها إلى خطر توغل الاتحاد السوفييتى واقترابه من الممرات الاستراتيجية الحيوية للشرق الأوسط ومن منابع بتروله الخيالى ؟

أليس ذلك — مرة أخرى — تجاوزاً ؟ أوليس دفعاً للأمور وراء حدودها المنطقية والمعقولة ؟ !

من ناحية الخطر المتوهم عقائدياً — انتشار الشيوعية — فلا شك أن الولايات المتحدة تعرف عن الواقع أكثر مما تعرف أنت .

ومن ناحية الخطر المتوهم سياسياً — توغل الاتحاد السوفييتى — فلا شك أن الولايات المتحدة تعرف أيضاً عن الواقع أكثر مما تعرف أنت .

هذه ملاحظة عن شكل الموضوع . . . قبل الموضوع نفسه — يا صاحب الجلالة .

* * *

والموضوع نفسه له تاريخ طويل ، وهم فى واشنطن يعرفونه ويذكرون وقائعه ، وقد يستطيع بعضهم أن يساعدك فى ترتيب مراحله — إذا ما سألتهم يا صاحب الجلالة :

١ — التخويف بالخطر الشيوعى حكاية قديمة بدأت حتى من قبل الثورة العربية سنة ١٩٥٢ ، ويمكن لهذه الحكاية أن تدخل التاريخ باعتبارها أشهر قصص النفاق السياسى فى العصر الحديث ، فلقد كان الحلفاء، والولايات المتحدة وبريطانيا بالذات هم الذين فتحوا أبواب الشرق الأوسط الواقع تحت السيطرة الغربية الكاملة وقتها أمام الاتحاد السوفييتى عندما كان حليفاً لهم فى الحرب العالمية ضد الرايخ الألمانى الثالث .

وربما لم تنس — ياصاحب الجلالة — أن قاعدة الظهران فى المملكة العربية السعودية بالذات كانت أهم قواعد نقل المساعدات العسكرية الأمريكية إلى الاتحاد السوفييتى ، وأكثر من ذلك كانت هناك بعثة عسكرية سوفييتية مقيمة فى قاعدة الظهران تراقب وتساعد فى عمليات النقل السريع !

ووقتها لم تطرح مشكلة وجود ملحدين سوفييت على أرض الأماكن

الإسلامية المقدسة ولا غضبت لها العقالات الذهبية على رءوس ملوك السعودية وأمرائها !

تغير الموقف الآن وأصبح وجود عدد من الخبراء السوفييت جاءوا إلى سوريا لدراسة مشروع سد الفرات والمساعدة فى تمويله توغلا سوفييتياً لا يطاق .

أليس ذلك نفاقاً سياسياً ليس له نظير يا صاحب الجلالة ؟

أو ماذا هو ؟

تحالفت أمريكا فتحالفتم ، وجاءت البعثات السوفييتية العسكرية وأقامت وعملت فى مطار الظهران دون أن تثور مشكلة الإلحاد السوفييتى ، ثم تخاصمت أمريكا فتخاصمتم وفجأة ثارت مشكلة الإلحاد السوفييتى !

إن صيحة التخويف بالخطر الشيوعى الموهوم ، منذ بدأ إطلاقها – يا صاحب الجلالة – لم تكن إلا نداء بالتجمع لكل القوى الخائفة من التغيير فى المنطقة ، الخائفة من التغيير السياسى والاجتماعى ، أى الاستعمار والرجعية !

٢ – بعد أن بدأت الثورة العربية من أجل التغيير السياسى والاجتماعى سنة ١٩٥٢ ، فإن القاهرة مركز هذه الثورة تعرضت لتجربة حافلة أمام حكاية الخطر الشيوعى : غواية وتخويفاً !

إن القاهرة – يا صاحب الجلالة – عرض أمامها – ورفضت – كل ما يتصور الملوك وعبيدهم – أحياناً – أنها تشعر بالغيرة منه !

إن الغرب لجأ إلى القاهرة يعرض عليها قبل غيرها مشروعه للدفاع عن الشرق الأوسط ، وبرغم أن القاهرة كانت وقتها مشتبكة مع بريطانيا فى مفاوضات معقدة من أجل الجلاء فإنها رفضت المشروع الغربى المقترح للدفاع عن الشرق الأوسط .

وحين جاء جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إلى زيارة للقاهرة سنة ١٩٥٣ فلقد دار بينه وبين جمال عبد الناصر حوار ممتع حول حكاية الخطر الشيوعى والتوغل السوفييتى .

تحدث دالاس عن ضرورة الدفاع عن الشرق الأوسط ، ورد جمال عبد الناصر بأنه يوافق فعلا على أن الشرق الأوسط يحتاج إلى مشروع للدفاع .

وتفاءل دالاس من مدخل الحديث وقال إنه سعيد بأن يجد إدراكاً لدى القيادة المصرية الجديدة لخطر الشيوعية والتوغل السوفييتى .

وفوجئ دالاس بجمال عبد الناصر يقول له :

« أعتقد أننا نختلف هنا فى وجهات نظرنا حيال مشكلة الدفاع عن الشرق الأوسط . عندما نتحدث عن الدفاع فمن الضرورى أن نحدد الخطر الذى ندافع ضده ، ولقد سمعتك الآن تحدد هذا الخطر على أساس أنه الشيوعية والاتحاد السوفييتى وهنا اختلف معك من درس تجربتنا الذاتية . إن الخطر الذى تتحدث عنه أنت لم يكن هو الذى احتل أرضنا وتمركز عنوة فى أجزاء منها . . .

نحن نرى الخطر من الاستعمار ومن إسرائيل . ولقد يحدث فى المستقبل أن تصبح الشيوعية والاتحاد السوفييتى خطراً ، لكن ذلك لم يتحقق حتى الآن ، ولا يبدو لنا محتملا فى المستقبل ، وحتى إذا كان محتملا فنحن لا نستطيع أن نتغافل عن الخطر الواقع فعلا لنجرى وراء الخطر الذى قد يجىء فى يوم من الأيام .

لهذا فنحن نعتقد أن الدفاع المطلوب عن الشرق الأوسط ، وعن

الشرق العربى بالذات لا بد أن يكون دفاعاً وطنياً وقومياً بالدرجة الأولى، يتخلص من الخطر الواقع ثم يكون بعدها مستعداً لأى خطر محتمل ! »

وبعد سنة — من هذا الحديث — قبلت الأسرة الهاشمية فى بغداد سنة ١٩٥٤ ما رفضته القاهرة الثورة من قبل وقام حلف بغداد ليسقط فى بغداد ذاتها بعد أربع سنوات وتسقط معه الأسرة الهاشمية التى قبلته !

والحلف الإسلامى — يا صاحب الجلالة — نفس الشىء ، فلقد كان هناك فى واشنطن وفى لندن من انتهزوا إشارة جمال عبد الناصر فى كتابه فلسفة الثورة إلى الدائرة الإسلامية وضرورة الاهتمام بها ثم تقدموا إلى القاهرة ووراءهم باكستان وتركيا فى ذلك الوقت يعرضون فكرة حلف إسلامى ، وكانت وجهة نظر القاهرة بالقطع والوضوح كلهما : أن الإسلام لا يمكن أن يستغل سلاحاً فى الحرب الباردة أو الحرب الساخنة بين واشنطن وموسكو ، أو بين واشنطن وبكين . .

واقد ظلت الفكرة معلقة — يا صاحب الجلالة — حتى زيارة شقيقك الملك سعود لواشنطن فى سنة ١٩٥٧ فى ظروف شديدة القرب والشبه بزيارتك لها هذه الأيام .

وعرض أيزنهاور فكرة الحلف الإسلامى عليه بوحى من وزير خارجيته دالاس ، كما يروى أيزنهاور نفسه فى مذكراته .

ومرت سنوات قليلة أخرى وسقط سعود وسقطت معه خطط الحلف الإسلامى ، لكن الذين انتزعوا اللقب من سعود وهو ملقى على الأرض انتزعوا أيضاً من ركام سقوطه فكرة الحلف الإسلامى وسلموها لك مع اللقب يا صاحب الجلالة .

٣ — عندما بدأت فى مصر سياسة عدم الانحياز — يا صاحب

الجلالة — كان تصوير هذه السياسة وكأنها استسلام للشيوعية وللاتحاد السوفييتى .

وكانت السياسة الأمريكية تقول وقتها — وتردد وراءها حفنة ملوك الشرق الأوسط — بالضيق ونفاد الصبر :

— ليس فى العالم غير كتلتين . . . الغرب والشرق ، وإذا لم تكونوا مع إحداهما فأنتم مع الأخرى !

وحين كانت القاهرة ترفض هذا القدر الأمريكى الجبرى المفترض وتقول :

— نحن مع استقلالنا ، ونحن مع رأينا الحر فى كل قضية ، وبغير التزام مسبق إلا بالمبادئ وحدها ، وهذا هو مفهومنا لعدم الانحياز . . .

حين كانت القاهرة تقول ذلك كانت تتهم من السياسة الأمريكية — ووراءها حفنة الببغاوات المتوجة — بأنها تفتح باب الشرق الأوسط للشيوعية ولتوغل الاتحاد السوفييتى .

٤ — بعد كسر احتكار السلاح وبعد أن عقدت مصر صفقتها الشهيرة مع الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٥٥ زادت حرب الأعصاب عليها .

وارتفعت الأصوات من واشنطن ولندن ومن عدد من العواصم العربية تقول إن السلاح الشيوعى الملحد لا يمكن أن يخدم أمل العرب .

وكان رد القاهرة وقتها بسيطاً وصادقاً :

إن السلاح ليس بمصدره ولكن السلاح بهدفه !

وفى ذلك الوقت وصل إلى القاهرة — يا صاحب الجلالة — رسل كثيرون أدركوا أن نغمة شيوعية السلاح وإلحاده لا تقنع ، فلجأوا إلى

التخويف من التعاون أساساً مع الاتحاد السوفييتى وكان بين ما قالوه فى القاهرة :

اذكروا ماذا حدث فى تشيكوسلوفاكيا ، إن «جان مازاريك» تعاون مع الشيوعية وسقط الستار الحديدى على تشيكوسلوفاكيا !

وكان الرد من القاهرة – ياصاحب الجلالة – على هذه النقطة هو :

« لسنا على استعداد للدخول فى مناقشة عما جرى ويجرى فى تشيكوسلوفاكيا ، نحن نعرف شيئاً واحداً ، نعرف أن لنا استقلالا ، ونعرف أننا حريصون عليه ، ونعرف أننا الأقدر على حمايته .

واسمعوا أيضاً – كذلك قيل لهم وقتها يا صاحب الجلالة – نحن الآن فى عالم مختلف بحكم موازين القوى الذرية ، لم يعد ممكناً فى هذا العصر غزو بلد من خارج حدوده ، من الآن وحتى تتغير الظروف العالمية ، فإن الغزو الخارجى سوف يكون موجهاً إلى الجبهات الداخلية لأوطان الشعوب ، وخط الدفاع الصلب والوحيد عن الجبهة الداخلية فى أى وطن هو الوطنية ، والوطنية هى أقوى التيارات التاريخية المؤثرة فى عصرنا ، والاستقلال هو عصب الوطنية وعمودها الفقرى » .

٥ – فى السويس – يا صاحب الجلالة – أكدت مصر صدق هذه النظرة وأصالتها .

ولقد يختلف أساتذة التاريخ من هنا وإلى الأبد حول أى العوامل المساعدة أدى دوراً أكبر من الآخر فى وقف العدوان : الأمم المتحدة مثلا أم الإنذار السوفييتى أم غيرهما من العوامل .

لكنه – حتى تلامذة التاريخ – لا يختلفون فى أن القوة الأساسية التى دحرت العدوان هى صمود الوطنية المصرية .

ولو سقطت الوطنية المصرية أمام مفاجأة الهجوم الثلاثى — وبين أطرافه بريطانيا وفرنسا — لما كان لأى عمل تقوم به الأمم المتحدة ، أو لأى إنذار يوجهه الاتحاد السوفييتى أى أثر أو فاعلية ، إلا ما يمكن أن تحدثه عبارات الرثاء شعراً أو نثراً لا أكثر ولا أقل !

وخلال العدوان ومن بعد العدوان فإن موقع الوطنية كان أقوى المواقع التى استحكمت مصر فيها دفاعاً عن النفس .

وكان بين خطط العدوان أن تجد مصر نفسها مرغمة على طلب العون من الاتحاد السوفييتى وحده ولكن مصر وجهت نداءها إلى كل أصدقاء الحرية وأحبابها فى العالم كله .

وكان من خطط دالاس بعد العدوان ، وبقصد تحقيق أهدافه بوسائل تختلف ، أن يدفع مصر دفعاً إلى التخلى عن عدم الانحياز وأن يرغمها على أن تطلب الأمان تحت مظلة الاتحاد السوفييتى — يقصد بذلك أن يصل إلى عزلها وفصلها عن القوى القومية العربية — لكن ذلك ما لم تسمح به مصر برغم كل متاعب الحصار السياسى والاقتصادى والنفسى .

٦ — حتى عندما وقع الخلاف المشهور بين الجمهورية العربية المتحدة وبين الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٥٩ ، فإن الجمهورية العربية المتحدة صممت على أن تواجه هذا الخلاف من تحت راية القومية العربية وحدها .

ولقد رفضت الجمهورية العربية المتحدة — مهما كانت المغريات — أن تحارب هذه المعركة جنباً لجنب مع الغرب ، كذلك رفضت أن تستدرج إلى الوقوف فى مواقع العداء للشيوعية إطلاقاً أو فى مواقع العداء للاتحاد السوفييتى تعصباً يصيب نفسه بالعمى !

لقد كان المعيار الوطنى والقومى ، هو المعيار الوحيد الذى حدد للقاهرة مدى رد فعلها ضد ما اعتبرته وقتها خطأ من موسكو فى حقها .

٧ — وعندما صدرت قوانين يوليو الاشتراكية ، وما لحق بها من تغييرات اجتماعية حاسمة ، تضع الإنتاج تحت سيطرة الشعب ، وتؤكد الديمقراطية لتحالف قواه العاملة وتربط ما بين السياسة والاقتصاد ربطاً سليما وأصيلا . . فلقد ارتفعت الصيحات فى عدد من عواصم الغرب الموجهة وعدد من عواصم الشرق التابعة ، تصرخ بأن التطبيق الشيوعى قد بدأ فعلا فى مصر وبأن طلائع الإلحاد أهلت لأن التعرض لإعادة تقسيم الثروة هو تعرض لإرادة مقسم الأرزاق ومشيئته !

وهل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً — يا صاحب الجلالة — فى النصف الثانى من القرن العشرين ؟

هل هى إرادة مقسم الأرزاق ومشيئته أن يحصل ملك السعودية على مرتب سنوى قدره عشرون مليون جنيه استرلينى ؟

وهل هى إرادة مقسم الأرزاق ومشيئته أن يشترى ملك السعودية الحالى تنازل شقيقه ملك السعودية السابق المعزول بمرتب سنوى قدره عشرون مليون جنيه له هو الآخر ؟ !

وهل هى إرادة مقسم الأرزاق ومشيئته أن يولد الأمير من آل سعود — وما أكثر عددهم — فيصدر المرسوم الملكى فى اليوم نفسه بتحديد مرتب له ؟ !

لا يمكن أن تكون تلك هى إرادته — يا صاحب الجلالة — فإن إرادته هى العدل ، وأما ما يجرى الآن فهى إرادة الاستعمار وإرادة الاستغلال ، ولا بد من كسرها .

ولن يعطل ذلك أن يلقاك « ليندون جونسون » فى واشنطن بالأحضان ، ولا بأن يبايعك « دين راسك » بزعامة العالم الإسلامى ، ولا بأن يبيعك « روبرت ماكنمارا » أسلحة أمريكية فقدت جدتها ، ولا بأن تسبغ حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كلها ، ظلها عليك رعاية وحماية !

لا يفيد شىء من ذلك — يا صاحب الجلالة — يقولها لك أى إنسان يشعر بكرامة الإنسان ويدرك أن الحرية الحقيقية اقتصادية كما هى سياسية !

٨ — ولقد تكرر الصراخ مرة أخرى ، أشد وأعلى — يا صاحب الجلالة — حين أفرج عن الشيوعيين فى مصر قبل صدور الدستور وقبل اجتماعات مجلس الأمة سنة ١٩٦٤ .

إن مجتمع الثورة المصرية — يا صاحب الجلالة — لجأ مضطراً إلى اعتقال الشيوعيين فى مرحلة حرجة من تطوره ، عجزوا عجزاً فادحاً عن تقييمها وتقديرها على نحو وطنى سليم .

لكن ذلك لا يمكن أن يكون قاعدة أو سياسة ثابتة .

إن أى مجتمع يبغى الحرية — يا صاحب الجلالة — لا بد له أن يعيش مع كل الآراء وأن يناقشها وأن يصارعها فكراً واجتهاداً .

لا يستطيع أى مجتمع من المجتمعات أن يقول بالحرية ثم يعتقل الفكرة . . . أى فكرة !

واسألهم فى واشنطن — يا صاحب الجلالة — : هل يعتقلون الشيوعيين عندهم ؟ واسأل أصحابك الإنجليز أيضاً ، واسأل غيرهم من أصدقاء العالم المتحضر الذين يرحبون بك إذا رحبوا وفوداً لحضارتهم ، ولكنهم

لا يقبلونك زميلا فى هذه الحضارة ، وتلك هى الحقيقة المؤلمة يا صاحب الجلالة .

اسألهم – يا صاحب الجلالة – هل يعتقلون الشيوعيين ؟

لا أحد – ياصاحب الجلالة – فى أى بلد متحضر يفعل ذلك ، وإذا قضت به الضرورة يوماً فذلك استثناء يقبل لمرحلة – وإذا قبل فعلى كره ، لأن المجتمعات الحرة – يا صاحب الجلالة – تقوى بتفاعل الأفكار بل صراعها ، والمجتمعات التى يفرض عليها الحجر الصحى تبقى معلولة تهددها أى نسمة هواء !

ولقد فتح المجتمع المصرى نوافذه للأفكار كلها بغير خوف – يا صاحب الجلالة .

واسألهم فى واشنطن مرة أخرى .

قد يكرهون ما قمنا به – ياصاحب الجلالة – عن مصلحة لهم فى منطقتنا من العالم ، لكنهم فى الأعماق يحترمون ما فعلناه ، يحترمون مجتمعاً بلغ فى تطوره مرحلة يشعر معها بثقته الكاملة فى قاعدته الفكرية . . . الوطنية وبقدرتها ليس فقط على المقاومة والصمود ، وإنما على الاجتذاب والاستقطاب !

وذلك حدث فعلا – يا صاحب الجلالة – ولم تجد التنظيمات الشيوعية فى مصر كلها من حل أمامها إلا أن تنهى وجودها ليهرع أفرادها إلى الرحاب الفكرية للوطنية المصرية كجزء من التيار الدافق لحركة القومية العربية .

* * *

ومع ذلك – ياصاحب الجلالة – فلقد يكون ذلك كله تاريخاً بعدت

عليه الأيام وقد يقتضيهم الأمر لو سألتهم عنه في واشنطن أن يعودوا إلى فتح ملفات قديمة .

ولنترك – يا صاحب الجلالة – هذا الذى يقتضيهم أن يبحثوا عنه فى الملفات إلى وقائع حديثة ما زالت على الشفاه .. واسمع ياصاحب الجلالة :

فى الفترة الأخيرة ، وفى الأيام نفسها التى كانت القاهرة تطلب فيها إلى واشنطن تجديد اتفاقية بيع القمح لها وفقاً للقانون ب . ل . ٤٨٠ حدثت مواقف تستحق الدراسة .

● أحد هذه المواقف ، مثلا ، أن الولايات المتحدة لم يرق لها – يا صاحب الجلالة – أن الجمهورية العربية المتحدة سمحت لجبهة التحرير الوطنى فى فيتنام أن تفتح لها مكتباً فى القاهرة .

وكان العتاب – ولا يستطيع أحد – ياصاحب الجلالة – لعلمك الخاص أن يوجه للقاهرة ما هو أكثر من العتاب – هو : أليس ذلك انحيازاً ؟

وكان رد الجمهورية العربية المتحدة يا صاحب الجلالة هو :

لا ، بالعكس ، بل هو منتهى عدم الانحياز ، إننا لا نخفى على أحد موقفنا من الصراع الدائر الآن فى فيتنام .

فوق ذلك فهناك ملاحظتان :

* أنتم أيها الأمريكان تعلنون كل يوم أنه لم يعد ممكناً أن تتم تسوية فى فيتنام إلا باشتراك جبهة التحرير الوطنى .

* أنتم أيها الأمريكان طلبتم منا أكثر من مرة أن نبذل مساعينا من أجل الوصول إلى حل لمشكلة فيتنام .

وكيف تعاتبون إذن على أننا اعترفنا اليوم ، بما لم يعد إنكار الاعتراف به ممكناً بالنسبة لأحد ، ولا بالنسبة لكم غداً ؟

ثم كيف تعاتبون إذن أننا فتحنا مكتباً فى القاهرة للطرف الفيتنامى الأصيل فى مشكلة فيتنام التى نحاول بذل مساعينا للوصول فيها إلى تسوية ؟

وهل تعرف كيف مضى العتاب بعد ذلك – ياصاحب الجلالة – فى هذا الأمر ؟

قالوا : إن الشعب الأمريكى يحارب فى فيتنام ولسوف يضايقه أن تفتحوا فى القاهرة مكتباً للعدو الذى يحاربه .

وقيل لهم : إن الشعب العربى يحارب فى فلسطين ، وأنتم لا تفتحون مكاتب لإسرائيل فى بلادكم وإنما تفتحون لعدونا مخازن سلاحكم بغير حدود .

وإذا تضايق الشعب الأمريكى لفتح مكتب للفييت كونج فى القاهرة فماذا يكون شعور الأمة العربية كلها حيال صفقات السلاح الأمريكى لإسرائيل ؟

هكذا بغير غضب – ياصاحب الجلالة – حتى بغير عبارات حماسية إنشائية ، عرف الذين عاتبوا أن العتاب مرفوض ، وأنه مرفوض من موقع الوطنية ومن موقع الاستقلال لا شىء غيرهما .

● وموقف آخر – يا صاحب الجلالة – حين لم يرق للولايات المتحدة الأمريكية أن تقوم بعض قطع الأسطول السوفييتى بزيارة لأحد الموانئ المصرية .

وفجأة – ياصاحب الجلالة – ولا بد أنك قرأت – امتلأت الصحف فى الغرب وفى الشرق القريب منا – حيث للغرب نفوذ – بقصص تقول بأن الجمهورية العربية المتحدة سمحت للاتحاد السوفييتى بأن يقيم قواعد بحرية

فى شواطئها ، ومضت هذه الصحف تحدد هذه القواعد السوفييتية على الشواطئ المصرية : السلوم على البحر الأبيض وبرنيس على البحر الأحمر، وراحت هذه الصحف تلح وتضغط فى هذا الموضوع حتى بلغ بها الأمر أن تقول إن الأدميرال جورشيكوف ـ الذى زار الجمهورية العربية المتحدة ضمن وفد عسكرى سوفييتى زارها قبل شهور برئاسة الماريشال جريشكو ـ كان هو الذى وقع الاتفاقية السرية للقواعد البحرية السوفييتية على الشواطئ المصرية !

ووسط هذه الحملة ـ يا صاحب الجلالة ـ فإن الجمهورية العربية المتحدة لم تكلف نفسها حتى عناء إصدار تكذيب وكان منطقها : لو خرجنا لتكذيب كل ما يلفق علينا إذن لقضينا العمر كله وليس لنا عمل إلا إصدار التكذيبات !

ومع ذلك فقد انتظرت القاهرة فرصة ملائمة وقالت رأيها فى الموضوع صراحة ، كان رأيها ، مواجهة وليس من وراء الظهور :

« اسمعوا . . أنتم تعرفون قبل غيركم أن الجمهورية العربية المتحدة لا يمكن أن تقبل إقامة قواعد عسكرية أو بحرية على أراضيها أو شواطئها لكائن من كان . تعرفون ذلك لأنكم تعرفون مبادئها ، ولقد خبرتم قبل غيركم صلابتها فى الدفاع عنها .

وكذلك تعرفون لأن أقماركم الصناعية الطائرة فى الفضاء العالى لا تترك بقعة من الأرض بغير أن تلتقط لها الصور .

وإذن فيم الضجة ؟

نحن نعفيكم من الجواب على أى حال .

نقول لكم إننا نعرف سببها ، سببها هو محاولة الضغط علينا لكى نسمح للأسطول الأمريكى السادس أن يزور بعض موانينا .

تتصورون أن الضجة حول خرافة القواعد البحرية السوفييتية على شواطئنا سوف تفزعنا ثم نهرول للسماح للأسطول الأمريكى السادس أن يزور موانينا على أمل أن نثبت بذلك حيادنا . . وكما سمحنا لهم بزيارة نسمح لكم بزيارة. خذوها من غير لف ولا دوران : إننا لن نسمح للأسطول الأمريكى السادس بأن يزور موانينا مهما قيل لنا إن بحارته سوف يصرفون مئات الألوف من الدولارات فى الليلة الواحدة ، وليس هذا انحيازاً ضدكم ولا هو انحياز لخاطر الاتحاد السوفييتى .

وإنما موقفنا فيه من موقع الوطنية والقومية واستقلالهما الحر .

نحن نجد فرقاً – من وجهة نظرنا – بين الأسطول السوفييتى وبين الأسطول الأمريكى السادس :

ليس للاتحاد السوفييتى أسطول فى البحر الأبيض ، وإنما له قطع عابرة فى بعض الأحيان ، وهذه القطع لا تهددنا ، وإنما تجىء رافعة أعلام الود والصداقة .

وأما الأسطول الأمريكى السادس فأسطول مقيم فى البحر الأبيض ، وفى تجارب سابقة عديدة وجدناه يتحرك لتهديد القومية العربية ، كما أن أكبر أهداف وجوده المعلنة رسمياً حيث يوجد فى البحر الأبيض هو حماية إسرائيل .

وإذن فهو أسطول غير صديق . . . هكذا نشعر ، وما دام ذلك شعورنا فلن يسمح لأية قطعة منه بدخول أى ميناء مصرى » .

هكذا بوضوح !

* * *

وغير ذلك مواقف كثيرة سوف تجدها على الشفاه – يا صاحب

الجلالة — لم تدلف بعد إلى ظلام الملفات ، كلها تقنعك بأنه لا فائدة ترجى من وراء إثارة خطر الشيوعية الموهوم فى الشرق الأوسط أثناء زيارتك لواشنطن .

لا يليق بك هذا الأمر — يا صاحب الجلالة — كرامة لنفسك وللعرب .

ومن ناحية أخرى فهم — فى هذا الموضوع بالذات — يعرفون أكثر مما تعرف ، ولن يزيدهم ما تقول علماً ولن يضيف إلى ما لديهم جديداً !

* * *

يبقى الموضوع الثانى الذى رجوتك ألا تثيره فى واشنطن — يا صاحب الجلالة — وهو موضوع ضمان عسكرى أمريكى لك إذا ما وقع اشتباك بينك وبين الجمهورية العربية المتحدة على حدود اليمن .

وأجدنى — يا صاحب الجلالة — مضطراً — وقد بلغ هذا الحديث نهاية هذه الصفحة أن أنتظر أسبوعاً آخر قبل أن أتعرض تفصيلا له .

ومع احتمال أن تكون قد غادرت واشنطن قبل أن يصلك الجزء الثانى من هذه الرسالة فإن الأمر يستوى .

يستوى أن يصلك هذا الجزء من الرسالة وأنت فى واشنطن أو أن تكون طائرتك — بسلامة الله — قد طارت عنها .

يستوى أيضاً أن يكونوا قد منحوك الضمان الذى تطلبه أو أنهم حجبوه عنك .

لا تستطيع قوة على الأرض — ياصاحب الجلالة — أن تعطى أحداً ضماناً ضد التاريخ ! !

الفصل الثالث عشر

طلب ضمان أمريكى للسعودية . . .

ونتيجة حرب محدودة فى اليمن !

(١ يونية ١٩٦٦)

يا صاحب الجلالة :

لا يستطيع منصف أن يرثى لك ، فقد وضعت نفسك حيث أنت الآن !

ولا يستطيع مخلص أن يشمت فيك ، فما يصيبك هناك — خصوصاً فى نيويورك — ثقيل حتى على الذين خالفوا سياستك هنا وعارضوا سفرتك إلى أمريكا ، قاصداً — على حد ما نقلوا عنك وعنهم :

* أن تنبه إلى خطر الشيوعية الدولية وتوغل الاتحاد السوفييتى فى الشرق العربى (وذلك تحدثنا عنه تفصيلا فى الفصل الذى سبق) . .

* وأن تحصل على ضمان أمريكى ضد الجمهورية العربية المتحدة (وهذا ما سوف نتعرض له الآن تكملة للحديث) .

ومهما يكن من أمر الرثاء والشماتة معاً — يا صاحب الجلالة — فإن ما أصابك فى نيويورك — بالغاً ما بلغت قسوته عليك وعلينا — كان الحقيقة وحدها ، والحقيقة كلها ، بغير ألوان وأصباغ !

. . . وأن يلقاك الرئيس الأمريكى ليندون جونسون ، على خضرة حديقة البيت الأبيض لكى يقول لك وأنت تهبط من الهليوكوبتر التى

حملتك إليه : أهلا وسهلا — يقولها لك باللغة العربية كتبوها له على ورقة بحروف لاتينية . . . ثم أن يدعوك ليندون جونسون إلى دخول البيت الأبيض قائلا : بيتنا بيتك . . . ثم أن يرحب بك ليندون جونسون بعد العشاء بخطاب يستشهد فيه بآيات القرآن الكريم ، فذلك كله — ياصاحب الجلالة — لا يتصل بالحقيقة وحدها أو بالحقيقة كلها ، وإنما هو يتصل أكثر بفنون العلاقات العامة ويعبر عن تأثير شارع « ماديسون » أكبر مركز للإعلان فى أمريكا بأكثر مما يعبر عن مشاعر البيت الأبيض وساكنه !

. . . وأن تصلك ست برقيات بتوقيع « جونسون » و « طومسون » و « بنيامين » و « شيفرز » و « إلياهو » يرحب أصحابها بك فى نيويورك برغم ما أصابك فيها . . ثم تتلقف إذاعتك الملكية — يا صاحب الجلالة — هذه البرقيات الست وتذيعها فى نشراتها الإخبارية دليلا على أن نيويورك تعمدت الترحيب بك ولم تتعمد إهانتك — فذلك أيضاً — يا صاحب الجلالة — لا يتصل بالحقيقة وحدها أو بالحقيقة كلها . . يدخل — مع الأسف — تحت باب المضحكات المبكيات أكثر مما يدخل تحت أى باب آخر — يا صاحب الجلالة !

وهل يعقل أنك لاترى أين الحقيقة وحدها ، والحقيقة كلها — يا صاحب الجلالة — ؟ وهل يعقل أنك لم تستطع أن تلمح آثارها من تحت الألوان والأصباغ .. أو ماذا — ياصاحب الجلالة خبث الثعالب علينا فقط ولهم منك سذاجة اليمام ؟ !

* * *

الحقيقة وحدها والحقيقة كلها — ياصاحب الجلالة — هى ذلك الفراغ الذى تركوه من حولك فى نيويورك ، والعزلة التى تركوها معك فى جناح الرئاسة بفندق والدورف استوريا .

تلك مع الأسف ، نتيجة منطقية وطبيعية لعملية نزول ، بدأت قبل نيويورك بوقت طويل !

وبغير ما رغبة — يا صاحب الجلالة — فى مناقشة دوافع رحلتك إلى أمريكا وأسبابها ، فلقد كان أكرم لك أن تستجيب إلى رجاء الذين دعوك إلى إلغائها إظهاراً لعدم رضاك — يا صاحب الجلالة — عن صفقات الأسلحة الأمريكية الجديدة لإسرائيل ، تعلن مع الوقت نفسه الذى يجرى فيه ترتيب زيارتك .

لقد رفضت — يا صاحب الجلالة — أن تستجيب . . . وصممت على السفر . . . ليكن !

كانت أمامك — يا صاحب الجلالة — فرصة متاحة إذا ذهبت ، وكان هناك كثيرون يتمنون — لكرامة العرب — أن تلتفت إليها وتحسن استغلالها . . . كان أمامك — يا صاحب الجلالة — أن تنظر إليهم فى غضب لكى يشعروا منك تعبيرك عن ضمير أمتك ، لكنك — يا صاحب الجلالة — حين وصلت إليهم فى واشنطن وتطلعوا إلى عينيك لم يجدوا فيهما إلا جدولا يسيح منه اللبن والعسل !

ولقد ضاعت الفرصة للتعبير عن كرامة العرب وضميرهم ، ثم وضعت كرامتك الشخصية — يا صاحب الجلالة — فى الميزان ، لم تعجبهم فى نيويورك كلمة عابرة قلتها فى واشنطن وطالبوك بالاعتذار وحاولت أن ترضيهم بالتفسير تلو التفسير لكنهم لم يقبلوا الركوع وأصروا على السجود وناشدك كثيرون من العرب فى نيويورك — يا صاحب الجلالة — أن تقاطع هذه المدينة قبل أن تقاطعك هى . . . رجوك أن تدخل من مطارها إلى الأرض الدولية للأمم المتحدة فيها ثم تغادر مبنى الأمم المتحدة

غير ملتفت إلى ما حولك خارجاً من نيويورك وتاركاً إياها وراء ظهرك إباء وترفعاً .

لكنك – ياصاحب الجلالة – لم تسمع ورضيت لنفسك أن تنتظر ستة أيام فى نيويورك على أمل السماح والرضى !

وفوق ذلك كله – ياصاحب الجلالة – تحدثت حين تحدثت فإذا أنت تلفت نظرهم – تجاوزاً وتزايداً – إلى خطر الشيوعية والاتحاد السوفييتى وهم أدرى منك بالموضوع كله ، ثم إذا أنت – يا صاحب الجلالة – تطلب الضمان ضد الجمهورية العربية المتحدة ، وكنت أنت الأحق بأن يطلبوا الضمان منك لو عرفت ولو قدرت .

* * *

الناس وما يحسون – ياصاحب الجلالة – والحرية إرادة قبل أى شىء ، وكذلك الكرامة والكبرياء !

ولقد يزيدونك علماً فى أمريكا – يا صاحب الجلالة – بتجربة سبقت ما تعرضت له فى نيويورك .

قبلك بشهور دعى رئيس مجلس الأمة فى الجمهورية العربية المتحدة إلى زيارة لأمريكا ، وفى اليوم الأول لوصوله إليها قال أنور السادات بوضوح :

« إن جمال عبد الناصر طلب منى أن أقطع رحلتى على الفور وأعود إلى القاهرة إذا أحسست أن هناك فيما ألقاه شيئاً لا أرضاه لوطنى أو لنفسى .

لقد قبلنا الدعوة شاكرين وراغبين فى حوار مفيد للعلاقات العربية – الأمريكية .

لكننا نرجوكم مقدماً أن تقبلوا عذرنا عن عدم السكوت أمام شيء لا نرضاه مهما قيل لنا فى تبريره عن تأثيرات الضغط الصهيونى أو اليهودى .

وفى بلادنا نحن نعرف قاعدة للضيافة أساسية : إذا لم نستطع الحرص على كرامة ضيوفنا ، فنحن لا ندعوهم ، ذلك أكرم لنا ... ولهم » !

بعدها – يا صاحب الجلالة – طوف أنور السادات بالولايات المتحدة الأمريكية كلها شرقاً وغرباً ، من واشنطن ونيويورك . . . إلى لوس أنجلوس وسان فرانسسكو ، وطواها – يا صاحب الجلالة – لم تمسس بلاده ولا مسته شخصيـًا . . . كلمة أو إشارة !

* * *

ومع ذلك – يا صاحب الجلالة – فإن الوقوف أمام ذلك كله ، بعد أن وقع ما وقع فى نيويورك ، تسكع على الطريق لم تبق منه – مهما طال الوقوف – فائدة !

وهو من ناحية أخرى يجور على الوقت والمكان الذى يجب أن يخصص للموضوع الأصلى فى هذا الحديث ، وهو موضوع الضمان الذى طلبته من أمريكا ضد الجمهورية العربية المتحدة إذا ما وقع بينك وبينها شيء على حدود اليمن .

* * *

وحديث الضمان الذى طلبته من الولايات المتحدة الأمريكية ضد الجمهورية العربية المتحدة ، سوف يقودنا إلى نقاش طويل ، ولا بأس من ذلك الآن – يا صاحب الجلالة – فلديك كفاية الوقت له وسط العزلة والفراغ مما ضربوه حولك فى نيويورك !

وذلك – على أى حال – فيه الكثير من الفائدة ، فإن الناس – كل الناس – يحتاجون بعض الأحيان إلى فسحة من الفراغ والعزلة

– بغير إهانة بالطبع ! – تتيح لهم الفرصة لتفكير هادئ . . . ونفّاذ !

* * *

وقبل أى شيء – ياصاحب الجلالة – فإن هناك بداية لا بد أن نبدأ منها ، وبعدها يتشعب النقاش إلى حيث تريد .

هذه البداية هى :

إن معنى الضمان الذى ذهبت تطلبه من واشنطن – ياصاحب الجلالة – أنك خسرت معركة اليمن ، وأنك تعرف ذلك وتسلم به فى واشنطن وإن كنت ما زلت تكابر دونه على الأرض العربية وحدها وأمام العرب دون غيرهم !

ولنكن هادئين – يا صاحب الجلالة – ولنتناقش بالمنطق :

قبل أكثر من ثلاث سنوات – وبعد أن حقق الشعب اليمنى إرادته ضد أكثر عهود الإنسانية ظلماً وظلاماً – أحست ثورة اليمن بالتهديد يوجه إليها من مصدرين : الاستعمار البريطانى فى الجنوب ، والملكية السعودية فى الشمال ، كلاهما يريد أن يعود الظلم والظلام إلى صنعاء .

فى ذلك الوقت طلبت صنعاء الثورة ضمان القاهرة ومساعدتها فى أن لا يتمكن حلف الاستعمار والرجعية من ضرب إرادة الشعب اليمنى . . .

فى ذلك الوقت قدمت القاهرة ضمانها ووضعت قوتها فى تأكيده وتعزيزه .

بعد ثلاث سنوات أو أكثر قليلا ما هو الموقف الآن :

* الاستعمار البريطانى يستعد للرحيل – مرغماً – من الجنوب المحتل

وعدن ، بينما الثورة الوطنية على أشدها فى أعقابه لا تترك له دقيقة يلتقط فيها أنفاسه .

والمملكة السعودية هى التى تطلب الآن ضمان واشنطن .

أليس ذلك هو ما نجده أمامنا الآن يا صاحب الجلالة ؟

الثورة ، التى طلبت الضمان من القاهرة – أمام التهديد ضدها – باقية بالأمان فى صنعاء .

والرياض ، التى كانت مصدر التهديد – هى التى تطلب الآن ضمان واشنطن وتلح فى طلبه خصوصاً بعد سقوط الاستعمار البريطانى فى الجنوب .

وهل يبدو ذلك مفاجأة لفكرك – يا صاحب الجلالة ؟

تأمل قليلا . . . تجده الأمر الواقع فعلا وغيره سراب .

ولئن سألت : كيف جرى ؟ فقد نقول لك يا صاحب الجلالة :

إن الذين يثبتون نظراتهم بالقلق على عقارب الساعة يخيل إليهم أن الزمن توقف ، وفى الحقيقة أن حركته أبدية أزلية ، حتى إن بدت غير مرئية أمام نظرات القلق – يا صاحب الجلالة !

ودع المناقشة تتشعب الآن كما تشاء – يا صاحب الجلالة – دعها تأخذ مداها سؤالا وجواباً . . . واستطراداً واستدراكاً حتى تستنفد الجزئيات حقها من الظهور والوضوح .

دعنا – حتى لو وجدت أن ذلك أكثر مدعاة للفهم – أن نتكلم فى النظريات المجردة ثم نمشى منها إلى التطبيق .

* * *

قلت لك – يا صاحب الجلالة – فى البداية الأولى إنك خسرت معركة

اليمن ، ومعنى ذلك أن طرفاً غيرك قد ربح هذه المعركة .

ونظريًّا — ياصاحب الجلالة — ما هومعنى أن يخسر طرف فى معركة وأن يربح طرف آخر ؟

سوف أعتمد فيما أقوله الآن على دراسات صادرة عن « كلية قادة الجيش الأمريكى وأركان الحرب » فى « ليفنورث » بولاية كانساس وهى أعلى كليات العلوم العسكرية فى أمريكا إطلاقاً .

لقد صدرت عن هذه الكلية — يا صاحب الجلالة — دراسة تعكس آراء عدد كبير من قادة الجيش الأمريكى تحت عنوان :

What do we mean by win ?

أى : ماذا نعنى بالربح . . . أو النصر؟

وأظنك توافق معى — ياصاحب الجلالة — على أننا نستطيع اعتماد هذه الدراسة — وهى أمريكية — مرجعاً مقبولا فى مناقشة نظرية !

* * *

تقول هذه الدراسة عن الخسارة والربح فى الحروب ، عن الهزيمة والنصر فى المعارك : إن هناك فى هذا العصر نوعين من الحروب :

الحرب الشاملة : ومعنى الخسارة والربح فيها أن يستطيع طرف من أطرافها أن يدمر كل قوة وإمكانيات الطرف الآخر وأن يحتل أراضيه ويخضع سكانه .

والحرب المحدودة : والخسارة والربح فيها لا مقياس لهما إلا الأهداف المحددة المعلنة مسبقاً ، والطرف الذى يخسر فيها هو الطرف الذى يعجز عن تحقيق أهدافه المعلنة ، والطرف الذى يربح هو الطرف الذى يستطيع أن يمنع غيره — عسكريًّا — من تحقيق أهدافه المعلنة ويجره وإن غصباً إلى طريق التراضى السياسى .

والحرب الشاملة ليست مطروحة فى هذه المناقشة ـ يا صاحب الجلالة ـ فإن الجمهورية العربية المتحدة فى تصديها للمخططات الملكية السعودية ضد ثورة اليمن لم تكن تريد ولا تقبل ـ معاذ الله ـ تدمير قوة وإمكانيات السعودية أو احتلال أراضيها أو إخضاع سكانها .

الحرب الشاملة لم تكن مطروحة لا نظرياً ولا تطبيقياً . فيما وقع بين الجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية .

بل لقد يكون هناك تجاوز فى استعمال تعبير الحرب المحدودة فى وصف الصراع الذى دار فى اليمن !

* * *

مع ذلك نستطيع ـ حتى تجاوزاً ـ يا صاحب الجلالة ـ أن نستعمل تعبير الحرب المحدودة وأن نطابق بين النظرية وبين المعركة التى جرت فى اليمن .

أطراف المعركة ومواقفهم كما يلى :

١ ـ الثورة اليمنية : ـ كمظهر من مظاهر اليقظة القومية ـ طردت أسرة حميد الدين من أرض اليمن وبدأت عهداً جديداً يحاول فيه شعب اليمن أن يجتاز التخلف وأن يتصل بنضال أمته العربية فى مجالاته المتعددة ، لكن ثورة اليمن تفاجأ بالخطر الزاحف عليها من وراء الحدود .

٢ ـ المملكة العربية السعودية : بكل ما تمثله اجتماعياً ترى أن ثورة فى اليمن تطرد أسرة حميد الدين الحاكمة فيها ـ هى سابقة خطيرة فى شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم تتدخل عسكرياً لإعادة أسرة حميد الدين إلى اليمن ، تساعدها على ذلك ـ وتحرضها ـ سلطات الاستعمار البريطانى فى الجنوب المحتل .

٣ – الجمهورية العربية المتحدة : بكل وزنها المادى والمعنوى فى قيادة الحركة الثورية القومية تستجيب لنداء الثورة اليمنية وتقرر التدخل عسكرياً لكى تمنع فرض شىء على الشعب اليمنى يختلف عن إرادته .

* * *

وفى ميدان القتال تمثل ذلك كله – يا صاحب الجلالة – فى جانبين ، كما فى كل قتال :

● جانب فيه كل القوات المهاجمة لثورة اليمن تريد إعادة أسرة حميد الدين إلى قصر البشائر فى صنعاء ، وهذا الجانب يضم كل إمكانيات السعودية ، سلاحاً ومالا ورجالا ، بل يضم أيضاً محاربين مرتزقة من الأجانب ووراء الكل قوات الاستعمار البريطانى فى الجنوب .

● وجانب فيه كل القوات المدافعة عن ثورة اليمن ، تقاتل لحماية شعب اليمن من أن تتقرر أموره ومصيره من وراء الحدود ، وهذه القوات هى أساساً قوات الجمهورية العربية المتحدة ، وقوات الجيش اليمنى ، وقوات القبائل اليمنية .

* * *

ولقد كان هدف هذه المعركة المحدودة منذ اللحظة الأولى ، واضحاً قاطعاً بالنسبة لطرفى ميدان القتال فيها .

هدف المعركة المحدودة الذى أعلن عنه مسبقاً هو :

السعودية ومن معها : يقاتلون لكى يعود إلى اليمن ما كان فيه قبل الثورة .

الجمهورية العربية المتحدة ومن معها : يقاتلون لكى يتأكد لشعب اليمن ما تحقق له بالثورة .

تصبح المسألة فى النهاية : أسرة حميد الدين وما ترمز له فى اليمن .

وبالتالى يصبح معيار الربح والخسارة فى الحرب المحدودة : هل عادت أسرة حميد الدين وما ترمز له إلى اليمن ، أو هى لم تعد ؟ !

* * *

كيف تعاقبت التطورات والمراحل فى ميدان القتال — يا صاحب الجلالة ؟

١ — بعد مفاجأة الزحف من وراء الحدود ، وبعد وصول قوات الجمهورية العربية المتحدة ، تبعثرت القوات المهاجمة وتمزقت موجاتها الأولى ، ومع ذلك فإنه حتى فى ذروة المفاجأة لم يبد احتمال نجاح المهاجمين قريباً فى أى وقت من الأوقات ، وفى هذه المرحلة — يا صاحب الجلالة — اعترف العالم كله تقريباً ، فيما عدا بريطانيا والمملكة السعودية ، بالوضع الجديد الذى كان هدف بريطانيا والسعودية تغييره فى اليمن !

٢ — أدرك المهاجمون — بريطانيا والسعودية — أن الطرف القوى فى ميدان القتال هو الجيش المصرى ومن ثم تغير أسلوب المعركة وأصبح الجيش المصرى نفسه قبل صنعاء وقصر البشائر هدفاً مقصوداً ، وفى هذه المرحلة تطورت الحرب المحدودة فى اليمن إلى معارك حديثة كان الدور الأكبر فيها لقوات المرتزقة الأجانب وظهرت فيها عمليات الإسقاط بالباراشوت من وراء الحدود وخطط الكمائن على أحدث الأساليب العلمية والمحاولات لتمزيق خطوط المواصلات . . . أخطر ما يمكن أن يواجهه جيش نظامى ، ووراء ذلك كله كان التدخل البريطانى السافر كما حدث فى الغارة على « حريب » التى أصدر الأمر بها السير « إليك دوجلاس هيوم » رئيس وزراء بريطانيا السابق وأعلنه رسمياً فى بيان صادر عن « ١٠ داونچ ستريت » !

ومع ذلك فإنه فى هذه المرحلة ذاتها ـ ياصاحب الجلالة ـ استطاع رد الفعل العربى أن يسقط قمة النظام الحاكم فى السعودية وقتها ـ شقيقك الملك سعود ، كما استطاع أن يشعل نار الثورة فى الجنوب المحتل وأن يفرض على الاستعمار البريطانى خطط الدفاع عن نفسه والتفكير فى الرحيل . . حتى من عدن . . . حتى من عدن يا صاحب الجلالة !

٣ ـ فى مرحلة ثالثة ـ يا صاحب الجلالة ـ بدأ الجيش المصرى يضع لنفسه استراتيجية جديدة أكثر ما يساعد عليها الآن أن جبهة القتال الأخطر ـ مع الاستعمار البريطانى فى الجنوب ـ قد تحولت بالنسبة لهذا الاستعمار البريطانى من جبهة هجوم . . . إلى جبهة دفاع عن النفس وانسحاب .

لم يبق الآن غير جبهة واحدة ، هى الجبهة الملكية السعودية .

وبالتالى فإن الانتشار على الأرض اليمنية الواسعة تعرض ليس له ما يبرره ، كما أنه لا يمكن إهدار قوة جيش نظامى حديث أمام عمليات تسلل لم يبق لها غير مصدر واحد ولم يبق إليها من سبيل غير معابر فى الجبال يستحيل عمليًّا إغلاقها .

وفى هذه المرحلة ـ يا صاحب الجلالة ـ كان الطريق الصحيح أمام الجيش المصرى هو أن يعيد تجمع قواه وأن يتمركز حيث يستطيع ضرب قواعد العدوان .

يفرض على الملكية السعودية أن توقف هى ، وبنفسها ، عمليات التسلل من أراضيها ولا يهدر قواه هو فى مطاردتها على الوديان السحيقة وفى أعماق الكهوف .

وهذه هى المرحلة الراهنة ـ يا صاحب الجلالة ـ فى الحرب المحدودة التى دارت فى اليمن .

ونسأل الآن يا صاحب الجلالة :

ما هى الصورة الآن على أرض المعركة المحدودة ؟

ومن الذى حقق أهدافه المعلنة مسبقاً . . . أو بعبارة أخرى : من الذى ربح بمقاييس أساتذة علوم الحرب وخبرائها فى أمريكا ؟

الصورة كما يلى — يا صاحب الجلالة — . . واحكم أنت !

* أعلام الثورة اليمنية فى صنعاء ، وأسرة حميد الدين لم تدخلها ،وهى فوق ذلك لا تسيطر على أى شبر من أرض اليمن ، وبرغم كل مشاكل الثورة اليمنية نفسها — وهى طبيعية — فإن التطور لم يعد يستطيع التراجع إلى الوراء وتلك شهادة التاريخ فى كل وقت — يا صاحب الجلالة !

ولعلك تذكر — يا صاحب الجلالة — مع اختلاف الظروف كلية — أن الجيش الفرنسى دخل مصر ثلاث سنوات فى مطلع القرن التاسع عشر ، ولأنه كان يحمل بين ما يحمل بعض الخمائر الفكرية للثورة الفرنسية فإن الأمور فى مصر لم تعد بعد خروجه إلى ما كانت عليه قبلها .

مع اختلاف الظروف كلية — يا صاحب الجلالة — فإن الجيش المصرى لم يذهب إلى اليمن غازياً أو فاتحاً ، وإنما ذهب أخاً وعوناً ، ودخل ومعه ما هو أكثر من الخمائر الثورية لفكر بعيد ، لقد دخل ومعه المبادئ الحية لثورة أمة عربية بأسرها ينتمى إليها شعب اليمن نفسه .

وعندما يخرج هذا الجيش من اليمن — وسوف يخرج قطعاً — فإن الأمور يقيناً لن تعود بعد خروجه إلى ما كانت عليه قبله .

يستحيل ذلك تاريخياً وطبيعياً — يا صاحب الجلالة !

* الاستعمار البريطانى أقوى الأطراف المعادية لثورة اليمن — كما تعرف يا صاحب الجلالة — بدأ ظله ينزاح عن الجنوب . . . وهو يريد أن

يوقف تراجعه فى مسقط ، لكن المقاومة الآن بدأت ضده فى مسقط . . :
وهو يريد أن يتمركز فى البحرين لكن القوى الثورية تتربص به فى البحرين .

وهو يحاول يائساً اليوم أن يحمى تراجعه بإقامة حكومة رجعية فى الجنوب المحتل تقوم على أنقاض سقوطه ، لكن الأنقاض الرجعية — يا صاحب الجلالة — لا تستطيع أن تملأ ثغرة سقوط الاستعمار إلى أنقاض ، وأقصى النجاح هنا لا يستطيع أن يكون أكثر من مسألة وقت . . . لكن النتيجة محتومة .

* ثم المملكة السعودية — يا صاحب الجلالة — واقفة على الحدود حيرى لا تعرف ماذا تصنع .

وجدت نفسها تطاب الحماية الأمريكية . . وكانت قبلها مصدر التهديد على ثورة اليمن .

وجدت نفسها تدفع مئات الملايين تشترى السلاح لتحمى نفسها وكانت من قبل تدفع عشرات الملايين فقط لتشترى السلاح ترسله عبر الحدود إلى اليمن !!

والمدهش — يا صاحب الجلالة — أنك شخصياً تصدق . . . ولا تصدق فى الوقت نفسه .

* * *

تُصدق — يا صاحب الجلالة — أن الجمهورية العربية المتحدة سوف تنفذ ما أعلنته وتضرب قواعد العدوان فى السعودية إذا ما عادت إلى نشاطها ضد ثورة اليمن .

تُصدق ذلك — يا صاحب الجلالة — لعدة أسباب :

١ — أن الجمهورية العربية المتحدة ضربت هذه القواعد مرات

من قبل ، ولولا رعاية للسكان العرب المسالمين من أهل نجران وجيزان لكانت الضربات أشد وأعنف ، لكن الجمهورية العربية المتحدة بذلت كل جهد إنسانى ممكن لإبقاء رد فعلها فى أضيق الحدود .

٢ ـ أن الحماية الأمريكية المسجلة فى خطاب الرئيس الراحل كيندى إليك كانت قائمة فى الظروف التى وجدت الجمهورية العربية المتحدة نفسها فيها مطالبة برد الفعل ... بل إن أحد معاونى الرئيس الأمريكى كيندى وهو « الدكتور ماسون » شاهد غارة بنفسه على جيزان ونجران وهو يعبر سنة ١٩٦٣ من السعودية إلى اليمن .

٣ ـ أنه حتى برغم صفقات السلاح التى ضاعت فيها مئات الملايين من أموال الشعب السعودى لتذهب إلى السماسرة والشركات الأجنبية ، وحتى برغم الطائرات المستعارة بالطيارين من بريطانيا فإن الجمهورية العربية المتحدة قادرة ، وسوف تبقى قادرة على رد الفعل إذا دعت إليه الظروف .

ودليل أنك تصدق ـ يا صاحب الجلالة ـ هو ما وقع فعلا منذ أعلن جمال عبد الناصر فى شهر فبراير الماضى أنه أصدر القرار بضرب قواعد العدوان فى السعودية إذا عادت لتهديد ثورة اليمن .

منذ ذلك اليوم ـ يا صاحب الجلالة ـ توقف كل شىء وساد الجبهة الشرقية والشمالية هدوء لم تبدده طلقة رصاص واحدة .

إن القوات المصرية فى استراتيجيتها الجديدة قامت بإخلاء كل مناطق الجوف فى قوس طويل ممتد من مأرب إلى صاعدة ، ومع ذلك لم يقترب أحد ولا حاول أن يقترب من هذه المناطق المفتوحة .

ذلك أقوى الأدلة ـ يا صاحب الجلالة ـ على أنك تصدق أن رد الفعل العربى مستعد . . تصدق . . . ولك الحق !

* * *

ومن ناحية أخرى – يا صاحب الجلالة – فأنت لا تصدق لأنك لا تستطيع أن تتصور هذا الموقف الذى تجد نفسك فيه الآن . . . ولا تقدر على استيعاب حقائقه الجديدة .

بريطانيا تخرج من الجنوب ومن عدن . . . وتتركك مع حفنة من السلاطين والمشايخ هم عبء عليك أكثر مما هم سند لك .

والولايات المتحدة الأمريكية ؟ !

كيف يمكن أن تتردد فى إقطاعك ضماناً تطلبه ؟

وهل هناك قيمة لهذا الضمان ولو حتى فى إمكان إحداث مواجهة بين الولايات المتحدة الأمريكية، والجمهورية العربية المتحدة ؟

لا تصدق – يا صاحب الجلالة – وهنا أيضاً لك الحق !

* * *

ويا صاحب الجلالة هناك نقطة فاتت :

لنفرض جدلا أن الولايات المتحدة الأمريكية أعطتك ضماناً .

إن الذى يعطى ضماناً لغيره يأخذ الضمان لنفسه أيضاً .

والجمهورية العربية المتحدة قصرت عزمها على **رد الفعل** ولم تدع لنفسها ولا ادعت طوال الصدام فى اليمن موقف **الفعل** .

وعندما تقول لك الولايات المتحدة إنها سوف تحميك ، فلسوف تقول لك فى اللحظة نفسها – يا صاحب الجلالة – ولكن **لا تفعل** .

وإذا لم تقل لك ذلك – يا صاحب الجلالة – فهى تعرض نفسها للوقوف فى دور المحرض والشريك الذى وقفت فيه بريطانيا قبلها وخرجت منه . . إلى خارج المنطقة كلها !

وإذا قالوا لك – يا صاحب الجلالة – لا تفعل . . . فما هى حاجتك إلى ضمان أمريكى جربت تطلبه وضحيت فى طلبه بكل شىء !

* * *

نقطة أخرى يا صاحب الجلالة فاتت :

من يستطيع – يا صاحب الجلالة – أن يعطيك ضماناً فيما قد يحدث داخل السعودية ؟

ويثير العجب – يا صاحب الجلالة –أن ثورة اليمن برغم المعاناة والعذاب والعقد ، استطاعت أن تحقق فى المملكة العربية السعودية آثاراً أبعد وأخطر مما استطاع الذهب السعودى والسلاح السعودى والعقالات المذهبة لملوك السعودية أن يحققوه فى اليمن !

أليس عجيباً – يا صاحب الجلالة – أن آثار ثورة اليمن ، مباشرة وغير مباشرة ، استطاعت أن تحدث أول انقلاب جرى فى عهد الحكم السعودى وأن تسقط أول ملوك السعودية الذين اصطدموا معها .

والتطور لم يتوقف بولاية ملك جديد فى السعودية – يا صاحب الجلالة – إن حركة الزمن – كما اتفقنا – أبدية أزلية حتى وإن بدت للعيون الناظرة بالقلق – غير مرئية !

لا تستطيع أن تتصور مثل الموقف الذى تجد نفسك فيه الآن ،

ولا تقدر على استيعاب [illegible]

[illegible] الملاطفين والمشايخ من حوله عليك أكثر مما هو [illegible]

[illegible]

بين الولايات المتحدة الأمريكية [illegible]

[illegible]

إن الذى يحصل [illegible]

والجمهورية العربية المتحدة قصرت جهدها على رد الفعل ولم تدع لنفسها ولا ادعت طوال الصدام فى اليمن موقف الفعل .

وعندما تقول لك الولايات المتحدة إنها سوف تنسحب ، فسوف تقول لك فى الحقيقة نفسها — يا صاحب الجلالة — ولكن لا تفعل .

وإذا لم تقل لك ذلك — يا صاحب الجلالة — فهى تعرض نفسها للوقوع فى دور العرض والشريك الذى وقعت فيه بريطانيا قبلها وخرجت منه .. إلى خارج المنطقة كلها !

الفصل الرابع عشر

الفجر يطلع دائماً !

(٨ يونية ١٩٦٦)

يا صاحب الجلالة :

كنا نتحدث عن الضمان الأمريكى الذى طلبته من واشنطن حماية لك ضد الجمهورية العربية المتحدة إذا مانفذت إعلانها بضرب قواعد العدوان فى السعودية فى حالة عودتها إلى التحرش والتحرك ضد ثورة اليمن .

وكنا – يا صاحب الجلالة – نتأمل : كيف أن ثورة اليمن – برغم المعاناة والعذاب والعقد – استطاعت أن تحقق فى المملكة العربية السعودية آثاراً أبعد وأخطر مما استطاع الذهب السعودى والسلاح السعودى والعقالات المذهبة لملوك السعودية أن يحققوه فى اليمن ؟

وكنا – يا صاحب الجلالة – نتعجب : كيف تحول العرش السعودى مصدر التهديد على شعب عربى مجاور فى اليمن – إلى طالب حماية من البيت الأبيض فى واشنطن ؟

وكنا بعدها – يا صاحب الجلالة – نتساءل : ولنفرض أنهم أعطوك ما تطلبه من ضمان فيما قد يحدث على الحدود فمن الذى يستطيع – يا صاحب الجلالة – أن يعطيك ضماناً فيما قد يحدث داخل السعودية؟

* * *

إن الذى حدث داخل السعودية ، منذ قامت الثورة فى اليمن — وإلى اليوم — يكاد أن يكون خيالا بعيداً عن التصديق — يا صاحب الجلالة !

فى ثلاث سنوات وبضعة شهور جرى — يا صاحب الجلالة — ما كان الظن أنه يحتاج إلى عشرات السنين لكى يصبح بعدها متوقعاً أو محتملا !

ولعل أبسط وأوضح ما يمكن أن يشير إلى ما جرى وإلى أبعاده الممتدة هذه الحقيقة التى لا يجادل فيها أحد :

فى هذه الفترة — يا صاحب الجلالة — سقط فى السعودية — وبتأثير ما وقع فى اليمن — عرش وعهد سعود الأول بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

وفى هذه الفترة — يا صاحب الجلالة — قام فى السعودية — وبتأثير ما وقع فى اليمن — عرش وعهد فيصل الأول بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود !

فى ثلاث سنوات وبضعة شهور سقط فى الرياض عرش وعهد ، بكل ما يمثله ذلك ويعنيه ، ثم قام فى الرياض عرش وعهد ، بكل ما يمثله ذلك ويعنيه أيضاً !

* * *

إن عرش وعهد سعود — يا صاحب الجلالة — لم يستطع أن يثبت أمام ما وقع فى اليمن أكثر من عام ونصف العام ، تحول بعدها من جبار عتىّ إلى منفىّ منسىّ !

وقبل اليمن ، بقليل — يا صاحب الجلالة — كان الملك سعود يظن نفسه على قمة القمم علوًّا وعزًّا ، وكنت أنت — يا صاحب الجلالة —

تحدثه حين تحدثه — وأنت وقتها ولى عهده ورئيس وزرائه — جالساً القرفصاء أمامه أو راكعاً على ركبتيك تحت قدميه !

كان يبدو القوى فى الشرق العربى والقادر .

ألم يستطع بسبعة ملايين جنيه إسترلينى أن يشترى مجموعة من ضباط دمشق لكى يقودوا انقلاباً ضد الوحدة ؟

ألم يستطع أن يملأ بالذهب أفواه عدد من أصحاب الفتاوى وضعوا اجتهادهم فى خدمته لكى يحرّموا الاشتراكية ويقرروا منافاتها للإسلام ؟

ألم يستطع أن يستأجر ولاء مجموعة من الحكام والساسة فى المنطقة تابعوه إلى مؤتمر « اشتورة » الشهير الذى كان القصد منه حصار الجمهورية العربية المتحدة سياسيًّا ؟

ما الذى يريدون منه أكثر من ذلك ؟

ضَرب الوحدة ، وهاجم الاشتراكية ، وبدأ عملية الالتفاف لعزل قاعدة الوحدة والاشتراكية !

* * *

ثم فاجأته فى هذه اللحظة — يا صاحب الجلالة — أحداث اليمن فالتفت إليها وراء ظهره يعاجلها بضربة يظنها القاصمة ثم يستدير بأسرع ما يمكن عائداً إلى ما كان فيه !

وتعرف ما حدث — يا صاحب الجلالة — لاحاجة بى إلى أن أعيده على مسامعك .

خلاصته — يا صاحب الجلالة — أن كل الأوضاع فى السعودية تكشفت على حقيقتها : التخلف والتمزق والفساد .

تكشف أيضاً — وهذا أخطر — أن بذور التمرد تستطيع أن تنمو حتى وسط رمال الصحراء ، تأكد ذلك — يا صاحب الجلالة — من موقف

الضباط الأحرار الذين انضموا وقتها إلى صفوف ثورة اليمن بدل أن يحاربوها ، وفى موقف الطيارين الأحرار الذين جاءوا بطائراتهم المحملة بالأسلحة الأمريكية إلى القاهرة لكى يفضحوا المؤامرة على ثورة اليمن بإرادتهم بدل أن يشتركوا فيها بالرغم عنهم !

هكذا — يا صاحب الجلالة — تحول تمثال الجبار العتى إلى صنم من الملح — يتشقق ويتآكل ويذوب . . . ويتساقط !

وتحركت السلطات الأعلى فى السعودية — يا صاحب الجلالة — تتدارك الموقف قبل الانهيار الكامل !

وأزيح الصنم المتهاوى وكنست البقايا من عرش وعهد سعود الأول ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

ونصب عرش وعهد جديد !

عرشك وعهدك ، يا صاحب الجلالة !

أثر مباشر من آثار ما وقع فى اليمن ! !

* * *

ولم يعد الهدف بالدرجة الأولى — يا صاحب الجلالة — إعادة عرش أسرة حميد الدين إلى صنعاء ولكن أصبح الهدف بالدرجة الأولى تحصين عرش آل سعود فى الرياض !

ولقد كانت الظروف — يا صاحب الجلالة — تقتضى خطة جديدة ، تتابعت الخطى منها يوماً بعد يوم خلال قرابة العام والنصف من حياة العرش والعهد الجديد .

لا يقل الذى حدث فيها — مدعاة للاهتمام يا صاحب الجلالة —

عما حدث قبلها فى مدة مماثلة لها من حياة عرش وعهد سعود أمام ثورة اليمن . . . وإن اختلف الشكل والمظهر .

التطورات التى كانت تجرى مسرعة فى العام ونصف العام الأخير من عرش وعهد سعود ، ما زالت تجرى بنفس السرعة فى العام ونصف العام الأول من عرش وعهد فيصل على خلاف فى الشكل وفى المظهر – يا صاحب الجلالة .

* * *

الخطة الجديدة أذكى ، وخطاها المتتابعة أكثر استناداً إلى العلم ، ثم هى متشعبة متعددة الاتجاهات .

هى نوع من الثورة المضادة التى برعت الولايات المتحدة فى صناعتها وصقلها وتغليفها ، ثم تصديرها إلى حيث يكون هناك خوف من احتمال الثورة نفسها .

نموذج تكرر قبل السعودية كثيراً فى آسيا وأفريقيا :

● تشومبى مثلا ينكشف فى الكونجو ، يوشك أن يسقط !

قبل أن يزيحه أحد تزيحه الولايات المتحدة نفسها . . . ويجىء بدله موبوتو . . . حكم وعهد جديد .

● نجو دينه ديم ينكشف مثلا فى فيتنام الجنوبية ، يوشك أن يسقط !

قبل أن يزيحه أحد تزيحه الولايات المتحدة نفسها . . . ويجىء بدله الجنرال « خان » أو الماريشال « كى » . . . حكم وعهد جديد .

وليست هذه كلها – وغيرها ، يا صاحب الجلالة – تغييرات

حقيقية ، وإنما هى إجراءات سريعة لامتصاص الصدمة واستيعاب تموجاتها !

وكذلك حدث فى السعودية !

* * *

ونطل – يا صاحب الجلالة – على الخطة الجديدة فى السعودية ، وعلى خطاها المتتابعة ، واتجاهاتها المتشعبة .

وفوق أى شىء – يا صاحب الجلالة – فمثل هذه الإطالة دراسة ممتعة لأساليب الثورة المضادة وفنونها .

لقد كان الجانب الأول من الخطة – كالعادة حتى فى فيتنام – اجتماعيًّا ، بدت ملامحه على النحو التالى :

١ – الضغط على أمراء الأسرة المالكة فى السعودية ، لكى ينسوا جميعاً فى مواجهة الخطر الدامى تناقضاتهم الشخصية وليلتفُّوا – مهما كانت النوايا والمطامع – حولك – يا صاحب الجلالة – بدل أن يتصارعوا على الغنائم فيما بينهم يتقاسمونها – كذلك فعلوا تماماً مع ضباط مجلس الحرب فى فيتنام الجنوبية ، وحين تمرد واحد منهم وهو قائد الفرقة الأولى فى دانانج هاجموه وعزلوه لحساب الماريشال « كى » بنفس المنطق الذى قتل به أمير متمرد هو خالد بن مساعد بن عبد العزيز فى شوارع الرياض نفسها فجر ذات يوم بعد شهور من حكمك يا صاحب الجلالة !

٢ – التوجيه بتوسيع قاعدة المنتفعين بالحكم فى السعودية لخلق طبقة أكبر تملك مصلحة مباشرة فى استمرار الأمور على ما هى عليه ، وليس ذلك ابتكاراً اخترعه الاستعمار الجديد ، فإن الاستعمار التقليدى حاوله على سبيل المثال فى مصر ذاتها بعد احتلالها فى أعقاب ثورة عرابى ، وفى ذلك الوقت – كما لا بد قرأت يا صاحب الجلالة – باعت سلطات

الاحتلال البريطانى بأرخص ثمن مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية لمجموعات من الأسر المصرية تريد بذلك أن تخلق طبقة مستفيدة ترتبط بالنظام كله ، وتوازن فى الوقت نفسه سلطة أسرة محمد على ، وتصلح بديلا محلياً لها إذا دعت الظروف وإذا تعذر وقف التداعى الثورى .

٣ ــ الإشارة بالاهتمام بتنفيذ بعض المشروعات العمرانية لكى يبدو وكأن النظام الحاكم يبنى شيئاً للشعب ، وتذكر ــ يا صاحب الجلالة ــ وهذه عودة إلى فيتنام الجنوبية مرة أخرى ، أن الرئيس الأمريكى ليندون جونسون حينما ذهب للاجتماع بالماريشال « كاو كى » فى « هونولولو » حمل معه فى الطائرة نفسها أكبر خبراء أمريكا فى الزراعة وفى التصنيع وفى الإسكان .

٤ ــ الإيعاز بالتفاتة إلى جماعات المثقفين وتقييد تفكيرهم ــ وهم العناصر الناقدة بالطبيعة لكل سلطة ــ عن طريق غوايات المناصب والمرتبات .

٥ ــ الاهتمام ــ مع ذلك كله ــ بالقوى التقليدية ــ لكى تظل دائماً عنصر تثبيت يشد إلى الوراء أى اندفاع إلى الأمام أو يلاشى أثره على الأقل ، ومن هنا زادت الاعتمادات المخصصة لجماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى وصلت فى آخر ميزانية إلى قرابة العشرة ملايين جنيه ، كذلك زادت الاعتمادات المخصصة للموالين من زعماء القبائل والعشائر .

* * *

الجانب الثانى من الخطة ــ يا صاحب الجلالة ــ سياسى ، بدت ملامحه على النحو التالى :

١ ــ أن يتخذ النظام لنفسه هدفاً عاماً يبدو وكأنه يكرس الجهد كله

من أجله، وفى حالة السعودية فإن صحفياً أمريكياً سابقًا يدير جهازًا للمخابرات يعمل لحساب شركات البترول فى المنطقة، ويتعاون فى ذلك مع إدارة المخابرات المركزية الأمريكية.
كان هو الذى كتب بنفسه المذكرة التى استقر الرأى فيها على أن يكون "الإسلام" هو المنطلق السياسى لدورك خارج السعودية يا صاحب الجلالة!
ولقد كانت الفكرة فى الأصل لجون فوستر دالاس، فصلها يا صاحب الجلالة كما تذكر على مقاس شقيقك الملك سعود، لكن العباءات - يا صاحب الجلالة - فضفاضة تنسدل عليك وتنسدل على سعود بدون حاجة إلى تفصيل جديد!
٢ - أن يحصل النظام لنفسه على وضع دولى يسبغ عليه مظنة الاحترام، ومن هنا - يا صاحب الجلالة - سفرات بغير عدد، تعود - بسلامة الله من واحدة - لكى تتأهب لواحدة أخرى.
حتى وإن دعوت نفسك إلى حيث تريد أن تذهب كما حدث بالنسبة لزيارتك المقبلة لتركيا، وحتى وإن لم يكن هناك هدف من وراء هذه الزيارات أو عمل.
المهم أن تتحرك وأن تبدو لأطول وقت على المسرح ذاهباً وقادمًا!
٣ - أن يحقق النظام لنفسه خارج الحدود حلفاء وأصدقاء، ولقد أسعدك الحظ يا صاحب الجلالة بمجموعة من الحلفاء والأصدقاء ليس أكثر منهم دليلاً على صحة المثل الشهير: قل لى من هم أصدقاء الرجل، أقل لك من هو الرجل!
من محمد رضا بهلوى فى إيران إلى الحبيب بورقيبة فى تونس!

من جماعة الإخوان الإرهابية بدعوى الغيرة على الإسلام — فى مصر إلى حزب الكتائب — مدعى الغيرة على المسيحية — فى لبنان !

* * *

الجانب الثالث — يا صاحب الجلالة — جانب أمن ، تبدو ملامحه على النحو التالى :

١ — إنشاء قوة ردع مسلحة ، لكن الخشية دائماً من إنشاء قوة مسلحة أنها — كما أثبتت الظروف فى عدد من البلدان — قد تتحول بولائها من الطبقة التى أنشأتها لكى تضرب بها جموع الشعب — فإذا هى تشترك مع جموع الشعب نفسها فى ضرب الطبقة التى أنشأتها أصلا !

ولضمان ألا يحدث ذلك — مهما كانت الظروف فى يوم من الأيام — يا صاحب الجلالة — أشير عليك باحتياطات متناهية فى دقتها وصرامتها :

● أن تكون القوات المسلحة السعودية قسمين : جيش من سكان المدن أساساً ، وحرس من أبناء القبائل أساساً .

● أن يكون الجيش تحت إشراف بعثة عسكرية أمريكية بحجة التدريب وأن يكون الحرس تحت إشراف بعثة عسكرية بريطانية بحجة التدريب كذلك . وبينما يتجه الجيش بإشراف الضباط الأمريكيين إلى التنسيق مع الشمال — مع الحلف المركزى ، يتجه الحرس بإشراف الضباط الإنجليز إلى التنسيق مع الجنوب والشرق مع خطة الدفاع البريطانية شرق السويس كما يسمونها !

● أن يكون توزيع الأسلحة بين الجيش والحرس محققاً للتوازن ، بمعنى أنه إذا كانت الأسلحة من نوع ما فى حوزة الجيش فإن مخازن

الذخيرة اللازمة لها تكون تحت إشراف الحرس ، ومن ذلك أيضاً أن تكون الدبابات مع الجيش وأن تكون المدافع المضادة للدبابات مع الحرس !

● أن تستقر مناصب القيادة فى الجيش فى يد أفراد من الأسرة المالكة ، ولقد جمعتم – يا صاحب الجلالة – أكبر عدد من شبابها وسافروا بالفعل فى بعثات عسكرية يعودون منها إلى مكاتب القيادة يتمركزون فيها ليصبح الجيش فى النهاية تحت تصرف هيئة أركان حرب عائلية !

● أن يكون هناك اهتمام خاص بالطيران ، لاستعماله فى قمع أية حركة ، والطائرات الجديدة كلها – يا صاحب الجلالة – من مقاتلات وقاذفات خفيفة تحت الإشراف والتنفيذ الفعلى لقيادة أجنبية أمريكية بريطانية ، ولقد تم التعاقد فعلا – يا صاحب الجلالة – مع أكثر من مائتى طيار ومساعد طيار إنجليز وهؤلاء وغيرهم من الضباط والفنيين العسكريين الأجانب وعددهم الآن فى السعودية ألفان ، مضمون – يا صاحب الجلالة – ولاؤهم للعرش وللعهد !

٢ – ولقد أشير عليك أيضاً – يا صاحب الجلالة – أن تعزز هذه الاحتياطات بإغداق العطايا ثمناً للولاء على من لا ينتمون إلى العائلة المالكة من كبار الضباط ، ومن ذلك – يا صاحب الجلالة – ما ذاع بين الناس من أنكم أقطعتم أحد قادة الجيش كل منطقة الأراضى المجاورة لمطار جدة الدولى تنقله بأمر ملكى كريم منكم إلى عداد أصحاب الملايين !

٣ – إلى جانب ذلك – يا صاحب الجلالة – عمليات الرقابة المستمرة تشترك فيها مجموعة غريبة من الأجهزة :

● المخابرات المركزية الأمريكية لها مكتب خاص فى جدة تتابع منه الصورة كلها وهى تمد رقابتها وتبعث وكلاءها المدربين إلى كل مكان حتى – مع الأسف – إلى داخل أسوار الحرم .

● مخابرات الجيش الأمريكى هى المسئولة قطعاً عن البعثة الأمريكية العسكرية التى تتولى تدريب الجيش السعودى ، وكذلك المخابرات البريطانية بالنسبة للبعثة العسكرية البريطانية التى تتولى تدريب الحرس .

● مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى له نشاط واضح فى الظهران بحجة مراقبة التسلل الشيوعى واحتمالاته بين عمال البترول فى المنطقة الشرقية .

● ثم الاستخبارات السعودية وهى على تنسيق كامل مع المخابرات الأمريكية والبريطانية . وقد كانت هذه الاستخبارات السعودية هى التى تولت اعتقال خمسة وثلاثين ضابطاً وصف ضابط فى منطقة الظهران أخيراً . . . وكانت هذه الاستخبارات – وأنت الأدرى ، يا صاحب الجلالة – مجرد منفذ للقبض وكان التوجيه من غيرها !

* * *

ثم ماذا بعد ذلك – يا صاحب الجلالة – ؟

هل تصلح هذه الخطة ، وتمكن لعرشك وعهدك – يا صاحب الجلالة – ما لم يكن متاحاً لعرش وعهد سعود ؟

إن التاريخ القريب – يا صاحب الجلالة – أثبت دائماً أن عمليات استباق الثورة ، بالثورة المضادة لا تستطيع أكثر من مجرد كسب بعض الوقت . . . أى أنها قد تعطل ولكنها لا تعوق .

بالعكس أثبت التاريخ القريب أن عمليات الثورة المضادة تستطيع – مع الوقت – تهيئة الجو الأفضل والأنسب للثورة .

إن بناء الهيكل الاقتصادى . . وتكوين الجيش . . . واتساع العمران . . وظهور طبقات جديدة وقوى جديدة وأفكار جديدة – ذلك كله سوف يولد حوافز للتغيير أقوى مما أريد استباقه بالثورة المضادة .

بعبارة أخرى – يا صاحب الجلالة – فإن الثورة المضادة قد تستطيع إجهاض الإحساس بالتمرد ، لكن الثورة المضادة تهيئ الجو لنمو خمائر الثورة الحقيقية .

دور الثورة المضادة أنها تهرول لتسبق التطور وتضع الحواجز أمامه ومشكلتها فى الوقت نفسه أن التطور حين يبدأ يرفض الوقوف فى منتصف الطريق ويندفع حتى يبلغ مداه حتى إن اضطر للدوران من حول الحواجز عائداً بعدها إلى مجراه الأصلى .

* * *

لا تصلح هذه الخطة – أيضاً يا صاحب الجلالة – بل تحمل داخلها أسباب فشلها .

كل هذا الحشد من التناقضات والموازنات وقوى الشد والجذب لا يعيش طويلا – يا صاحب الجلالة .

● خلافات الأمراء وما بينهم من حزازات ، والحساسية ما بينهم وبين المستشارين . . . ذلك مهدد بالانفجار فى أى لحظة ساخنة .

وزيادة قاعدة المنتفعين زيادة فى الضغط فى الوقت نفسه على الجماهير المعرضة للاستغلال .

وتهديد المدينة بالقبيلة وتخويف المثقفين من جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يراكم من الأبخرة ما يمكن أن يكون شحنة خطرة . . .

. . . . . .

● والإسلام والأحلاف العسكرية الأجنبية على نقيض لا يمكن أن يربطهما هدف ، أو تصل بينهما رحلات تمتد إلى أقاصى الأرض .

وتجمع بورقيبة ومحمد رضا بهلوى والإخوان المسلمين وحزب الكتائب محكوم عليه مقدماً . . .

. . . . . .

• والجيش والحرس ، والفصل ما بين السلاح وذخيرة السلاح ، وما بين الدبابات والمدافع المضادة للدبابات ، وإرسال الأمراء فى بعثات لقيادة الجيش ، وإقطاع قادة الجيش أميالا من أراضى البناء ، وخليط أجهزة المخابرات أمريكية وبريطانية وسعودية ، والاحتفاظ فى النهاية بقوة طيران أجنبية قادرة على الضرب . . .

كله ... كله – يا صاحب الجلالة – لا يحقق تأثيراً باقياً أو دائماً ، قد يعيش سنة أو سنتين أو خمساً أو حتى عشر سنوات ، لكنه بعدها لا يستطيع أن يبقى أو يدوم . . . ولا حتى بضمان أمريكى معزز بكل ما تحكم عليه الولايات المتحدة من قوة التدمير الذرى .

* * *

والزمن لا يتوقف – يا صاحب الجلالة – وكذلك التطور .

وحتى إذا عطل الناس ساعاتهم ، أو بدت معطلة أمام نظراتهم إليها بالقلق ، فإن الزمن ماض فى حسابه لا يتعطل أبداً .

لا يتوقف الزمن أو التطور بإرادة أحد !

ويا صاحب الجلالة – فإن الديك يصيح لأنه يرى طلوع الفجر . . ولكن الفجر لا يتوقف طلوعه فى انتظار صياح الديك !

الفجر يطلع دائماً !

بعبارة أخرى — يا صاحب الجلالة — فإن الثورة المضادة قد تستطيع [illegible]

[illegible]

حول الملك عائداً بعدها إلى مجراه الأصلي.

[illegible]

طويلاً — يا صاحب الجلالة.

* * *

• خلافات الأمراء وما بينهم من حزازات، والحساسية ما بينهم وبين المستشارين [illegible]

[illegible]

• والإسلام والأحزاب العسكرية الأجنبية [illegible] أن يربطهما هدف، أو تصل بينهما رحلات تمتد إلى أقاصي الأرض.

وتجمع بورقيبة [illegible] والإخوان المسلمين وحزب الكتائب [illegible] عليه [illegible] ...

الفصل الخامس عشر

جلالة الملك !

(٥ أغسطس ١٩٦٦)

برغمى تشدنى « حكومة جلالة الملك » فى السعودية إلى موضوع آخر غير الذى كان خلال الأسابيع الأخيرة شاغلى وهو : « أزمة الثورية العربية » .

وكنت قد أكملت ثلاثة أحاديث متواصلة فى الموضوع وبقى فيه حديث رابع وأخير عن الأسباب الذاتية للأزمة ، أى الأسباب التى تتحمل الثورية العربية نفسها — ووحدها — مسئوليتها وذنبها .

ولكن المذكرة التى أذاعتها « حكومة جلالة الملك » فى السعودية فى معارضة طلب الجمهورية العربية المتحدة — بتأجيل مؤتمر القمة العربى الرابع المقرر عقده فى شهر سبتمبر القادم إلى أجل غير مسمى — وثيقة مدهشة — ! — تستثير ملاحظات يصعب كبتها وحبسها أسبوعاً آخر ريثما أنتهى من حديث الأسباب الذاتية لأزمة الثورية العربية !

هكذا فإن ملء هذه الصفحة اليوم يمكن اعتباره جملة اعتراضية أقحمت نفسها إقحاماً على سياق متصل لا علاقة لها به .

جملة لم أستطع أن أقاوم إغراء أن أقولها .

وإذن أفعل ، ثم أعود بعدها إلى ما كنت فيه قبلها !

وقبل كل شىء فإن أية مناقشة حول المذكرة السعودية بمعارضة

تأجيل مؤتمر القمة الرابع إلى أجل غير مسمى — لن تكون مع « حكومة جلالة الملك » التى صدرت المذكرة باسمها وإنما ستكون المناقشة مع « جلالة الملك » ، ذلك أنه ليس هناك فى الواقع شىء اسمه « حكومة جلالة الملك » وإنما هناك بالقطع « جلالة الملك » فقط !

إن الشىء الذى يسمونه « حكومة جلالة الملك » هو خليط من المستشارين والأمراء الحاكمين .

و « جلالة الملك » نفسه — بوصفه أذكى الأحياء من آل سعود — وهذه شهادة أصدقائه وخصومه إنصافاً للأمر الواقع — هو أول من يقر بأن الخليط المحيط به من المستشارين والأمراء لا يمكن أن تكون منهم حكومة . . . لأنه هو الأعرف بهم :

* المستشارون منهم ومعظمهم من غير أبناء المملكة يعطون رأيهم بالتزام الأجر وحده ، فلقد قصدوا الرياض طلاب ثروة ولم يقصدوها طلاب فكر أو دعاة مبدأ ، وبالتالى فهؤلاء رأيهم وعملهم لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير استرضاء صاحب الأمر ، والجرى بين يديه سباقاً إلى غرضه الذى يحلمون !

* وأما الأمراء منهم فإن « جلالة الملك » أدرى بما حصلوه فى لياليهم من علم وبما اكتسبوه من خبرة ، وبالتالى فهو العارف بما يمكن أن يكون لاجتهادهم من قيمة ولمشورتهم من وزن !

من هنا فإن « حكومة جلالة الملك » — بمواقفها وسياساتها ومذكراتها — ليست غير آثار أقدام على رمال الصحراء فى السعودية .

وأى باحث عن الحقيقة يتعقب آثار الأقدام ليصل إلى صاحبها ويلحق به ، ولكنه لا يقف لكى يدير حواراً مع آثار أقدامه على الرمال .

* * *

وأول ملاحظة تبدى نفسها بنفسها وبغير أن يدفعها أحد إلى مسرح المناقشة هى أن جلالة الملك فى كل ما قالته المذكرة السعودية لم يستطع أن يتكلم إلا بلغة « الثرى » المتحكم أو الذى يتصور أنه متحكم .

« ثرى بترول » يتلخص موقفه فى النهاية عند قوله :

« إما أن تقبلوا برأيى فأدفع وإما أن ترفضوا فأمتنع عن الدفع » .

ذلك أن إسهام « جلالة الملك » — وهذه هى الحقيقة المرة — فى كل ما تم من عمل عربى موحد من أجل فلسطين خلال مؤتمرات ثلاثة للقمة سبق عقدها هو أن يشارك فى الدفع لا أكثر ولا أقل .

« جلالة الملك » لا يشغل نفسه بالتخطيط العسكرى من أجل فلسطين ولا يستطيع .

و « جلالة الملك » لايشغل نفسه بالتخطيط الدولى من أجل فلسطين ، ولا يستطيع .

و « جلالة الملك » لا يشغل نفسه بالتخطيط العلمى من أجل فلسطين ، ولا يستطيع .

و « جلالة الملك » لا يشغل نفسه بالتخطيط السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى من أجل فلسطين ، ولا يستطيع .

ما يستطيعه « جلالة الملك » ، وما استطاعه بالفعل فى الماضى ، هو أن يشارك فى الدفع .

وذلك لا عيب فيه ما دام يخدم هدفاً ، ثم إن كل إنسان لا يُطالَب ولا يمكن أن يُطالَب إلا بما يقدر عليه ويطيقه .

لكن العيب يجىء حين يبدأ صاحب المال فى الضغط بماله على الهدف وباستعماله سلاحاً للمساومة والتهديد .

وهذا بالضبط ما فعله « جلالة الملك » وهو يعلن أنه سوف يجمد كافة التزاماته تجاه مؤسسات مؤتمر القمة إذا تأجل اجتماع مؤتمر القمة الرابع عن موعده المقرر فى سبتمبر القادم !

* * *

ملاحظة ثانية تثيرها مذكرة « جلالة الملك » حين تبدى الأسف « غاية الأسف لطلب الجمهورية العربية المتحدة تأجيل عقد مؤتمر القمة العربى الرابع المقرر عقده فى الجزائر فى الخامس من شهر سبتمبر ١٩٦٦ إلى أجل غير مسمى دون إبداء سبب جوهرى يمكن الركون إليه » .

ثم يذرف « جلالة الملك » فى مذكرته دمعة حزن تحسده هوليوود على حسن أدائها ويستطرد قائلا : « إن موضوع تحرير فلسطين الجزء السليب من الوطن العربى كان يجب أن يرتفع عن مستوى الخلافات الطارئة بين الدول العربية » !

هنا تصل ديبلوماسية العقال الذهبى لملك السعودية إلى ذروتها .

. . . . . .

. . . . . .

« جلالة الملك » لا يعرف سبباً جوهرياً يمكن الركون إليه فى طلب تأجيل المؤتمر !

و « جلالة الملك » يرى أن موضوع تحرير فلسطين الأرض السليبة من الوطن العربى كان يجب أن يرتفع عن الخلافات الطارئة بين الدول العربية !

ومع أن ديبلوماسية العقال الذهبى تعرف وترى — وإن كانت تكابر حماية لامتيازاتها ومصالحها الخاصة — فإنه لا بأس من مناقشتها على أساس أنها لا تعرف ولا ترى . . . حتى لا يبقى للظنون شىء !

* * *

ولعلم « جلالة الملك » – إن لم يكن يعرف – فهذه هى الأسباب الجوهرية التى يمكن الركون إليها فى طلب تأجيل المؤتمر ، وهذه الأسباب أعلنت كتابة وخطابة فى كل يوم وكل مجال :

١ – « جلالة الملك » جرى وعقد صفقة سلاح مع الولايات المتحدة الأمريكية وكانت النتيجة الوحيدة لهذه الصفقة هى أن الولايات المتحدة الأمريكية اتخذتها ذريعة لهدية سلاح ضخمة لإسرائيل ، فيها الدبابات الثقيلة والقاذفات الحديثة والصواريخ بأنواعها ، وتمت هذه الصفقة تحت ستار حفظ التوازن فى الشرق العربى وأن أمريكا ما دامت قد وافقت على بيع السلاح لطرف عربى فإنها تجد نفسها ملزمة أدبيًّا بتقديم السلاح للطرف الإسرائيلى .

ولقد تم ذلك فى وقت كانت الجهود العربية قد تمكنت فيه من إغلاق مصادر أخرى لتوريد السلاح لإسرائيل مجاناً . بينها المصدر الألمانى والمصدر الفرنسى .

ويتصل بذلك أن جلالة الملك وقع الشرط التقليدى الذى تفرضه الولايات المتحدة مع أى طرف عربى تقدم له سلاحاً لأى سبب ، وهو الشرط الذى يقضى بأنه لا يستطيع استعمال هذا السلاح ضد إسرائيل .

ولضمان ذلك فإن جلالة الملك قبل بوضع الجيش السعودى تحت إشراف بعثة عسكرية أمريكية .

٢ – « جلالة الملك » – وما زلنا فى النطاق العسكرى – عقد صفقة أخرى مع بريطانيا يشترى منها طائرات يستأجر لها ستين طياراً سابقاً أعفوا من خدمة السلاح الجوى البريطانى ليلتحقوا بالسلاح الجوى السعودى بمقتضى عقود مع شركة « أيرورك » البريطانية .

وبذلك يضع السلاح الجوى السعودى تحت سيطرة بريطانية كاملة لا تشمل الطائرات فقط ولكن تشمل القواعد أيضاً .

يضاف إلى ذلك وجود بعثة عسكرية بريطانية تشرف على تدريب الحرس .

٣ – « جلالة الملك » على هذا الأساس وضع السعودية كحلقة فى نظام الغرب العسكرى فى المنطقة كلها وأصبح بالفعل ، عن طريق التنسيق الأمريكى البريطانى ، عضواً منتسباً إلى الحلف المركزى .

٤ – « جلالة الملك » يتعاون ، تعاوناً كاملا لا يخفيه ، مع الحكم الاستعمارى البريطانى فى الجنوب المحتل وعدن ، وفى حين اضطرت بريطانيا تحت الضربات المتلاحقة للقوى الثورية العربية أن تعلن مضطرة عن انسحابها من الجنوب العربى وعدن قبل سنة ١٩٦٨ فإن بريطانيا تريد أن تعتبر « جلالة الملك » وريثها فى المنطقة تخرج منها وتسلمها إليه لكى تبقى سيطرتها الفعلية تحت العباءة الفضفاضة لملك السعودية .

٥ – « جلالة الملك » يعادى ثورة وطنية شرعية فى اليمن ويصر على عدائها برغم كل ما بذل من الجهود لتوضيح مقاصدها الشريفة والبناءة أمامه ، ويستعين الملك على هذه الثورة العربية بجيش من المرتزقة الأجانب إنجليزاً وألماناً وفرنسيين وغيرهم من مرتزقة الحرب من كل الأجناس ويصرف عليهم الأموال الطائلة من ثروة شعب السعودية وذلك لكى يكونوا مصدر تهديد دائم لثورة اليمن وليكونوا شاغلا لجزء من الجيش المصرى الذى هو أكبر وأقدر الجيوش العربية على خوض معركة فلسطين .

٦ – « جلالة الملك » يشارك فى المؤامرة البريطانية الإيرانية على عروبة

الخليج العربى ويخطط لذلك بالتعاون مع شاه إيران عضو الحلف المركزى الاستعمارى .

٧ ــ « جلالة الملك » يسعى لحلف غربى ينتحل انتحالا له وصف الإسلامى ، وفكرة هذا الحلف من أساسها موجودة فى صفحتى ١١٥ و١١٦ من مذكرات الرئيس الأمريكى السابق أيزنهاور التى صدرت تحت عنوان « شن السلام » وقد عرضها من قبل على الملك سعود الذى تورط فيها إلى نهايته وسقط ليكمل المحاولة ــ ولحساب الولايات المتحدة ــ شقيقه الذى وُضع على العرش بعده فى السعودية .

٨ ــ « جلالة الملك » لا يعمل ضد إسرائيل بقدر ما يعمل ضد الجمهورية العربية المتحدة ولا ينفق من أمواله على الدعاية لقضية فلسطين بقدر ما ينفق على الدعاية ضد الثورة العربية .

٩ ــ « جلالة الملك » لم يستطع وهو فى زيارة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية أن يحتج على تسليح أمريكا لإسرائيل ، ولم يكن ليملك ذلك لأنه هو الذى فتح الباب للصفقة مع إسرائيل .

ولم يسجل فى بيانه مع الرئيس الأمريكى جونسون أى شجب للعدوان الإسرائيلى ضد العرب ، ولم يكن ليملك ذلك فلقد ذهب إليهم فى واشنطن يشكو من « عدوان مصرى » لا يجد غيره فى المنطقة .

لم يسجل فى بيانه فى واشنطن غير ما أرادت واشنطن تسجيله عن خطر الشيوعية الدولية . . ثم رحل ليفسح الطريق لزائر آخر حل بعده مباشرة ضيفاً على البيت الأبيض وهو شازار رئيس إسرائيل !

١٠ ــ « جلالة الملك » استغل فى ذلك كله حماية مؤتمرات القمة واتخذها ستاراً يغطى تحركاته متصوراً أن الذين سوف يجلسون معه إلى

مائدة واحدة بعد شهور فى الجزائر سوف يتحرجون قبل أن يكشفوا موقفه عارياً أمام الجماهير العربية .

هذه عشرة أسباب ، وهناك كثير غيرها ، وأظنها أسباباً جوهرية يمكن الركون إليها فى طلب التأجيل .

والأسباب العشرة — وغيرها — كلها على صلة مباشرة بالموضوع الذى ذرف عليه جلالة الملك دمعته المؤثرة — ! — وهو موضوع فلسطين الجزء السليب من الوطن العربى .

* * *

ولتوضيح الرؤية فوق ذلك أمام ديبلوماسية العقال الذهبى فليس فى كل ما عددت الآن من أسباب ، ما يمكن أن نسميه — على حد قول مذكرة جلالة الملك — « خلافات طارئة بين الدول العربية كان يجب أن ترتفع عنها قضية فلسطين » .

ومع ذلك فليس هناك خلاف طارئ بين الجمهورية العربية المتحدة التى تطلب تأجيل مؤتمر القمة الرابع ، وبين « جلالة الملك » الذى يرفض التأجيل .

الجمهورية العربية المتحدة لاتطمع فى عرش جلالة الملك ، ولا فى بتروله ، ولا فى حساباته فى أمريكا أو سويسرا ، ولا تطلب نسبة على الصفقات التى يعقدها أبناؤه وأصهاره .

الجمهورية العربية المتحدة فى صدام مع الاستعمار ، ولا يمكن الوصول إلى تصفية نهائية لعدوان إسرائيل إلا بتصفية أولية للسند القوى للعدوان الإسرائيلى وهو الوجود الاستعمارى فى المنطقة .

وجلالة الملك فى السعودية يخشى من المعركة مع الاستعمار ، بل تربطه مع هذا الاستعمار أوثق الصلات مصلحة وتخطيطاً .

وفى كل مرة تصورت الجمهورية العربية المتحدة أن الولاء العربى للرجعية – ومهما خافت من التقدم وتوجست ريبة منه – قد يدفعها فى النهاية إلى الوقوف فى الصف نفسه معها ضد الاستعمار وإسرائيل – كانت الرجعية العربية بتصرفاتها هى التى تثبت لها خطأ تصوراتها وبأن ولاء المصلحة المادية أقوى من أى ولاء !

هذا هو الخلاف فى صلبه ومن جذوره .

جوهرى كما يرى « جلالة الملك » ، ويمكن الركون إلى أسبابه فضلا عن اتصاله بفلسطين الجزء السليب من الوطن العربى كما تقول الدمعة الحزينة التى أداها الملك وأحسن أداءها فى مذكرته بمعارضة التأجيل !

* * *

ملاحظة ثالثة تثيرها مذكرة « جلالة الملك » بمعارضة التأجيل حين تشير – بعد الأسف كل الأسف لطلب التأجيل – إلى أنه يؤلمه إيلاماً عميقاً أن يرى موضوع فلسطين وقد تعرض مرة أخرى لمحاولات ترمى لتجميده .

هنا يبلغ التناقض الملكى أشده .

إن الجمهورية العربية المتحدة التى طالبت بالتأجيل لأسباب جوهرية قاطعة ، تتصل بقضية فلسطين ، أبدت فى الوقت نفسه حرصها على أن تستمر كل المؤسسات التى أسفرت عنها مؤتمرات القمة العربية فى عملها وذلك حتى لا يتجمد كل عمل عربى مشترك فى سبيل القضية العربية الأولى .

لقد أوضحت الجمهورية العربية المتحدة موقفها فى عدة نقط محددة :

١ ـ أنها لا تجد ، فى الظروف العربية الراهنة ، احتمالا لخطوات جديدة على طريق العمل العربى الموحد .

٢ ـ أن ذلك هو مدعاة لأسفها لا يدفعها إلى تحطيم خطوات سبقت مهما كان فيها من أسباب القصور ، وهى لذلك تحرص على ما انبثق عن مؤتمرات القمة من مؤسسات .

٣ ـ أنها بعد ذلك وحتى تتغير الأوضاع سوف تظل تتعاون فى نطاق الجامعة العربية بصفة عامة ، وبصفة خاصة مع الدول العربية التى تشعر بارتباطها معها بوحدة هدف .

ولتوفر الأسباب الموضوعية لوحدة الهدف أساسان :

الاستقلال الوطنى الكامل لأى بلد عربى .

ثم عمل هذا البلد أو اتجاهه إلى العمل من أجل العدل الاجتماعى .

٤ ـ أنها قبل ذلك كله وبعده كله تتحمل مسئوليتها فى المواجهة ضد إسرائيل ، وتتحملها منفردة بكل ما يعنيه ذلك من تأهب وحشد وهى تقطع الضمان لأى بلد عربى أن تكون معه بكل قواها إذا تعرض لأى خطر إسرائيلى أو استعمارى .

هذا موقف الجمهورية العربية المتحدة التى تطالب بالتأجيل ، وأما موقف « جلالة الملك » الذى يعارض التأجيل ويأسف له غاية الأسف ويتألم الألم العميق فإنه هو الذى يجمد « كافة التزاماته تجاه مؤسسات مؤتمر القمة » ما لم ينعقد المؤتمر الرابع فى موعده !

* * *

وفى هذه النقطة زاوية تستحق الالتفات حين نسأل :

ما هى مؤسسات مؤتمر القمة التى يهدد جلالة الملك بتجميدها ؟

المؤسسات التى انبثقت عن المؤتمر ثلاث :

هيئة تحويل روافد الأردن .

ثم القيادة العربية الموحدة ومشروعاتها العسكرية .

وأخيراً منظمة تحرير فلسطين وجيش التحرير .

ويقيناً فإن « جلالة الملك » لا يستهدف بتهديده هيئة تحويل الروافد لعدة أسباب ، بينها أن حكومة الأردن ، أظهر أصدقاء جلالة الملك حتى هذه اللحظة ، هى أكثر المستفيدين بمشروعات تحويل الروافد ، ولهذا قصة طويلة ليس هذا الآن مجالها .

كذلك يقيناً فإن « جلالة الملك » لا يستهدف بتهديده وجود القيادة العربية الموحدة ومشروعاتها العسكرية ، فهذه القيادة ما زالت لأسباب عديدة تعمل فى إطار محدود ، كما أن جلالة الملك فى مشروعاته العسكرية تجاوز أية مطالب للقيادة الموحدة بصرف النظر عن اختلاف هدفه من التسليح مع هدف القيادة الموحدة .

تبقى — بين كل مؤسسات مؤتمر القمة — منظمة تحرير فلسطين وجيش التحرير ، وأغلب الظن أنهما الهدف المبتغى من التجميد .

لقد كانت هناك خطة فى المؤتمر القادم تستهدف تصفية المنظمة وجيشها أو على الأقل إخضاع الاثنين .

وتأجيل المؤتمر يعطل هذه الخطة .

والتأجيل مع بقاء مؤسسات مؤتمرات القمة يجعل التعطيل خطيراً !

ومشكلة منظمة تحرير فلسطين وجيش التحرير ، المشكلة الحقيقية ، هى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد ظهر قلقها من المنظمة وجيشها لعدة أسباب :

١ — المنظمة تتحرك بأكثر مما كان مقدراً لها ، وكان المفروض أن

تكون المنظمة وجيشها مجرد واجهة، ولكن المنظمة تصر على أن تتحول إلى قوة حقيقية ، تحشد شعب فلسطين وتعبئ طاقاته المعنوية ، ثم هى تسلح جيشها وتدربه .

٢ ـ المنظمة بدأت تحرج حكومة الأردن بأكثر من القدر اللازم لاستقرار الوضع الراهن فى المملكة الهاشمية الأردنية .

٣ ـ المنظمة عقدت صلات وثيقة مع كل القوى الثورية فى العالم وبينها الصين .

٤ ـ المنظمة ردت على سفر موشى ديان رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى السابق إلى فيتنام الجنوبية ليتعلم حرب العصابات مع القوات الأمريكية هناك ـ بأن أعلنت أنها تفكر فى إرسال بعض الفدائيين لدراسة حرب العصابات أيضاً فى فيتنام الشمالية .

أكاد أظن ـ وبعض الظن ليس إثماً فى كل الأحيان ـ أن منظمة التحرير وجيش التحرير بين أول الأهداف فى مذكرة « جلالة الملك » بالتجميد إذا كان التأجيل .

ذلك ظن سوف يؤيده أو ينفيه ، على أى حال ، مستقبل الأيام ، وما أظننا سوف ننتظر مستقبل الأيام كثيراً أو طويلا !

* * *

ملاحظة رابعة تثيرها مذكرة « جلالة الملك » حين تقول فى قرب سطورها الأخيرة إنه « مهما يكن من أمر فإن المملكة العربية السعودية عازمة عزماً أكيداً على المضى فى سياستها التى تستهدف تحرير فلسطين وستسعى جاهدة لتنفيذها بالتعاون مع الدول العربية الشقيقة التى تقف بتصميم أكيد وإيمان راسخ إلى جانب تحرير الوطن السليب ونصرة شعبه» .

إن أى ممثل عظيم يقدر على تفجير الدموع نفس قدرته على تفجير الضحك !

بعد الأسف غاية الأسف ، والالم أعمق الألم ، تصل مذكرة « جلالة الملك » بعد الدموع . . . إلى الضحك !

. . . .

. . . .

* ما هى سياسة « جلالة الملك » التى تستهدف تحرير فلسطين وكيف يمكن تنفيذها ؟

هل بالسلاح الأمريكى المحظور استعماله ضد إسرائيل ؟

هل بالبعثة العسكرية الأمريكية للجيش السعودى والبعثة العسكرية البريطانية للحرس السعودى ؟

هل بالطائرات البريطانية والطيارين البريطانيين الذين يسيطرون على القواعد وعلى الجو فى المملكة ؟

هل بقوات المرتزقة البريطانيين الفرنسيين الألمان وغيرهم ؟

هل بالحلف المسمى بالإسلامى و بالتنسيق مع الحلف المركزى الذى ينسق فى الوقت نفسه مع إسرائيل ؟

بماذا ؟

. . . .

. . . .

* ثم مع أى من الدول العربية الشقيقة التى تستهدف تحرير فلسطين ؟

ما هى هذه الدول التى يثق فيها « جلالة الملك » وتثق هى الأخرى فى « جلالة الملك » ؟

أشهر الأصدقاء على أى حال هو « بورقيبة » ؟

فهل هو أحد رفاق « جلالة الملك » فى معركة تحرير فلسطين ؟

* * *

ويا فلسطين ، كم من المبكيات المضحكات تجرى باسمك !

و « يا جلالة الملك » عيب والله !

الفصل السادس عشر

طريق الملك

(٢ فبراير ١٩٦٧)

لا أعرف ما هى الأفكار التى تدور الآن فى رأس الملك فيصل ، ولا أستطيع أن أدعى علماً بها ، وإذا صح ما أسمعه عن القادمين من السعودية والذين أتيحت لهم مقابلته أخيراً ، فإن الملك يبدو فى حالة نفسية غير مريحة ، قلقاً وعصبى المزاج ، قابلا للاشتعال فى أية لحظة ، مع أى احتكاك .

ومهما يكن ، فإن تصرفات الملك ، وخطواته السياسية تعكس فعلا ذلك كله وتحمل أعراضه . . .

وإذا كان الملك على مستوى الذكاء الذى يحسبه له مؤيدوه ، أو حتى على مستوى الخبث الذى يحسبه له معارضوه . . . فهو على حق فى كل ما يشعر به الآن ويعانيه ، فإن أى قسط من الذكاء أو حتى من الخبث — وفارق كبير بين الاثنين — كاف لأن يكشف للملك أنه وقع فى خطأ العمر ، وضيع فرصة من ذهب ، فى جدة ذات يوم من شهر أغسطس سنة ١٩٦٥ ، حين ذهب الرئيس جمال عبد الناصر للاجتماع به هناك باحثاً عن الأمل فى سلام عربى تقتضيه — وتحتمه — ظروف المواجهة مع العدو فى إسرائيل !

* * *

وأعترف – بغير ادعاء – أننى على قدر الجهد الذى أملكه كصحفى يتناول الكتابة فى الشئون العربية أحياناً – لم أكن متحمساً لتلك الرحلة بالطائرة والباخرة إلى جدة ، ومع ذلك فلقد سعيت ملحًّا حتى ألتحق بهذه الرحلة إلى جدة لكى أرى وأسمع وأحاول أن أفهم بنفسى .

ومع أننى عرفت قبل السفر – ولم يكن ذلك اكتشافاً جديداً – أننى شخص غير مرغوب فيه رسميًّا فى السعودية فلقد صممت على مواصلة الرحلة .

وحين دخلنا إلى الطائرة التى حملت الوفد كله إلى ميناء رأس بناس حيث كانت الباخرة الحرية تنتظر لتعبر به البحر الأحمر إلى جدة ، فإن الرئيس جمال عبد الناصر التفت إلى ، وكنت جالساً على مقعد بجوار سفير السعودية فى القاهرة ، وقال لى ضاحكاً :

– يبدو أنهم لا يريدونك هناك !

ثم ناولنى الرئيس جمال عبد الناصر برقية تلقتها رئاسة الجمهورية من السيد عبد المجيد فريد ، الأمين العام للرئاسة ، وكان قد سبق إلى جدة لإعداد ترتيبات الزيارة .

وفى هذه البرقية كان الأمين العام للرئاسة يروى تفاصيل اتصالاته مع السيد أحمد عبد الوهاب رئيس التشريفات الملكية فى السعودية ، وبين ما فيها أن رئيس التشريفات سأله عما إذا كان هناك صحفيون مع الوفد القادم من مصر ؟ فقال له الأمين العام للرياسة إن هناك واحداً ، وأمسك رئيس التشريفات بقلمه يكتب الاسم على ورقة فى يده . لكن القلم توقف حين سمع به . ثم نظر إليه بعد فترة صمت وسأل :

– صحيح ؟

فقال له عبد المجيد فريد :

– صحيح . . .

ومرت فترة صمت واضطر عبد المجيد فريد أن يسأل رئيس التشريفات السعودى :

– هل هناك اعتراض رسمى على مجيئه ؟

ومرت فترة صمت أخرى وقال الشيخ أحمد عبد الوهاب :

– رسمياً لا أظن . . . ولكنه من بين ألف صحفى تصورنا أن يجيئوا إلى السعودية مع وفد الجمهورية العربية المتحدة ، فإن هذا الاسم بالذات لم يخطر لنا !

ثم استطرد رئيس التشريفات السعودى :

– بالطبع أنتم أحرار فى تقرير من يجىء ومن لا يجىء . . . ومع ذلك فليس له أن يتوقع – بعد كل ما كتب عن الملك فيصل – أننا سوف نرحب به هنا !

وفرغت من قراءة البرقية وقلت ضاحكاً أنا الآخر :

– الطائرة ما زالت حتى الآن على الأرض لم تقلع بعد . . . وأستطيع أن أحمل حقيبتى وأنزل !

وكان الشيخ محمد على رضا سفير السعودية الجالس بجانبى يتابع الحديث وأشار الرئيس فناولته البرقية التى كانت فى يدى فقرأها وقال لى بحماسة :

– يا أخى . . . هذا رئيس التشريفات شاب صغير ، لا يعرف شيئاً ، ولا يعبر قطعاً عن الملك ، وسوف ترى بنفسك كيف يرحبون بك ،

ونحن نبدأ الآن صفحة جديدة ، وبالله لا تدع لمثل هذا الصغار أثراً عليك .

وقلت بصراحة :

– فى الحقيقة ، إننى أعرف موقفى تماماً مع الحكم فى السعودية ، وبالطبع فإننى لا أنتظر الترحيب بى ، ولا أريده ، وأنا ذاهب كصحفى لأتابع ما يجرى ولست ذاهباً كضيف ، وكل ما يهمنى أن لا أجد ما يعترض ممارستى لعملى !

وأقلعت الطائرة من الإسكندرية إلى رأس بناس ، ثم أقعلت الباخرة الحرية من رأس بناس إلى ميناء جدة .

* * *

أعترف – بغير ادعاء أيضاً – أن كل تجربتى خلال هذه الرحلة القصيرة لم تساعد على إزالة شكوكى فى الملك فيصل بقدر ما ساعدت على تثبيتها !

منذ البداية كانت الشوارع كلها قد أخليت من الجماهير وكان رجال الحرس من قبائل البدو فى بعض الشوارع الفرعية يضربون الناس بكعوب المدافع الرشاشة وهم يحاولون التدافع إلى الشارع الرئيسى الذى يمر به موكب جمال عبد الناصر .

وضايقنى المنظر وقلت لأحد الرسميين السعوديين وكان من رجال الأمن العام أجلسوه معى فى السيارة :

– لماذا القسوة إلى هذا الحد مع الناس ؟

قال بحزم :

– هذه إجراءات أمن ضرورية !

* * *

ثم قضيت تلك الليلة إلى قرب الفجر فى مناقشات حامية مع بعض الأمراء . . .

* * *

ثم استيقظت بعد الفجر بقليل على شخص بجانب فراشى يهزنى وفتحت عينى لأجد ضابطاً بملابسه الرسمية تحمّل مخاطر يعلم الله بها ليقول :

– يا أخى . . . لماذا جئتم إلى هنا . . . هل تثقون فى فيصل . . هو أسوأ مما تتصورون وليس السلام فى نيته . . . ونحن هنا فى قلب الحقيقة . . . نراها ونعرفها .

قلت له هامساً :

– حذار . . . فقد يسمعك أحد .

قال بصدق المؤمنين :

– يهمنى أن تسمعنى أنت !

وجلس على مقعد أمامى يتحدث وأنا ممزق بين رغبتى فى الاستماع إليه و بين رجائى إليه بأن ينصرف حرصاً عليه .

* * *

ثم كان ختام تجربتى فى جدة حديثاً قصيراً مع الملك ، بعد أن تم توقيع الاتفاق بينه و بين الرئيس جمال عبد الناصر .

كنت واقفاً بين صف من الناس راح هو يصافحهم ويتقبل منهم التهانى بتوقيع الاتفاق . . . ووجدنى أمامه وقال :

– بلغنى أنك اعتمرت فى مكة . . . طفت حول الكعبة وسعيت بين الصفا والمروة أمس . . .

قلت :

– فعلا . . .

قال :

– لعلها توبة . . . !

قلت على الفور :

– إن الناس يتوبون عن خطاياهم ولكنهم لا يتوبون عن معتقداتهم !

ورأى الملك أن يوقف هذه المبارزة الكلامية فانتقل إلى واحد فى الصف بعدى يتلقى منه التهنئة ، وأسرعت إلى سلالم القصر أنزلها لأركب سيارة إلى مطار جدة عائداً إلى القاهرة ، وكان رفيقى فى السيارة السفير يحيى عبد القادر سفير الجمهورية العربية المتحدة لدى السعودية ، وشعر الرجل بحماسة الديبلوماسى الكفء بما يدور فى رأسى وقال :

– لا يبدو عليك أنك متفائل .

وكان حديث طويل بيننا استمر حتى وصلنا إلى سلم الطائرة وقلت له :

– أعدك على أى حال ألا أكتب كلمة واحدة من شأنها التأثير على الجهد الضخم الذى بذلتموه جميعاً خلال هذين اليومين فى جدة . . . لقد كان جهداً رائعاً ، ومهما كانت شكوكى أو مخاوفى – فإنى أتمنى له النجاح . . . وأتمنى أن يفهموه ويقدروه .

* * *

والآن على ضوء الحوادث نجد أنهم – وأقصد الملك نفسه قبل غيره من المحيطين به – لم يفهموا ولم يقدروا .

كل شىء حملوه فوق ما يحتمل ووضعوه فى غير مكانه الصحيح :

ذهاب جمال عبد الناصر إلى جدة اعتبروه مظهر ضعف ، ولم يعتبروه – كما كان فعلا – دليل قوة .

لقد كان أكثر الدوافع إليه أن الجيش المصرى العامل فى اليمن ضاق ذرعاً بالاستفزازات المتكررة الموجهة إليه من وراء حدود السعودية ، متسللون من هناك يتقدمون ، وتوجه الضربة إليهم فيهربون إلى داخل الحدود ، يعيدون تنظيم أنفسهم ويعودون . وهكذا بغير نهاية ، والحل الوحيد — المقبول عسكرياً بصرف النظر عن كل حكايات السياسة وأحاديثها — هو أن يسمح للجيش بتأمين قواته بأن تترك له حرية العمل ضد قواعد العدوان التى تحرضه وتدفعه ثم تأويه وتحميه !

ولم يكن معقولا أن يحجب عن الجيش حقه الطبيعى فى حماية نفسه وبالفعل حدد له موعد يوم ٧ سبتمبر يحق له بعده أن يرد كما يشاء . ثم أراد جمال عبد الناصر بذهابه إلى جدة أن يسبق هذا الموعد بمسعى للسلام قد يصل إلى غايته قبل أن تتفاقم الأمور .

* وصدق جمال عبد الناصر خلال الأحاديث الممتدة كلها لم يقبلوه كما هو دائماً وإنما أخذت منه الأهواء ما أرادت وأعرضت عن باقيه .

ولقد أشار جمال عبد الناصر فعلا إلى موقف الجيش المصرى فى اليمن وأنه ضاق ذرعاً بالاستفزازات ،وأنه يطلب حق العمل وراء الحدود السعودية وهذا ما حاول تجنبه حتى الآن .

لكن الملك فيصل لم يفهم أو هو لم يشأ — بأهوائه — أن يفهم وكل ما وعاه فى هذه النقطة طبقاً لرواية نشرتها إحدى الصحف فى جدة بعد أيام من زيارة جمال عبد الناصر — ونقلتها عنها بعض صحف بيروت التى تعيش على حساب الملك ولحسابه هو :

« أن الرئيس المصرى حين نزل من الباخرة أسرع نحو جلالة الفيصل المعظم ، وقال له : يا جلالة الملك الحقى إن الجيش ثائر ضدى !

وقال له جلالة الفيصل المعظم بسماحته الكريمة : اطمئن ونحن عرب وإخوة وسوف نساعدكم إن شاء الله » !!

* وبعد ذلك فإن الملك أساء تفسير كل خطوة قطعتها الجمهورية العربية المتحدة لكى تلاقيه فى منتصف الطريق .

كانت الجمهورية العربية المتحدة على استعداد لأن تهيئ له جواً يستطيع فيه أن يتعايش سلمياً مع ثورة اليمن ، لكنه تصور أن الجمهورية العربية المتحدة على استعداد لأن تبيع له ثورة اليمن !

وكانت الجمهورية العربية المتحدة على استعداد لتقديم أية ضمانات له بأنها سوف تسحب قواتها من اليمن فى نفس اللحظة التى يكف فيها عن التحرش بنظامها الجمهورى الذى اختاره شعبها بإرادته الحرة وحدها . . لكنه تصور أن الجمهورية العربية المتحدة لا يهمها غير الانسحاب من اليمن ، تنفض يدها من أموره ، وتغمض عينيها وتنساه !

ووصل الأمر بالملك إلى حد أنه لم يعد يدارى مايفعله أو يغطيه :

● فى اجتماع حرض الذى أريد به تحقيق الوحدة الوطنية فى اليمن دخل مع الداخلين من الجانب السعودى ضابط أمريكى هو الكولونيل كينيدى الذى يدعى الإسلام ويسمى نفسه « عبد الرحمن كندة » بينما هو الممثل الرسمى لوكالة المخابرات المركزية مع قوات المرتزقة الذين حشدهم الذهب السعودى فى معسكرات نجران وجيزان وأطلقوا عليهم اسم جيوش الملكيين .

● مع كل الوسطاء الذين حاولوا التدخل بين الرياض والقاهرة بدا الملك واثقاً من نفسه وكأنه يدير الكرة الأرضية بلمسة من يده ويقول بضيق صدر : هذا آخر ما عندى ولست على استعداد لطول النقاش فيه !

• وفى أى مكان ذهب الملك إليه، ولقد ذهب إلى أماكن عديدة وبعيدة كان يتحدث باسم كل العرب وباسم كل المسلمين ولم يكن فى ذلك ضرر فلقد كان قبل أى شىء – فى تقدير القاهرة وقتها – ملكاً عربيًّا ومسلماً .

لكن الضرر بعد ذلك بدا محققاً ، فلقد بدأت الأمور تتكشف شيئاً فشيئاً ، وتتضح النوايا والخفايا فإذا الملك يعمل ضمن مخطط كامل : بريطانى أمريكى .

وطويت ، وكان لا بد أن تطوى ، صفحة جدة !

* * *

من يومها ، وحتى الآن هبت عواصف شديدة على شبه الجزيرة العربية ، وتحركت تلال من الرمال – كما يحدث فى الربع الخالى – وغيرت أماكنها ، وتاهت قوافل كثيرة على دروب مجهولة فى وسط الصحراء !

وأين الملك فيصل الآن بعد هذا كله وأين مكانه ؟

الصورة على النحو التالى :

١ – إن الحلف الإسلامى الذى خرج الملك ليدعو إليه ببركات أمريكا ودعواتها لم يصل إلى بعيد ، أقصى ما وصل إليه هو قصر الطاووس فى طهران ، وقصر بسمان فى عمان وقصر الغلال فى تونس ، ونحن فى عصر لم يعد فيه الحكم للقصور .

ولقد تنبهت جماهير الأمة العربية إلى أن هذا الحلف ليس غير امتداد لمشروع الدفاع القديم عن الشرق الأوسط ، ولحلف بغداد بعده ، ولمشروع أيزنهاور فى نهاية المطاف .

وبغير جماهير الأمة العربية فإن الحلف الإسلامى لا يمكن أن تقوم له قائمة .

٢ - يترتب على سقوط الحلف الإسلامى تغير خطير فى وضع الرجل الذى تصدر الدعوة إليه ، وهذه مشكلة كل من يرضى لنفسه أن يقوم بدور لحساب القوى الكبرى . . .

يبدأ بادعاء القيادة وينتهى بطلب الحماية .

حين يفشل فى دعواه ، يهرعون بالطبع إلى تغطية انسحابه وذلك أبسط حقوقه عليهم .

كانوا فى حاجة إليه فأصبح فى حاجة إليهم ، وكان مكانهم خلفه ، فأصبح مكانه خلفهم !

٣ - لم يقتصر ذلك عليه وإنما امتد إلى الدولة نفسها .

والسعودية التى عاشت منذ إنشائها فى وضع شبه مستقل أصبحت الآن شبه محمية ، كغيرها - على اختلاف الحجم وتفاوت درجة الغنى - من محميات شبه الجزيرة العربية سواء فى الجنوب أو فى الخليج .

قواعد عسكرية أجنبية تسيطر على أرض المملكة .

بعثات عسكرية أجنبية تشرف على الجيش وتتولى قيادته .

مستشارون أجانب أو مشورات أجنبية ترسم كل سياسة وتصدر أى قرار !

٤ - والأحوال الاقتصادية تسوء ، ولقد كان هناك من تفاءلوا بعهد فيصل داخل السعودية بعد أن صدقوا كلماته المستعارة عن البناء والتنمية .

كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالقصور . . . وبسماسرة الحب الذين يطوفون بالقصور !

لكن القصور التى تبنيها المطامع السياسية فى الهواء أكثر تكلفة من القصور القابعة على الأرض . . . كما أن تكاليف سماسرة الحرب أغلى بكثير من تكاليف سماسرة الحب !

لقد اختلف نوع البالوعات التى يجرى إليها ويضيع فيها ذهب البترول الأسود .

لكن البالوعات الجديدة أكثر شراهة ونهماً :

* إن الملك فيصل يدفع مئات الملايين لصفقات سلاح كل ما حولها مشبوه وأية قيمة لها موضع شك !

* والملك فيصل يدفع عشرات الملايين ، وسوف يظل يدفعها ثمناً لخيالات تبددت ، وإن الملك ما زال يراها – رؤية السراب فى الصحراء – وأبرزها الحلف الإسلامى .

* والملك فيصل يدفع الملايين ويرتب دفعها بانتظام لكل من يستطيع أن يبيعه وهماً ولو على شكل مقال فى صحيفة أو صورة على غلاف إحدى المجلات بالألوان !

٥ – والشعب فى السعودية يستيقظ ويسأل نفسه أسئلة حائرة كلها الآن بغير جواب :

* لماذا نحن فى عزلة عن بقية جماهير الأمة العربية ؟ ولماذا نحن بعيدون عن خط النضال العربى العام من أجل التقدم السياسى والاجتماعى ومن أجل الحرية ومن أجل فلسطين ؟ ولحساب من هذا الحلف

الإسلامى وما الذى ورطنا فيه ؟ وما هى هذه البعثات العسكرية الأمريكية والبريطانية التى أصبح لها الأمر والنهى فى بلادنا . . . لماذا ؟

* لماذا نحن أطراف صدام مع مصر ؟ ولماذا نحن فى الطريق إلى شكوى ضدها فى مجلس الأمن كما فعل من قبل نورى السعيد . . . كما فعل من قبل فاضل الجمالى . . . كما فعل من قبل كميل شمعون . . . كما فعل من قبل الملك حسين ؟

هل من أجل أسرة حميد الدين . . . هذه التى نعرف ماضيها ونعرف حاضرها ؟

هل من أجل الإنجليز والأمريكيين . . . ومنذ متى كانوا أصدقاءنا وأصدقاء لآمال أمتنا ؟

هل من أجل الملك حسين وشاه إيران والحبيب بورقيبة . . . وما هى قيمة هؤلاء جميعاً وأى ود بيننا وبينهم موجود أو مفقود ؟

* أين تذهب أموالنا الطائلة ، وماذا يبقى لنا بعد جفاف الينابيع وسوف تجف يوماً ، ولا يكون تحت تصرفنا إلا ما استطعنا بناءه فى سنوات تدفقها بالخير العميم ؟

أموالنا الآن ، أو ما نحصل عليه منها ، تأخذه أمريكا وبريطانيا مرة ثانية ثمناً لسلاح لا نعرف من يستعمله ، ولأى هدف ؟

وما يبقى من السلاح يذهب فى مشاريع لا نراها ولن نراها لأنها الوهم المعلق فى الهواء كمشروع الحلف الإسلامى وما يتصل به .

وما يبقى بعد السلاح وبعد مشاريع الوهم يذهب إلى جيوب الأسرة المالكة والمحيطين بها من المقربين .

والكلمات المستعارة عن البناء والتنمية أين هى ؟ ولماذا تلاشت كما تتلاشى الفقاقيع الطائرة ؟ !

٦ ـ ثم هذه الانفجارات التى تدوى على أرضنا بين الوقت والآخر لم يجد بعضنا مفراً من تفجيرها للفت الأنظار والتنبيه إلى التململ المتزايد .

ولقد كنا بلداً آمناً . . . فما الذى جاء بالقلق إلينا . . . إلى داخل بيوتنا نفسها ؟

والمشكلة لا يحلها استبدال مدير أمن عام ، بمدير أمن عام آخر بدله كما فعل الملك هذا الأسبوع وإنما المشكلة أكبر من ذلك وأعمق جذوراً ؟

* * *

ولا بد أن بعض هذه الأسئلة يصل إلى الملك فيصل . . .

ولعلها السبب فيما يرويه عنه القادمون من السعودية والذين أتيحت لهم ـ كما قلت ـ مقابلته أخيراً : من أنه يبدو فى حالة نفسية غير مريحة ، قلقاً وعصبى المزاج ، قابلا للاشتعال فى أية لحظة مع أى احتكاك .

ومهما كانت إجابة الملك عن الأسئلة المطروحة بعنف داخل مملكته ، والتى تصل أو يصل بعضها إليه مهما تكاثف الضباب من حول عرشه . . . ومهما كان دور هذه الأسئلة أو الإجابات المحتملة عنها فى حالة الملك النفسية . . . فإنه لا يستطيع أن يقول إن الفرصة لم تكن فى يده وإنه لم يضيعها بيده أيضاً .

لا يستطيع أن يقول إن النصيحة لم تصله وإنه بنفسه سد أذنيه عنها .

لا يستطيع أن يقول إن التحذير لم يبلغه وإنه أدار رأسه تعالياً وغروراً .

لا يستطيع الملك أن يقول شيئاً من ذلك . . .

* * *

لكنه ربما لم يكن يستطيع أن يفعل غير ما فعله .

لقد وضع نفسه على طريق سبقه إليه غيره ، ولم يعد فى طاقته أن يتوقف فى منتصف الطريق .

إن نظرة واحدة شاملة على شبه الجزيرة العربية تقدر وحدها على كشف طريق الملك .

فلنلق نظرة !!

الفصل السابع عشر

هل وصلنا إلى نقطة اللاعودة مع فيصل ؟

(١٠ فبراير ١٩٦٧)

سوف أتوقف – قليلا – قبل الموضوع الذى كنت أريد أن أتناوله اليوم – عند مناقشة دارت بين ديبلوماسى قادم من الشرق الآسيوى وبينى . . .

ديبلوماسى كانت بلاده – وأظنها ما زالت – تفكر فى القيام بمسعى للوساطة بين مصر والسعودية .

وحين التقينا فإنه قال لى :

– أريد أن أسألك كصديق : هل هناك شىء نستطيع أن نقوم به بين القاهرة والرياض .

وهل وصلت الأمور بينكم وبين الملك فيصل إلى نقطة اللاعودة ، ثم ما هى الاحتمالات بعد ذلك ؟

قلت له :

– سوف أضع أمامك ما عندى ، لكنى أرجوك ألاّ تبالغ فى شده لكى يغطى أرضاً ليس فى طاقتى أن أغطيها . . أعنى أننى أرجوك ألا تأخذ منه غير مدلوله الحقيقى : رأى صديق لصديق . . وأكثر من هذا لا تحمله .

بعبارة أصرح فلا تتصور أن ما أقوله هو وجهة النظر الرسمية . . .

وجهة النظر الرسمية ، وفى ظنى أنه لا بد لك أن تحصل عليها ما دمتم بالفعل تفكرون فى مسعى — تستطيع الحصول عليها من وزير الخارجية . . أو من الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية فى لجنة متابعة تنفيذ قرارات مؤتمرات القمة . . .

وأما ما تسمعه منى فلا يزيد على أن يكون رأى مراقب للتطورات ومتابع لها من مركز استطلاع صحفى . . .

وإذا كان هذا التحفظ واضحاً أمامك فإننى أبدأ . . .

قلت له :

— لثانية واحدة سوف أكرر أمامك مقدمة معادة فأقول لك إن مصر لم تترك شيئاً فى مقدورها أو فى مقدور البشر ، لم تجربه فى سبيل الوصول إلى تفاهم مع الملك فيصل ، وأبرز الأدلة على ذلك ذهاب جمال عبد الناصر بنفسه إلى جدة ليقابل ملك السعودية فى بلده وعلى أرضه .

ولم يكن الهدف مجرد العلاقات مع السعودية ، وإنما قبله محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من وحدة العمل العربى خلال مؤتمرات القمة ، وكذلك سد كل الثغرات أمام السياسة الأمريكية البريطانية التى أرادت وتريد دائماً تحقيق سيطرتها على العالم العربى من خلال سياسة « فرق تسد » التى تحاول استغلال اختلاف النظرات السياسية والاجتماعية داخل العالم العربى ، وهو أمر طبيعى فى مرحلة تحول عميق — لكى تغرق النضال العربى فى دوامات المحاور المتصارعة : بغداد ضد القاهرة مرة على عهد العرش الهاشمى — ثم دمشق ضد القاهرة مرة أخرى على عهد الانفصال الرجعى — ثم أخيراً الرياض ضد القاهرة .

وقلت له :

– ونقطة أخرى مكررة أستأذنك فى إعادتها هى أن الملك فيصل لم يحسن تقدير الأسباب التى دعت القاهرة إلى طلب التفاهم معه .

وأقول لك – حقيقة – إننى حين أنظر الآن إلى وقائع العشرين شهراً التى انقضت بعد اجتماع جدة – فإننى لا أستطيع أن أجد سبباً مقنعاً يبرر الطريقة التى تصرف بها الملك إلا أن يكون السبب جرعة مضاعفة من الغرور أدارت رأسه وطارت به وسط السحب !

وفى الحساب الدقيق فإن الملك لم يكن لديه كثير يعتمد عليه :

* كان لديه مال طائل ، وكانت وراءه قوى كبرى تسنده وتخطط له وتشجعه وتحرضه ، وكان حوله جمع من الأمراء ينتظرون إشارته ، وكان أمامه حشد من الأعوان – بعضهم على مستوى الملوك كالملك حسين – يهرولون ويسبقونه إلى ما يريد !

لكن المال له نهاية ، والقوى الكبرى لها مشاكلها ، وأمراء السعودية خبرتهم بالليل أكثر من خبرتهم بالنهار ، وأما الأعوان فلا فائدة فى الإخلاص المدعى ، المشترى بالثمن رخيصاً بسعر الإخوان المسلمين ، أو أغلى بسعر الملك حسين ، أو فادحاً بسعر شركات العلاقات العامة الأمريكية ودعاياتها كتابة وإذاعة .

* ولقد صوروا له أن مصر محاطة بالمشاكل الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، كما أنها إذا ما استطاعت أن تتخلص من حصار ما يحيط بها من المشاكل فإن الضغط الأمريكى – عن طريق صفقات القمح – قادر على أن يكون لجاماً يشدها ويكبح حركتها وبالتالى فهو أمامها فى أمان ، وهو هذه المرة – أكثر من غيره فى أى مرة أخرى – أقرب إلى ما يتمنون ويتمنى !

وفاته فى ذلك كله ، وفاتهم ، أن مصر تعتمد – برغم أية مشاكل فى

النقد السائل – على اقتصاد كبير تزيد طاقة الإنتاج السنوى فيه على أربعة آلاف مليون جنيه ، بل إن مشكلة السيولة النقدية انعكاس لاتساع طاقة الإنتاج بسبب الاندفاع إلى التنمية ، كما أن حجم الجيش المصرى يسمح له بالاحتفاظ بفرقة أو فرقتين فى اليمن لخمس سنوات ، ولعشر سنوات – إذا كان هذا لازماً – وبدون أن يؤثر ذلك على فعالية جبهته الأساسية فى مواجهة إسرائيل ، ثم أن القمح الأمريكى لا يكفى أن يكون لجاماً لمصر ولو كان ذلك يكفى لاختلف موقف مصر من مشروعات السيطرة الغربية منذ حلف بغداد ، إلى مشروع أيزنهاور إلى غيرها من المخططات المشبوهة !

. . . .

. . . .

ذلك كله لا يفسر الطريقة التى تصرف بها الملك .

والتفسير الوحيد الذى لا أجد غيره – وهو تفسير نفسى – هو الجرعة المضاعفة من الغرور !

* * *

قلت له :

– نترك ذلك كله مما هو مكرر ومعاد ، ومما هو قائم على الاستنتاج والاستقراء ، ونلقى نظرة على الوقائع فى محاولات التفاهم منذ اجتماع جدة :

● إن اجتماع جدة لم يصل إلى أكثر من اتفاق عام ، ولم يتطرق إلى تفاصيل حل للمشكلة فى اليمن ، وحين أراد الرئيس جمال عبد الناصر أن يطرح التفاصيل للمناقشة حتى لا يكون هناك سبيل إلى سوء الفهم أو التأويل فإن الملك فيصل كان رأيه أن الاتفاق على المبادئ أهم

– وهذا جرى – وأما التفاصيل فتترك لما بعد ، لجهود اليمنيين أنفسهم وللاتصالات الدبلوماسية بين القاهرة والرياض .

● وكان الاتفاق العام فى جدة ينص على مؤتمر لكل القوى اليمنية يعقد فى « حرض » وعندما أحست القاهرة أن مؤتمر « حرض » قد يتعرض لمناورات لا ضرورة لها فلقد عرضت على الملك أن تدخل الدولتان – مصر والسعودية – إلى المؤتمر بموقف موحد تتفاهمان عليه تفادياً لأية مضاعفات كما أن تفاهم الدولتين قد يساعد كل الأطراف اليمنية على حسن تقدير موقفها وكان رد الملك رسمياً : « أرى أن نترك الأمر لليمنيين وحدهم ! »

والخطير فى الموضوع أن الجانب اليمنى الذى لجأ إلى السعودية وعاش وعمل فى أراضيها لم يجئ إلى « حرض » وحده . . وإنما جاء من السعودية وبين أعضائه رسمياً ضابط أمريكى يمثل إدارة المخابرات المركزية الأمريكية وهو « الكولونيل كيندى » .

● وتأزمت الأمور فى « حرض » وأرسلت القاهرة رسمياً إلى الملك تعرض عليه أن يطير منها على الفور وفد خاص يقابله بغية توضيح الأمور ولمساعدة المجتمعين فى « حرض » وكان رد الملك رسمياً : « لا أستطيع الآن استقبال وفد . . فأنا ذاهب بعد غد إلى طهران وأحتاج يوماً للراحة قبل السفر ! »

وفشل مؤتمر « حرض » بينما الملك فى زيارته الرسمية فى « طهران » ، وكانت تلك هى الزيارة التى أصدر فيصل فى نهايتها مع محمد رضا بهلوى بيانهما المشهور بالدعوة إلى الحلف الإسلامى وتعهدهما بالعمل لإقامته !

● وتوسطت الكويت ، وخلال الوساطة الكويتية التى استمرت نشيطة ما بين مايو سنة ١٩٦٦ إلى سبتمبر من نفس السنة ، ثم تعثرت بعدها

– وأكاد أقول انتهت – فإن مصر لم تترك تأكيداً من شأنه بث الطمأنينة في قلب الملك إلا قدمته إليه عن طريق الكويت .

نقطتان تمسكت بهما مصر ولم تتمسك بغيرهما :

النقطة الأولى إبعاد أسرة حميد الدين باعتبار أن ثورة الشعب اليمنى أظهرت رأيه القاطع فى هذه الأسرة .

والنقطة الثانية أن يستفتى الشعب اليمنى ، فى استفتاء عام ومباشر حول نظام الحكم الذى يريده .

قبلت مصر أن يكون النظام اليمنى خلال الفترة السابقة على الاستفتاء الشعبى تحت اسم الدولة اليمنية وذلك حتى تتاح للملك فرصة شهور يؤقلم نفسه فيها ومزاجه على تحمل اسم الجمهورية الذى يطالعه فى الناحية الأخرى من حدوده الجنوبية !

وقبلت مصر أن تسحب قواتها العسكرية من اليمن فى مدى تسعة شهور .

وقبلت مصر أن تشرف على الاستفتاء ثلاث دول عربية تتفق عليها مع السعودية وترسل كل من هذه الدول الثلاث قوة رمزية من جيشها إلى اليمن لا تقل عن ألف جندى لكل منها لكى تساعد على ضمان نزاهة الاستفتاء الشعبى .

ولقد كانت النقطة التى تعثرت عندها الوساطة الكويتية هى إبعاد أسرة حميد الدين عن حدود السعودية مع اليمن .

وافقت السعودية من حيث المبدأ على إبعادها ثم وقع الخلاف على التوقيت .

رأت مصر أن يتم ذلك عندما يتم سحب نصف القوات المصرية من اليمن .

وأصرت السعودية على أن لا يتم ذلك إلا بعد سحب كل القوات المصرية من اليمن .

وكان معنى ذلك أن كل ما تريده السعودية هو انسحاب الجيش المصرى من اليمن لكى تتاح لها بعد ذلك حرية التدخل المطلقة ضد الثورة اليمنية ، ويكون على مصر أن تقبل الأمر الواقع أو تبدأ قصة الذهاب إلى اليمن من أول وجديد !

● وخلال الوساطة الكويتية لم تتوقف مصر عن محاولة الاتصال المباشر وكتب الرئيس جمال عبد الناصر خطاباً إلى الملك فيصل . . وبعد أربعين يوماً جاء السفير السعودى إلى الرئيس جمال عبد الناصر يحمل الرد !

وكان إناء الصبر قد امتلأ إلى حافته ، وقال الرئيس جمال عبد الناصر للسفير السعودى عبارة لها معناها . . . قال له بالحرف :

« قل للملك إنه إذا سارت الأمور على هذا النحو فإن الخلاف بين مصر والسعودية بسبب مشكلة اليمن قد ينقلب إلى صدام بين مصر والسعودية أوسع بكثير من مشكلة اليمن .

قل له إننى لست أرى داعياً لموقف العناد الذى يتخذه . . . وقل له إننى أذكره بالقول المشهور : إن العند يورث الكفر ! » .

* * *

وبعدها نحت مصر جانباً محاولات التفاهم وأحاديث الوساطة وأعادت ترتيب سياستها للمدى البعيد تحت استراتيجية ما عرف فيما بعد بسياسة النفس الطويل .

وكان لهذه السياسة جانبان :

● الجانب الأول تجميع الجيش المصرى العامل فى اليمن على شكل قوة

واحدة ضاربة وقادرة على الردع . . وترك جميع المواقع المتناثرة والمتباعدة لقوات الجيش اليمنى وللقبائل اليمنية ، مع إعلان الاستعداد للتدخل ضد قواعد العدوان فى السعودية مباشرة إن حاولت التحرش باليمن .

ومع أن القوات المصرية مثلاً أخلت مدينة « صاعدة » وهى على بُعد خمسة عشر كيلومتراً فقط من الحدود السعودية . . . ومع أن القوة الموجودة فى « صاعدة » من الجيش اليمنى الجمهورى لا تزيد على سرية واحدة . . . ومع أن « صاعدة » هى العاصمة الروحية للمذهب الزيدى مذهب الإمامة السابقة فى اليمن . . ومع أن احتلال « صاعدة » كان يصلح لكى يكون بنداً دعائيًّا هائلا . . . إلا أن أحداً حتى هذه اللحظة لم يقترب منها ويعرف الملك فيصل تماماً أن احتلالها بواسطة عمليات تسلل من السعودية سوف يستتبع وعلى الفور ردعاً عسكريًّا مصريًّا ضد القواعد التى يتحرك منها التسلل فى السعودية .

● والجانب الثانى هو تدعيم الثورة اليمنية بحيث تنتقل من الحياة فى جو الحرب إلى الحياة فى جو السلام ولقد تحطمت مؤامرات كانت تحاول استغلال تناقضات الحكم الجمهورى فى اليمن وعاد الرئيس عبد الله السلال إلى صنعاء ليرأس بنفسه وزارة تعمير فى اليمن . .

. . . .

. . . .

وحدث ذلك كله فى وقت كانت جبهة تحرير الجنوب العربى وعدن قد نجحت خلاله فى توجيه ضربات قاضية للوجود الاستعمارى البريطانى فى هذه المنطقة الخطيرة والحساسة فى شبه الجزيرة العربية .

. . . .

. . . .

وبدأ التيار يتحول

وظهرت آثار هذا التحول داخل المملكة العربية السعودية نفسها .

* * *

قلت :

– لو اكتفينا بالنظر سريعاً إلى ذرى الحوادث دون الدخول فى تفاصيل كثيرة فلسوف نجد آثار هذا التحول .. واحتمالاته المتداعية أو القابلة للتداعى :

١ – سارع الملك فيصل بحشد الجيش السعودى فى مواجهة المنطقة التى تجمع فيها الجيش المصرى استعداداً للردع طبق سياسة النفس الطويل .

لكن الملك بدأ يكتشف – بمساعدة المخابرات الأمريكية والبريطانية التى فتح لها كل أبواب المملكة – أنه لا يستطيع أن يصدر أمراً للجيش السعودى بالدخول فى معركة مع الجيش المصرى خصوصاً إذا كان الجيش المصرى لا يفعل أكثر من ردع عدوان متحرك على اليمن من قواعد سعودية .

ولقد بدأ ضباط الجيش السعودى وجنوده يرون مظاهر خطط التحرش بثورة اليمن .

كذلك فإن تجمع عدد كبير من الضباط والجنود فى مكان واحد وأمام احتمال صدام مسلح مع جيش عربى جعلهم يفكرون ويتكلمون ... ويظهر من أفكارهم وكلامهم أن تعاطف الكثيرين منهم مع التيار القومى الثورى موجود .

وذهب السفير البريطانى فى جدة إلى الملك فيصل ينصحه رسمياً ويقول له :

– إن الحكومة البريطانية لديها من المعلومات ما يسمح لها بأن تخشى من وجود وتجمع الجيش السعودى أمام الجيش المصرى . . . وأن هناك خوفاً من أنه إذا أصدر الملك أمراً إلى الجيش السعودى بأن يتصدى للجيش المصرى – أن ينضم الجيش السعودى – أو أقسام كبيرة منه إلى الجيش المصرى – ويقاتل معه وليس ضده .

ولهذا فإن الحكومة البريطانية تنصح باستبدال الجيش بالحرس المجند من قبائل البدو والذى تشرف على تدريبه وتتولى قيادته بعثة عسكرية بريطانية !

وتأرجح الملك فى قبول النصيحة البريطانية . . . ثم بدأت الشكوك تغلب تردده فاستجاب وبدأ الحرس يحل محل الجيش ، كانت هذه هزة استتبعها بالطبع تسريح وإبعاد عدد من الضباط .

٢ – وراح الملك – بتأثير عوامل مختلفة ومتضاربة تتنازع تفكيره وتمزقه – يحاول إنشاء قوة مسلحة كبيرة وحديثة .

لكنه بين رغبته فى توفير الإحساس بالأمن العسكرى من ناحية ، وبين خشيته من مشاعر الضباط المتعلمين القادرين على استيعاب الأسلحة الحديثة واستعمالها ، لم يجد سبيلا لحل هذا التناقض غير الاستعانة إلى أقصى حد بالضباط الأجانب من الأمريكيين والإنجليز ، وأحدث ذلك بدوره رد فعله المنتظر لدى الضباط العرب خصوصاً من الشبان .

وفى كل الأحوال فإن السلاح الحديث أصبح يكلف الملك غالياً خصوصاً وأن الضباط الإنجليز كانوا هم الذين يتفاوضون باسمه مع الشركات الإنجليزية . . . كما أن الضباط الأمريكيين هم الذين كانوا يتفاوضون باسمه مع الشركات الأمريكية . . .

أى أنه لم يكن يملك خياراً فى توقيع العقود التى تقدم إليه . . . ولم يكن يملك خياراً فى دفع الثمن الذى يطلب منه .

ووقع الملك على عقود كثيرة لا يعرف ما تحتويه ، ودفع ، أو تعهد بدفع ما يزيد على سبعمائة مليون دولار وفق التقديرات الأمريكية الرسمية .

ولو كان يملك مال قارون نفسه لتأثر .

ولما كان المال هو الدعامة الأساسية للعرش فى السعودية ، فإن ذلك بدأ يحدث نتائج جانبية أخرى يسببها قلة ما أصبح تحت تصرف الملك من المال يوجهه حيث يشاء ولمن يشاء !

٣ – وبدأت الانفجارات تسمع فى نواح متفرقة من السعودية .

ولقد أحس الملك ومن حوله بمجرد القلق أولا حين دوت الانفجارات فى جيزان ونجران القريبتين من اليمن وطمأن الملك ومن حوله أنفسهم بأن الذين « فعلوها » هم بعض اليمنيين ممن استطاعوا التسلل عبر الحدود المكشوفة والمفتوحة مع اليمن ، وأن تغطية بعض مراكز الحدود أو إغلاقها قد يكفى .

لكن الانفجارات امتدت وانتشرت

انفجارات فى الرياض وهى على بعد ١٥٠٠ كيلومتر من أقرب حدود مع اليمن . . . ثم إن الرياض هى قلب نجد وهى كذلك عاصمة الأسرة المالكة . . . فكيف وصلت القنابل إليها ؟

انفجارات فى الفندق الذى تقيم فيه البعثة العسكرية الأمريكية وهو فندق « زهرة الشرق » ، وفى سرب الطيران الأمريكى الموضوع تحت تصرف البعثة فى مطار الرياض العسكرى . . . فما هو معنى ذلك ؟

انفجارات فى مكاتب وزارة الداخلية التى يتولاها الأمير فهد وفى

مكاتب وزارة الدفاع التى يتولاها الأمير سلطان . . . وهذه كلها مواقع حصينة لايدخلها غير الموثوق بهم ،وإذن فإن هناك عناصر سعودية تشترك فى هذه العمليات . . . ثم هى عناصر عسكرية وذلك يدعو إلى ما هو أكثر من القلق !

إن الأسرة المالكة فى السعودية أقامت عرشها على السيف فى يدها تستطيع أن تقمع به وتقطع الرقاب ، ولقد تمادت فى تثبيت أسطورة الخوف حتى لم يعد هناك ما يدعوها لاستعمال السيف . . . فإذا بدا سلطانها اليوم وكأنه معرض للتحدى فكيف تستطيع السيطرة على الأمور ؟

إن مروض الأسود ، وهذا تشبيه استعمله واحد من السفراء الأجانب فى جدة أمام بعض الأمراء ، يدخل إلى قفص الأسود وليس معه غير عصا لا تخيف طفلا ولكن الأسد سبق ترويضه على الخوف .

لكنه فى اللحظة التى يدرك فيها الأسد أن ما يمسك به المروض فى يده ليس غير عصا . . . فإن الموقف ينقلب رأساً على عقب داخل قفص الأسود !

٤ — من أثر ذلك بدأت فى السعودية عملية استرضاء لم يسبق لها مثيل ، لعل اللين أن يحقق ما قد يعجز العنف عن تحقيقه ، ولعل الذهب يمهد للذى أصبح أو قد يصبح مستعصياً على السيف .

بدأ الملك يحاول أن يكون زعيماً شعبيًّا يقف أمام قصره فى بعض وفود القبائل ليقول : ما أنا إلا خادم لكم . . . والرأى رأيكم والأمر منكم وإليكم ؟

وهذا كلام جديد فى السعودية .

إما أن يرفض الناس تصديقه و يعرفوا أن الملك يسترضى . . . ليغطى شعوره بالضعف ، وهذا خطير !

و إما أن يصدقه الناس ، وهذا أخطر ، لأن الملك فى هذه الحالة يصبح مطالباً بتنازلات تجعل فعله متوافقاً مع قوله ، وتكاليف ذلك فادحة على سلطته وثروته .

٥ – ولقد تعقدت هذه المشكلة أكثر بوصول الملك سعود إلى القاهرة.

وكانت للملك سعود – ولا تزال – صلات عديدة بقبائل كثيرة ، ومنذ خرج الملك سعود من المملكة بغير أن يوقع على وثيقة بتنازله عن العرش فإن الملك فيصل اكتفى بأن دفعه إلى النسيان فى فيينا وأثينا وراح هو يحكم كما يريد و يتحكم فيمن يعطيهم و إلى أى حد وفيمن يمنع عنهم العطاء و إلى متى ؟

كان وحده ملء الصورة فى السعودية .

وفجأة عاد سعود إلى الضوء العام و وصل إلى القاهرة .

ولست هنا أتحدث عن رأيى فى سعود فموقفى من سياسته معروف حين كان جالساً على العرش فى السعودية .

كذلك فلست أتحدث هنا عن فرص عودة الملك سعود إلى العرش فى السعودية أو استحالة العودة .

ما أركز حديثى فيه هو نقطة واحدة : هى أنه إن ظهر مرة أخرى فى الصورة ، و بطبيعة ظروفه وارتباطاته . . . و بطبيعة الأحوال فى السعودية ، فإن أقل ما يمكن أن يسببه ذلك للملك فيصل هو : استرضاء للناس أكثر . . . ودفع للقبائل أسخى . . . ومساومات مع بعض الأمراء مكلفة للمال والجهد والأعصاب !

٦ – وجاء ضرب نجران .

ولم يعد سراً أن بعض الطائرات المصرية ألقت عدداً من القنابل المتفجرة على منطقة نجران

ولقد كانت هناك أخبار عديدة من بيروت ونيويورك ولندن تشير كلها إلى أن الملك فيصل يريد أن يقاوم بعض ما يواجهه فى داخل المملكة بتجديد نشاط المتسللين ضد اليمن ، وبالفعل بدت فى المنطقة آثار نشاط متزايد لم يقترب بعد من حدود اليمن ولكنه يستعد .

وتقرر أن تقوم بعض الطائرات المصرية من قيادة اليمن بإلقاء عدد من القنابل المتفجرة فى منطقة نجران مع تجنب الخسائر فى الأرواح والممتلكات إلى أبعد حد .

وبالفعل فإن الطائرات المصرية لم تقترب من أية مواقع آهلة أو عامرة وإنما ألقت قنابلها حيث يسمع دويها ولا يؤثر انفجارها – ولم يستطع الملك فيصل نفسه أن يدعى بأكثر من أربعة ضحايا لهذه الغارة وأغلب الظن أن هذا العدد مبالغ فيه .

ولقد كان مقصوداً للدوى أن يسمع فى الرياض تحذيراً للملك ونذيراً بأن مصر جادة فى عزمها على ضرب قواعد العدوان فى السعودية إذا ما عاد التحرش بثورة اليمن ، وأنها الآن تنبه وعليه بعدها أن يتحمل النتائج وعليه أن يدرك أن أية حماية أمريكية تقطع له سوف تكون بغير فائدة

إذا أصر على العدوان فليس هناك من يستطيع حماية العدوان .

وإذا كف عنه لم يعد فى حاجة إلى حماية من أحد !

٧ – وكان أمر الحلف الإسلامى قد انكشف تماماً . . . وبدأ الملك يتلقى تباعاً ردود من دعاهم إلى الاشتراك فيه !

حتى بعض الذين كان الملك يحسن بهم الظن — من وجهة نظره — خيبوا ظنونه كلها .

«باكستان» ردت عليه بأن فكرة الحلف فى الوقت الحاضر أصبحت مشكلة أكثر منها حلا لمشكلة !

« تركيا» قالت إنها تفضل سفور الحلف المركزى على براقع الحلف الإسلامى . . . ثم هى دولة علمانية .

حتى «ماليزيا» لم تذهب إلى أبعد من الرد بأن الفكرة طيبة ولكن أكثر من نصف سكان ماليزيا غير مسلمين وإذا كانت المسألة مسألة أحلاف غربية فحلف جنوب شرق آسيا فيه الكفاية ثم هو أقرب !

ولقد كان الملك يتصور أنه خبير بالسياسة الدولية عالم بأسرارها يستطيع أن يطوى الدنيا بأسرها فى تلافيف عباءته .

لكن الملك اكتشف أن هذا التصور لم يعد ينطبق على الصورة التى يراها أمامه ولذلك سبب واضح وإن كان الملك لم يره بعد :

فى الماضى وحين كان فيصل لا يزال وزيراً لخارجية والده الملك عبد العزيز أو شقيقه الملك سعود ، كان نشاطه لا يتعدى قصور المملكة أو حدود المملكة على أكثر تقدير ، لكنه الآن يحاول ما هو أبعد . . . يحاول النشاط فى منطقة واسعة وعالم أوسع منها وذلك يحتاج إلى استعداد آخر أوسع من حدود العقال الذهبى الذى يحيط برأس الملك فيصل !

* * *

قلت له :

— هذه هى الدرجة التى بلغتها الأمور الآن ولست أعرف هل تراها تجاوزت نقطة اللاعودة أو هى ما زالت قبلها ؟

قال :

— أريد أن أسمع منك .

قلت :

— ظنى أنها تجاوزت نقطة اللاعودة . . إن طبيعة الملك فيصل هى التى تحكم ضده الآن . . . ولقد يظهر أمامنا الآن — بحكم ما صارت إليه أموره — أقل غروراً مما كان . . لكنى لا أظنه أقل عناداً أو أقل فيما يورثه العناد لأصحابه !

الفصل الثامن عشر

اللغز . . . والصورة

(١٧ فبراير ١٩٦٧)

أحياناً تصبح المواقف والمشاكل أشبه ما تكون بألغاز الصور المقطعة إلى أجزاء ونتف صغيرة ، تبعثرت واختلطت فى بعضها حتى ليبدو وكأنها فقدت كل صلة بينها . . . ثم يكون على المتسابقين أن يحاولوا فرزها وإعادة ترتيبها وتركيبها لتتوافق أجزاؤها ونتفها الصغيرة وتتطابق ، ثم تتحول بعد طول الصبر والعناء إلى لوحة كاملة ، واضحة ، ومعبرة !

* * *

والموقف والمشكلة الآن ، فى شبه الجزيرة العربية وكل ما يجرى فيها ، شىء من هذا النوع .

النار المشتعلة فى عدن . . . الموقف المتأزم فى محميات الجنوب العربى . . التوتر على حدود اليمن والسعودية . . . التنسيق المتزايد بين ملوك السعودية والأردن وإيران . . . انتخابات الكويت الأخيرة . . . محاولات الضغط على العراق . . صفقات الأسلحة الأمريكية والبريطانية الجديدة فى المنطقة . . . الحملة الدعائية المشتدة ضد مصر فى أوربا وأمريكا . . . حتى عزل الشيخ شخبوط حاكم أبو ظبي الخرافى واستبداله بشيخ آخر باهت اللون لا يلفت الأنظار كما لفتها الشيخ شخبوط بشخصيته الفاقعة الصارخة !

كل هذه ، وغيرها وغيرها ، هى فى الحقيقة قطع ونتف من صورة – فى الأصل – واحدة ، ومهما تبعثرت واختلطت مع بعضها فالصلة بينها موجودة . . . بل هى عضوية .

ومحاولة فرزها الآن وإعادة ترتيبها وتركيبها لتتوافق أجزاؤها ونتفها الصغيرة وتتطابق ، لم تعد – فى العالم العربى بأحواله الراهنة – مجرد مسابقة ، وإنما هى الآن – مهما كان الصبر والعناء – ضرورة حيوية للحصول على لوحة كاملة . . . واضحة ، ومعبرة !

* * *

و « التصور » ، استناداً على الظواهر والقرائن والأدلة ، مقدمة لازمة لتحقيق أية صورة .

كما أنه فى حل أى لغز يصبح العثور على « المفتاح » الصحيح مدخلا سليماً إلى رحاب الحقيقة !

. . . . . .

. . . . . .

والآن كيف يمكن أن نشكل تصورنا للأمور فى العالم العربى الراهن حتى نستطيع – استناداً إلى الظواهر والقرائن والأدلة – أن نقوم بتحقيق الصورة ؟ وكيف نتمكن من العثور على « المفتاح » الصحيح المؤدى إلى رحاب الحقيقة ؟ !

* * *

وبالتأكيد فإن « التصور » و « المفتاح » كلاهما لا يمكن الحصول عليه من غير الميدان الذى يجرى فيه الصراع الأساسى والرئيسى الدائر على أرض الشرق العربى الآن ، بين حركة القومية العربية بمضمونها

التقدمى من ناحية وبين الاستعمار الأجنبى وارتباطاته الرجعية من الناحية الأخرى .

وهذا هو الصراع الذى تمثل فى « مرحلة من المراحل » ، بالاحتلال الأجنبى السافر لأوطان عدد من الشعوب العربية — ومقاومة هذه الشعوب — مستميتة — ضد احتلال أوطانها .

ثم تمثل فى « مرحلة ثانية » فى محاولة وضع المنطقة العربية كلها فى إطار النفوذ الغربى ، على شكل حلف الدفاع عن الشرق الأوسط الذى رفضته الشعوب العربية فلم ير النور أبداً . . . ثم على شكل حلف بغداد الذى قبله بعض الحكام العرب ضد رغبات شعوبهم فخرج إلى الدنيا فترة من الوقت حتى عاد فسقط فى الظلام هو الآخر وطويت صفحته .

ثم تمثل هذا الصراع فى « مرحلة ثالثة » ، بمحاولة الاستعمار أن يضرب مصر عسكريًّا فى السويس ويصفى مركزها فى قيادة حركة القومية العربية بمضمونها التقدمى . . ولم ينجح ، وكذلك بمحاولة الاستعمار أن يطوق مصر ويعزل مركزها الثورى — وذلك بواسطة مشروع أيزنهاور ثم بواسطة مشروع الحلف الإسلامى . . ولم ينجح كلاهما ، ولم تستطع كل هذه المحاولات أن تثبت وجودها أو فاعليتها فى الميدان الذى يجرى فيه الصراع الأساسى والرئيسى الدائر على أرض الشرق العربى الآن .

* * *

وأكثر من ذلك طرأت عوامل جديدة :

* إن الاستعمار — بحكم الانتصارات التى استطاعت حركة القومية العربية بمضمونها التقدمى أن تحققها — فقد معظم قواعده التى كان يقيم عليها نظام سيطرته . . فقد السويس فى مصر ، والحبانية فى العراق ، وهو الآن يفقد عدن فى الجنوب .

* وإنه بحكم التجارب – سواء فى المنطقة العربية أو فى خارجها – أصبح الاستعمار الآن أكثر إدراكاً ودقة فى حساب تكاليف الاحتفاظ بقواعده فى أوطان شعوب ترفض بقاءه على أرضها . . . وهذا معنى عبر عنه رئيس الوزارة البريطانية الحالى هارولد ويلسون فى عديد من المناقشات التى اشترك فيها أخيراً حول إعلان بريطانيا أنها مضطرة إلى الانسحاب من الجنوب العربى قبل سنة ١٩٦٨ .

* ثم إن الدولة التى قامت بالدور الأكبر فى حماية النفوذ الاستعمارى فى المنطقة العربية – وهى بريطانيا – تواجه الآن بصفة خاصة أزمة مالية خطيرة تحتم عليها تخفيض نفقاتها العسكرية فى الخارج إلى أقصى حد، ومن ناحية ثانية فإن الدولة المتقدمة حديثاً إلى حماية النفوذ الاستعمارى ، وهى الولايات المتحدة الأمريكية ، لا تستطيع لأكثر من سبب سياسى واستراتيجى ونفسى أن تتقدم صراحة للصرف على القواعد التى أفلست بريطانيا وهى تحاول الاحتفاظ بها !

* يضاف إلى ذلك أن الدولة القاعدة فى حركة القومية العربية بمضمونها التقدمى ، وهى مصر – التى استحال فيما سبق من مراحل الصراع ضمان احتلالها ، أو ضمان تصفية مركزها الثورى ، أو ضمان تطويقه وعزله – قد قفزت بتأييدها لثورة اليمن لكى تصبح قوة موجودة – وجوداً مادياً – فى شبه الجزيرة العربية التى هى قلب وبطن المصالح الاستعمارية كلها . . .

* كل هذا والمصالح الكبرى التى يريد الاستعمار حمايتها بإبقاء المنطقة العربية تحت نفوذه ، لم تتضاءل مع الأيام قيمتها . . . بل تزايدت مع الأيام قيمتها ، وبترول الشرق العربى – الكامن كله تقريباً فى شبه الجزيرة العربية أو عند أطرافها الشمالية الشرقية هو أول وأكبر هذه المصالح ،

و بعده المعابر البرية والمائية والجوية للعالم العربى بموقعه الحاكم على مداخل القارات وفى وسط الدنيا تماماً .

* * *

إذا كانت هذه الأوضاع والعوامل صحيحة — وهى صحيحة بالفعل — فإنها تستطيع تشكيل « التصور » الذى يمكن عن طريقه تحقيق الصورة الراهنة فى شبه الجزيرة العربية .

و بالتالى فإن «مفتاح» حل اللغز الذى يبدو أمامنا قطعاً ونتفاً مبعثرة يصبح فى متناول اليد . . جواز مرور إلى رحاب الحقيقة .

. . . .

. . . .

ومن هذا كله يبرز سؤال قد يكون فيه « التصور » و « المفتاح » :

— هل نحن الآن أمام محاولة جديدة يريد الاستعمار بواسطتها أن يضمن الاحتفاظ بمصالحه فى شبه الجزيرة العربية و يتخلى فى الوقت نفسه عن قواته وقواعده العسكرية الحامية ؟

. . . .

. . . .

قبل أن نقطع نهائياً فى صحة « التصور » و « المفتاح » على هذا النحو فإنه لا بد لنا — وكما يفعل المتسابقون فى حل ألغاز الصور المقطعة — أن نتأمل الأجزاء والنتف الممزقة ، وندرس زوائدها إلى الخارج ، وفتحاتها إلى الداخل ونبحث — على ضوء «التصور» و«المفتاح» — إذا كان يمكن تركيبهما معاً بحيث تتلاءم وتتكامل وتظهر منهما مع كل حركة . . ملامح صورة يمكن أن تصبح فى النهاية واحدة . . واضحة ومعبرة ؟

* * *

نبدأ ونجرب

ونمد أصابعنا إلى المحاولة :

١ – إن اتصال المصالح بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين، بريطانيا، وترابط هذه المصالح من أبرز حقائق الموقف الدولى المعاصر، وهو ما يسميه الجنرال ديجول رئيس الجمهورية الفرنسية بالشركة الأنجلوساكسونية .

وأمريكا هى الشريك القوى والكبير فى هذه الشركة ، وبريطانيا بالطبع هى الضعيف والصغير ، ومشكلتها أنها تزداد ضعفاً وصغراً ، والعلاج الوحيد لأمراضها فى تشخيص الحزبين القادرين على الحكم فيها – حزب المحافظين وحزب العمال – هو الانضمام إلى السوق الأوربية ، وهو ما يعارضه الجنرال ديجول خوفاً على أوربا من تسلل سيطرة الشريك القوى الكبير وراء دخول الشريك الضعيف الصغير .

ولكى تستطيع بريطانيا أن تحتفظ بقيمة الجنيه الاسترلينى ، وتستطيع أن تدخل بهذه القيمة إلى السوق الأوربية المشتركة فإنه يتحتم عليها أن تضغط نفسها داخل إطار اقتصادى صحى وتتخفف من أعباء كثيرة كانت تتكلفها فى الدفاع شرقى السويس ، وأهمها بغير شك تكاليف الحاميات والقواعد الموجودة فى الشرق الأوسط خصوصاً وأن ضياع مركز سوكارنو فى جنوب شرق آسيا قد أعفاها من تكاليف المواجهة مع إندونيسيا بسبب النزاع على الملايو مركز أهم المصالح البريطانية الباقية فى جنوب شرق آسيا فضلا عن أن التدخل الأمريكى العنيف فى فيتنام ثبت إلى وقت طويل وجود أمريكا – أو تدخلها بمعنى أصح – فى شرق آسيا .

لكن الولايات المتحدة ليس لها مثل هذا الوجود فى الشرق الأوسط كما أن الطريق ليس مفتوحاً إلى تدخلها المكشوف .

وإذن لا تستطيع بريطانيا أن تترك مصالحها بغير ترتيب كاف لحمايتها فهى إذا فقدتها – خصوصاً موارد البترول فى الخليج العربى وحوله – فقدت أهم دعامات الجنيه الاسترلينى وضيعت حتى فرصتها فى الدخول بقيمته إلى السوق الأوربية المشتركة .

وفى نفس الوقت فإن الولايات المتحدة الأمريكية لها النصيب الأكبر فى البترول العربى من شبه الجزيرة العربية وشواطئها على الخليج وما حوله ، وإذن فبين الاثنتين – إلى جانب ما بينهما – اهتمام موحد بضرورة تأمين الدفاع عن شبه الجزيرة العربية ، كما أن الخطر فى نظرهما واحد وهو حركة القومية العربية بمضمونها التقدمى ، يمثلها إلى درجة التجسيد وجود الجيش المصرى فى اليمن واشتراكه فى الدفاع عن الثورة فيه .

٢ – ومما يستوجب انتباهاً خاصًّا أن الولايات المتحدة الأمريكية اتخذت حيال الجمهورية فى اليمن موقفاً يختلف عن موقف بريطانيا برغم ما بين البلدين من تنسيق ووحدة فى الهدف .

اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالجمهورية فى اليمن ، ورفضت بريطانيا أن تعترف بالجمهورية فى اليمن ، وبذلت الدولتان معاً – كل منهما بوسيلتها – أقصى جهودها لمطلب واحد هو إخراج الجيش المصرى من اليمن ومن شبه الجزيرة العربية كلها .

كان المطلوب هو إخراجه . . . رضاً أو كرهاً .

واعترفت الولايات المتحدة بالجمهورية فى اليمن لمحاولة إخراج الجيش المصرى رضاً .

ورفضت بريطانيا أن تعترف بالجمهورية فى اليمن لمحاولة إخراج الجيش المصرى كرهاً .

وبالتأكيد فلقد كان اختلاف الموقفين تعبيراً عن تخطيط مشترك يريد أن يحتفظ فى يديه بالخيار أمام كل احتمال . . . ولم يكن اختلاف الموقفين نزاعاً على هدف أو حتى على أسلوب .

لكن محاولات إخراج الجيش المصرى من اليمن على رضاً لم تنجح ، ولقيت نفس المصير محاولات إخراجه على كره !

وكان المقصود فى النهاية هو تحطيم الثورة فى اليمن لتصفية رأس جسر ثورى وضع نفسه فى طرف شبه الجزيرة العربية والفارق فارق توقيت :

هل يتم تحطيم الثورة اليمنية بعد خروج الجيش المصرى بالرضا من اليمن ؟ أو يرغم الجيش المصرى كرهاً على الخروج من اليمن وتتحطم الثورة اليمنية قبل خروجه ؟

٣ — ومع فشل محاولات إخراج الجيش المصرى من اليمن رضاً أو كرهاً ، وبالتالى مع فشل هدف تحطيم الثورة فى اليمن — وفى نفس الوقت مع اضطرار بريطانيا إلى الانسحاب من الجنوب العربى وعدن بسبب ضربات الثورة الوطنية من ناحية وتخلخل أوضاع الاقتصاد البريطانى من ناحية أخرى فإن بريطانيا اتخذت خطوات يسهل ربطها جميعاً بمخطط واحد .

طردت حكومة عدن التى كان يرأسها عبد القوى مكاوى والتى كانت على صلة بالحركة الثورية ثم أقامت حكومة من سلاطين المحميات ثم ذهبت إلى الأمم المتحدة — التى كانت تريد أن تنأى بالجنوب المحتل عنها دائماً — وراحت هناك تدعى حاجتها إلى المساعدة على توفير انتقال سلمى من الاحتلال إلى الاستقلال — ! — فى الجنوب العربى . . .

على أساس الأمر الواقع الذى دبرته وعلى أساس التعامل مع حكومة اتحاد السلاطين التى عادت الثورة والتى جاء أمل الاستقلال ضد رغبات أعضائها جميعاً وخلافاً لمطالبهم حتى الآن .

٤ – والرياح تحمل بذوراً ثورية من الجنوب العربى المحتل . . . إلى الخليج العربى المحتل ، ولم يعد ممكناً أن يبقى الخليج منطقة مقفلة كما ظل طويلا خصوصاً أن البترول قد تفجر فيه هو الآخر بغزارة كما أن مراكز قومية جديدة قد برزت فيه بتأثيرها خصوصاً من المركز القومى الشعبى للكويت .

وحدثت عمليات غريبة فى الخليج « لتسوية » أوضاعه وإزالة كل ما يستطيع أن يلفت النظر إليها بصلاحه أو بسوئه على حد واحد .

« صقر القاسمى » سلطان الشارقة أزيح لأنه كان احتمالا صالحاً .

« وشخبوط » شيخ أبو ظبى أزيح للسبب العكسى فقد كان شخبوط قصة خرافية وكان وجوده فى حد ذاته دعوة للثورة ، فقد كان الشيخ نصف مجنون أطارت الثروة عقله بعد فقر مدقع واشترى من بنك إنجلترا على سبيل المثال أوراق نقد من ذات المليون جنيه سحبت من التداول فى الأسواق من سنوات طويلة ، لكن شخبوط كان يضع واحدة منها فى كل جيب من جيوب سترته الخمسة ، أى أنه كان يحمل معه دائماً خمسة ملايين جنيه استرلينى ، وحين كان يحادث أحداً فإنه بعد أول ثانية من الحديث كان يقفز واقفاً ويخرج أوراقه الغالية من جيبه ويقول صارخاً : ماذا تظنون ... أنا غنى ... غنى ... فى جيبى هذا مليون وفى الثانى مليون . . . وفى الثالث مليون . . . فى كل جيب مليون ثم يجلس ويروح يقهقه بلا وعى ولا معنى !

٥ – والأوضاع فى الجنوب وفى الخليج لا يمكن إبقاؤها على ما هى

عليه إلا بتعاون مع العرش السعودى وكان جلوس فيصل عليه فرصة عمر لا ينبغى أن تضيع فإنه بتفاعل الأحقاد والمطامع كان مستعداً للتعاون سباقاً إليه .

وينبغى أن نذكر أن أحقاد فيصل ومطامعه كانت سبب صدامه مع الجمهورية العربية المتحدة ، ولم تنشأ نتيجة لهذا الصدام

بدأت من قبل ضد سعود الذى كانت له ولاية العهد ثم الملك فى وقت كان فيصل يعتقد فيه أنه الأولى والأحق !

والمملكة العربية السعودية لها وضع خاص فى شبه الجزيرة العربية فهى الأكبر – وإن كان تعدادها لا يزيد على ثلاثة ملايين نسمة طبقاً لإحصاء دقيق أمر الملك فيصل بإخفائه وعدم إذاعته حتى لا يؤثر على « حجم » ملكه – ثم هى الأسبق إلى الغنى . . . وهى بالتالى الأسبق إلى القوة ولو حتى بشكل نسبى !

وبريطانيا التى كانت على نزاع مع المملكة السعودية بسبب واحة البوريمى ، تصالحت مع ملك السعودية على شروطها بدون أن تعيد إليه البوريمى بالطبع ، وبدأت هى تفتح له الطريق إلى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية – قبل رحيلها عنها .

نصحت السلاطين فى الجنوب العربى بالاتصال به ، وجعلت حكومة الاتحاد هناك تكملة لنظامه ، ومهدت له الطريق إلى الخليج . . . كل ذلك لحسابها بالطبع . . . وليس تبرعاً لحسابه !

٦ – وبدأت بريطانيا وأمريكا تدعوان شريكاً جديداً يستطيع موازنة فيصل مهما كانت الثقة به اليوم – إلى دخول الخليج وهو شاه إيران .

هو الآن شريك للسعودية ، وإذا تغيرت الأوضاع فى السعودية فهو

المهيأ لكى يصبح خصماً فى النزاع على الخليج بحكم مطامع إيران فيه وفى ثرواته .

والسعودية التى دفعت سنة ١٩٥٧ رشوة مقدارها مليون دولار للجنرال بختيار قائد قوات الأمن الإيرانية وذلك لكى يسحب قواته من جزيرة « عربى فارسى » التى كان قد احتلها . . . هى نفسها السعودية التى تفتح أبواب الخليج كلها أمام شريكها الجديد شاه إيران .

و بريطانيا التى بعثت بقواربها المسلحة سنة ١٩٥٧ إلى بعض جزر الخليج لتخلع علامات بحرية وضعتها إحدى سفن حراسة الشواطئ الإيرانية رمزاً لملكية إيران لهذه الجزر هى نفسها ــ بعد يأسها من السيطرة المباشرة على الخليج واضطرارها للانسحاب منه ــ التى تحرض شاه إيران على شركته الجديدة مع ملك السعودية !

٧ ــ وكان لا بد من إدخال الكويت فى هذا المخطط أو إسكاتها عليه ، وكانت العناصر القومية الشعبية فى الكويت هى العناصر اليقظة على عروبة الخليج وكانت هى التى لفتت النظر إلى أن سلاطين محميات الخليج يبيعون جوازات السفر إلى محمياتهم للإيرانيين بسعر خمسمائة روبية للجواز وكان ذلك موضع اهتمام وتحقيق فى اجتماعات الجامعة العربية باعتباره طوفاناً سوف يغرق الخليج ويغطى على عروبته ويغير حقيقته القومية بغير غزو .

ولقد كانت انتخابات الكويت الأخيرة أول انتخابات فى تاريخها تعالت خلالها الأصوات وتوافرت الأدلة تشير إلى حدوث تدخل فيها . . . وإلى ممارسة ضغط .

٨ ــ وزار الملك حسين الكويت أخيراً زيارة تحيط بها ظنون ، وخرج من الكويت إلى الخليج وعاد بثلاثة ملايين جنيه استرلينى أعطاه

إياها شيخ أبو ظبى الجديد ، الذى ولاه الإنجليز بعد خلع الشيخ شخبوط .

وكانت بريطانيا قد حملت الشيخ شخبوط فى أيامه ، قبل سنة فيما أذكر ، على زيارة عمان وهناك تبرع للملك حسين بمليون جنيه . . . والشيخ الجديد ليس أكثر سخاء من الشيخ شخبوط ولكنه أكثر إطاعة للأوامر و بغير صخب وصراخ وألوان فاقعة .

وقيمة الملك حسين أنه شريك صغير للملك فيصل ، ثم هو يملك جيشاً من البدو يتصور أن ولاءه مقطوع لأهداف النضال القومى .

٩ – ولقد كان فيصل يتمنى لو استطاع هو أن ينجح فى إخراج الجيش المصرى من شبه الجزيرة العربية .

ولقد حاول فيصل بواسطة الملكيين وتاهت محاولته فى دروب الجبال وعلى الرمال !

وحين مدت مصر إليه يد السلام عن رغبة فى إتاحة فرصة أمام العمل العربى الموحد من أجل فلسطين فإن الملك بعد تمنّع مد يده .

لكنه لم يكن مهتمـًّا بالسلام . كان مهتمـًّا بخروجها من شبه الجزيرة فذلك دوره فى المخطط ثم هو طريق تحقيق مطامعه .

ولقد حدث حوار غريب أثناء بعض الاتصالات التى كان القصد منها إقرار السلام فى اليمن

ذات يوم قال كمال أدهم شقيق زوجة الملك لمسئول مصرى :

– ما رأيكم لو خرجتم من اليمن بلا قيد ولا شرط . . . تتركون للملك فيصل شبه الجزيرة العربية باعتبارها نطاق سيادته وفى مقابل هذا فإن الملك

يعترف لمصر بحق مماثل فى السودان وليبيا و يطلق يدها هناك .

وقيل يومها لكمال أدهم :

– إن مصر ليست مستعدة للدخول فى صفقات من هذا النوع ، وفضلا عن أن الملك فيصل لا يملك فى السودان أو فى ليبيا شيئاً يبيعه للآخرين ، فإن مصر بالذات ليست مستعدة لأى صفقات على حساب السودان وليبيا . . . ثم إن هذا المنطق يليق بنازية هتلر ولا يليق بمبادئ العمل العربى وقيمه .

١٠ – واجتمع الملك فيصل والملك حسين أخيراً فى الرياض وكان نصف حديثهما عن العراق ، فإن تأمين العراق لحساب الرجعية يحتم الأوضاع فى شبه الجزيرة العربية ويحكم الغطاء فوقها فضلا عن أن العراق نفسه منبع من أهم منابع البترول .

وكان الملك حسين على استعداد لتقديم بعض البقايا من رجال عهد نورى السعيد إلى الملك فيصل ، وكان الملك فيصل على استعداد للدفع .

ولقد وعدته شركة أرامكو بأن تزيد إنتاج البترول فى السعودية بما يحقق له فائضاً يوازن نفقاته المتزايدة .

كذلك فإن إدارة المخابرات المركزية الأمريكية وضعت تحت تصرفه اعتماداً ضخماً لخطة شبه الجزيرة العربية .

وفوق ذلك فلقد حصل على معونة من القمح الأمريكى تباع فى أسواق السعودية ثم يتم تحصيل الثمن لحساب الخطة الكبيرة نفسها .

١١ – والحملة الدعائية ضد مصر لم تصل فى عنفها إلى ما وصلت إليه أخيراً ومن الواضح أن هناك عنصراً جديداً فيها هو عنصر شركات البترول الكبيرة صاحبة احتكارات شبه الجزيرة العربية ، وينابيعها فى السعودية وفى الخليج .

وكانت هذه الشركات تقف موقفاً معقولا من القوى القومية فى مرحلة الثورة الوطنية ، لكنها فى مرحلة الثورة الاجتماعية — وهذا طبيعى — فقدت ما كان لها من بعض العقل .

وهذه الشركات ، بتنظيماتها وبخبرائها وبموظفيها خصوصاً فى إدارات العلاقات العامة هى التى تملأ الصحف الأمريكية والأوربية بالحملات المدروسة ضد مصر.

١٢ — . . . يفقد الاستعمار مراكز قواته وقواعده ، لكنه لم يفقد ذكاءه ، لأنه لا يريد أن يفقد مصالحه !

ومن أكثر ما يستوقف التأمل أن الاستعمار يجعل الملك فيصل يصرف من أموال البترول السعودى على مخططات حماية المصالح الاستعمارية . . ثم يحقق من هذه العملية — فوق ذلك — ربحاً ! !

الملك فيصل يبنى جيشاً لا يحتاج إليه فى ظروف طبيعية . . . بل إنه لا يجد لديه من العناصر التى يطمئن إلى ولائها ما يكفى لتكوين هذا الجيش وبذلك فإن الجيش الذى يبنيه فيصل جيش من المرتزقة على شكل بعثات عسكرية أمريكية بريطانية ، على شكل مدربين ، على شكل طيارين ، على شكل قادة وحدات خاصة ، جيش لا يستطيع أن يحارب فى فلسطين ، فإنه على فرض تحقق فاعلية له ، وعلى فرض إمكان تعريبه يوماً ، جيش لا يستطيع بمنشآته كلها أن يعمل خارج جنوب شبه الجزيرة العربية .

وإذن فالملك يصرف على جيش لا يستطيع أن يخدم غير أهداف السياسة الاستعمارية . . .

وفوق ذلك فهو يشترى من الاستعمار كل معداته بالسعر الذى يحدد له أى أن أرباح الاستعمار مركبة !

* * *

وهذه بعض الأجزاء والنتف الصغيرة من لغز الصورة المقطعة فى شبه الجزيرة العربية .

. . . .

. . . .

أظنه لم يعد لغزاً كما كان !

وكانت هذه الشركات تقف موقفاً معقولا من القوى القومية في مرحلة [illegible] — فقلت ما كان لها من بعض الفضل .

وهذه الشركات ، بمنظماتها وخبرائها وموظفيها خصوصاً في إدارات العلاقات العامة هي التي تملأ الصحف الأمريكية والأوروبية بالحملات المدروسة ضد مصر .

١٢ — . . . يفقد الاستعمار مراكز قواته وقواعده ، لكنه لم يفقد ذكاءه ، لأنه لا يريد أن يفقد مصالحه !

ومن أكثر ما يستوقف التأمل أن الاستعمار جعل الملك فيصل يصرف من أموال البترول السعودى على مخططات حماية المصالح الاستعمارية . . ثم يحقق من هذه العملية — فوق ذلك — ربحاً !!

الملك فيصل يبنى جيشاً لا يحتاج إليه فى ظروف طبيعية . . . بل إنه لا يجد لديه من العناصر التى يطمئن إلى ولائها ما يكفى لتكوين هذا الجيش وبذلك فإن الجيش الذى يبنيه فيصل جيش من المرتزقة على شكل بعثات عسكرية أمريكية بريطانية ، على شكل مدربين ، على شكل طيارين ، على شكل قادة وحملات خاصة ، جيش لا يستطيع أن يحارب فى فلسطين ، فإنه على فرض تحقق فاعلية له ، وعلى فرض إمكان تعبئته يوماً ، جيش لا يستطيع بمنشآته كلها أن يعمل خارج جزيرة شبه الجزيرة العربية .

وإذن فالملك يصرف على جيش لا يستطيع أن يخدم غير أهداف السياسة الاستعمارية . . .

وفوق ذلك فهو يشترى من الاستعمار كل معداته بالسعر الذى يحدد له أى أن أرباح الاستعمار مركبة !

الاستعمار لعبته الملك

حلف الدفاع عن الشرق الأوسط، ثم حلف بغداد، ثم مشروع أيزنهاور، ثم الحلف الإسلامي، كلها مشروعات متنوعة تحمل أسماء متغيرة، لكنها في النهاية جميعاً، ليست غير أقنعة ملونة لوجه واحد حاول بها أن يخفي وراءها ملامحه!